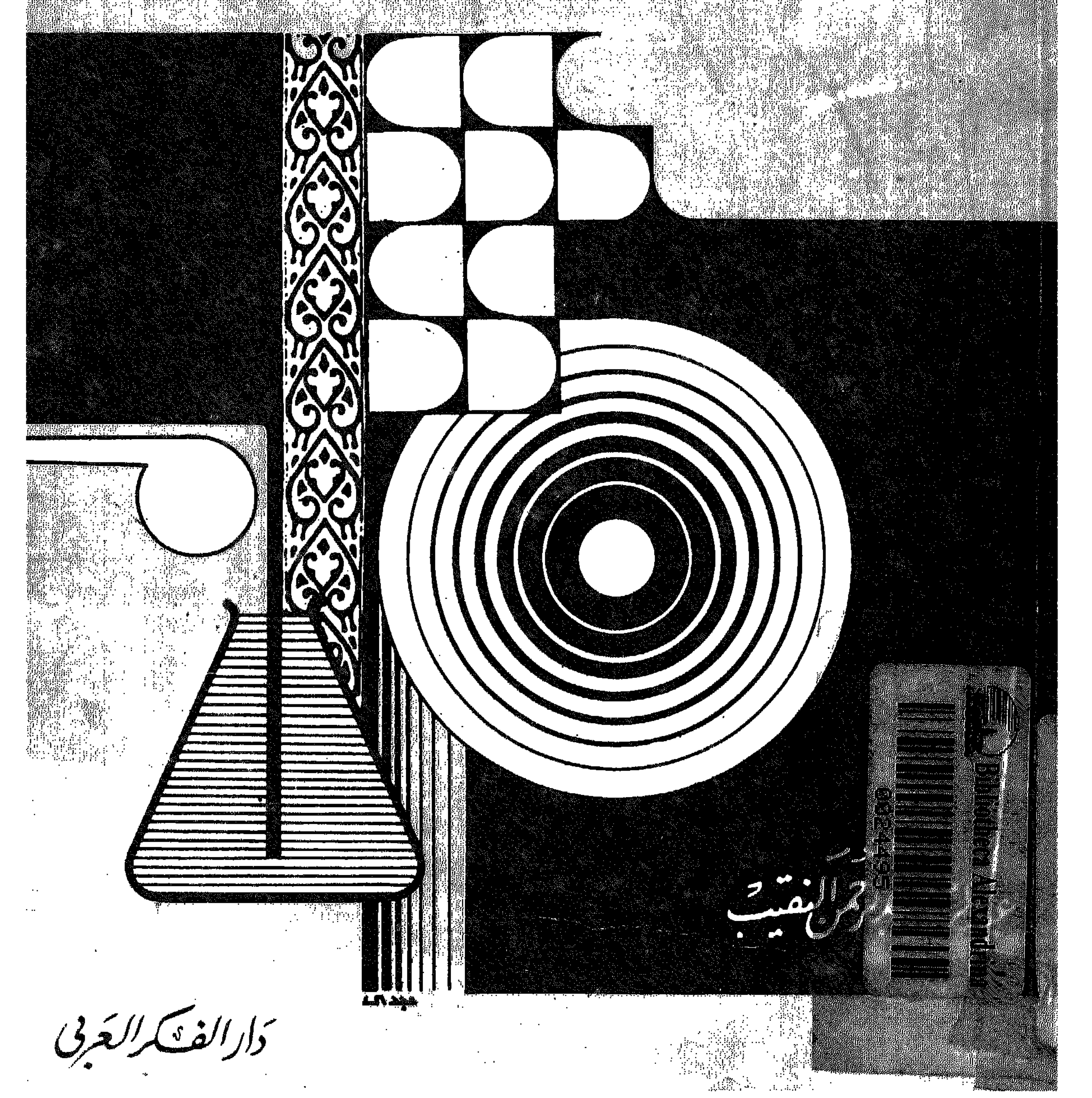
سلسلة من آفاق البحث فى التربية الإسلامية

الكتاب الرابع

الإعداد التربوى والمهنى للطبيب عند المسلمين



...حمن النقيب

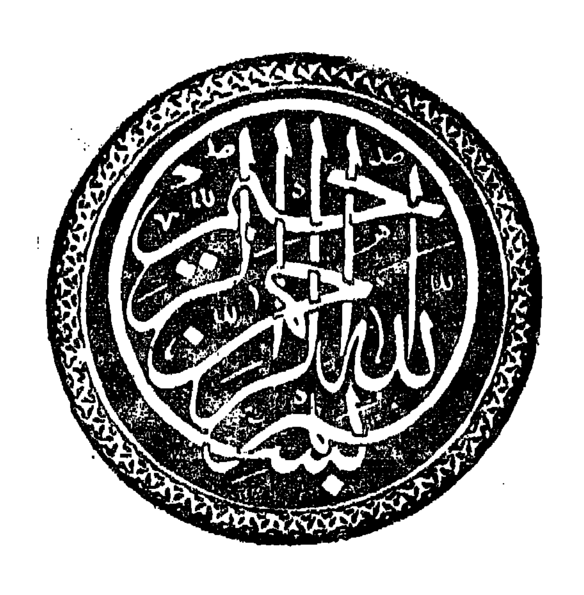
دار الفكر العربى

سلسلة من آفاق البحث في التربية الإسلامية
الكتاب الرابع

الإعداد التربوي والمهني
للطبيب عند المسلمين

دكتور
عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب
كلية التربية - جامعة المنصورة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١١ شارع جواد حسني / القاهرة
ص ب ١٣٠١ - ت ٧٦٠٥٢٣


بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة البحـــث

ينخل اهتمام الباحث بموضوع تلك الدراسة ضمن اهتمامه العـام بدراسة تاريخ التربية عند المسلمين ــ وهو اهتمام قديم يرجع الى سنوات دراسته لدبلومات التربية ، ثم يمتد الى مرحلة الماجستير التى كانت حـول « الآراء التربوية فى كتابات ابن سينا » * . فالى مرحلة الدكتـوراه عن « الاصلاح التعليمى للأزهر فى الفترة من عام ١٨٧٢ م ــ ١٩٧٢ م » ** . ولقد تضاعف اهتمام الباحث بهذا الاتجاه فى الفترة الأخيرة كرد فعل لهذا التجاهل الطويل لدراسة تراثنا التربوى والنفسى والذى وصل أحيانا الى درجة الازدراء والتحقير وعدم الاعتراف . ورغم ايمان الباحث المطلق أن الفكر التربوى والنفسى المعـــاصر قد حقق تقـــدما هائلا مما يحتم على الدارسين أن يواكبوا هذا الفكر المعاصر ويدرسوه بعمق ، الا أن معرفة الباحث الأوليـــة بتراثنا التربوى والنفسى قد أكدت له الكثير من الجوانب المشرقة التى تستحق الدراسة والتأمل . وعلى سـبيل المثال فان سريان روح الخير العام فى النظام التربوى الاسلامى ما زال معلما هاما من معالم هذا النظام تحاول البشرية بنظمها التربوية المختلفـــة أن تتلمس الطريق اليه فلا تكاد تصله الا قليلا . ولا شك أننا كلما ازددنا اطلاعا على هـذا التراث ودراسة لأعلامه وأفكاره ومنجزاته التربوية والحضارية كلما ازداد تقديرنا لهذا الجهد ، ومعرفة بالطرق التى سلكها سلفنا فى تدرجهم الى اكتشاف حقائق الأشياء وارساء قواعد الترقى العلمى والتربوى . ولسنا نرى أن مثل هذه الدراسات خوض فى فضول وتماد فى « علم لا ينفـــع

---

* الباحث : **الآراء التربوية فى كتابات ابن سينا** ، رسالة ماجسـتير ، كلية التربية جامعة عين شمس ، ١٩٦٩ .

** The Educational Reform of AlAZhar, 1872 — 1972, Ph, D. Thesis Exeter University, 1980.

وجهل لا يضر » بل نعتقد أنها ســـــبيلنا الوحيد لتأصـيل فكرنا التربوى والنفسى ، وتحديد هويتنا الثقافية والحضارية التى ما زالت تسبح فى غيوم الضياع حتى اليوم .

ودراستنا الحالية عن الاعداد التربوى والمهنى للطبيب عند المسلمين تقتصر على اعداد الطبيب البشرى Medical Doctor ولا تتعرض للعلاج النفسى أو « الطب الروحى » كما سماه العلماء المســـلمون * . كذلك فان دراستنا الحالية تركز على الاعداد التربوى المهنى لهذا الطبيب دون أن تناقش منجزات الطب الاسلامى ، أو اسهامات الأطباء المسلمين فى تطور الطب العالمى ** اذ أن مثل هذه الدراسات تحتاج الى اخصائيين

---

* هناك دراسـات تراثية يمكن الرجوع اليها فى هذا الموضـوع مثل : **الطب الروحانى** : للامام الشيرازى ، مطبعة المفيد ، القاهرة ١٣٩٩ هـ ، **رسالة فى مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد فى الرذائل** : لابن حزم ، مطبعة النيل ، القاهرة ، ١٣٢٣ هـ ، **الطب الروحانى** : للحافظ بن الجوزى، مكتبة القدس ، القاهرة ١٩٨١ ، **الجواب الكافى لمن ســـأل عن الدواء الشـــافى ، المسمـى الداء والدواء** ، لابن قيم الجوزية ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ١٩٧٢ ، **واحياء علوم الدين الغزالى** ، دار احيــــاء الكتب العربية ، القاهرة ، (بدون تاريخ) .. وغيرها .

** هناك دراسات عدة ظهرت فى هذا الميدان مثل :

بول غليونجى : **ابن النفيس** ، أعلام العرب ٥٧ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، (بدون تاريخ) ، محمود الحاج قاســـم محمد : **الموجز لما اضافه العرب فى الطب والعلوم المتعلقة به** ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٤ ، مرسى محمد عرب : **لمحات من التراث الطبى العربى** ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٧٥ ، أحمد حسنين القرنى : **قصة الطب عند العـــرب** ، الدار القومية للطبـــاعة والنشر ، القـــاهرة (بدون تاريخ) ... الخ ، والى جانب هذه الجهود الفردية هناك جهود جماعية ومؤتمرات عقدت لهذا الغرض مثل :

أبحاث وأعمال المؤتمر العالمى الأول ، والثانى ، عن الطب الاسلامى =

فى الطب النفسى وفى علم النفس ، وفى الطب البشرى ، كما أنها تخرج عن حدود مجـــال البحث والباحث . أن اهتمام الدراســة الحالية هو ابراز الجانب التربوى والمهنى من اعداد الطبيب عند المســـلمين : كيف تربى هذا الطبيب ؟ وكيف أعد مهنيــا ؟ وكيف تم انتقاؤه ؟ وما هى حقــوقه وواجباته ؟ مع تقييم هذا الأســلوب فى الاعداد ، وابراز بعض الدروس المستفادة من تلك التجربة التربوية الاسلامية فى ميدان التعليم والتمهين الطبيين .

ولقد قسم الباحث دراســـته الى أربعة فصول : **الفصل الأول :** بعنوان « دور الاسلام وتعاليمه فى ازدهار الطب الاسلامى » . وفى هذا الفصل عالج الباحث كيف كانت تعاليم الاسلام هى الدافع القوى لاقبـــال المسلمين على العلم والتعليم ومنها التعليم الطبى . فقد حثت تلك التعاليم على طلب العلم والمحافظة على صحة الانسان وطلب الدواء لكل داء . ولقد وضح الباحث أثر هذه التعاليم منذ عهد الرسول والخلفاء الراشدين، وفند تاريخيا دعوى أن عصر الرســول والخلفاء الراشدين وصدر الدولة الأموية لم يختلف عن عصر الجاهلية فيما يتعلق بالعلم والتعليم ، لأنه كان زمان الفتن الأهلية والحروب الداخلية وفتوح البلدان والجهـــاد لنشر الاسلام ، وبين كيف أن تعاليم الاسلام منذ البداية كانت دافع المســلمين الأكبر للاقبال على العلم ومنه « التعليم الطبى » .

الفصل الثانى : بعنوان : الاعداد التربوى للطبيب عند المسلمين ،

---

* سلسلة مطبوعات منظمة الطب الاســلامى ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ، الكويت ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، **مهرجان أســبوع العلم الثامن :** المجلس الأعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، دمشق ١٩٦٧ ، **المؤتمر العلمى العــربى الخامس ، ٥ مارس ١٩٦٦ :** الاتحـاد العلمى العربى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ . ولا شك أن هذا المجال يحتاج الى مزيد من الجهود الجماعية ولفترة طويلة حتى يمكن خدمة هذا الميدان .

المرحلة الأولى (التعليم الابتدائى) . وفى هذا الفصل عالجت الدراســة المرحلة الأولى من تعليم الطبيب وهى المرحلة الابتدائية Primary Education وناقشت أهداف تلك المرحلة ، ومناهجها ، وطرق التدريس المتبعة فيها ، مع تقييم تلك المرحلة من حيث المزايا والعيوب ، وكيف أثر هذا التعــليم الابتدائى على شخصية الطبيب فيما بعد .

الفصل الثالث : بعنوان « الاعداد التربوى والمهنى للطبيب ، المرحلة الثانية المتخصصة Further Education . وقد فضل الباحث اطلاق هذا المصطلح على تلك المرحلة لأنه لا يوجد مقابل معاصر لها ، اذ تشمل التعليم الثانوي والجامعى وما بعده . ولقد تناول الباحث فى هذا الفصل الدوافع المادية والمعنوية التى دفعت المسلمين الى الاهتمام « بالتعليــم الطبى » ، وكيف اتجه هذا التعليم الى التخصص العميق الواسع وليس مجرد التخصص الضيق ، ثم تناول مؤسسات التعليم الطبى المختلفــة ومناهج التعليم النظرى وطرق الاعداد التربوى والمهنى وعدد ســنوات التعليم الطبى ، ونظام الامتحانات المتبع ، ووضع أساتذة الطب المشتغلين بتدريسه ، وحظ المرأة المسلمة من هذا التعليم .

الفصل الرابع : بعنوان « صفات الطبيب وحقوقه وواجباته » وفيها عرض الباحث لأهم الصفات الحسية والطبيعية والعقلية والأخلاقية التى راعاها المسلمون فى اختيار الطبيب ، وكذا أهم الحقوق التى تمتع بهــا ، والواجبات والمسئوليات التى كلف بها .

ولقد راعى الباحث خلال معالجته لهذه الفصول الأربعة أن يرجــع الى كتب التراث ، وأن يناقش آراء الباحثين المحدثين فى تلك الموضوعات المثارة . ثم جاءت خاتمة الدراســة ، والتى تحتوى على بعض الدروس المستفادة من تلك التجربة الاسلامية فى ميدان التعليم الطبى . ولقد رأى الباحث أن يضم الى الدراسة بعض « الملاحق » التى رأى أهمية ضمها ، وان كان قد اقتصر على أربعة منهــا ، مراعاة لحجــم البحث وظروف الدراســة .

واخيرا فان الباحث يشعر أن تلك الدراسة ما هى الا نقطة بداية ، وانها اذا كانت قد ألقت بعض الضوء على قليل من الجوانب فقد أثارت فى نفس الوقت العديد من علامات الاستفهام حول الكثير من الموضوعات التى تستحق الدراسة . وعلى سبيل المثال لا الحصر فان قضية التعليم فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، وقضية تعليم المرأة ، وقضـــية الاتجاهات التربوية المختلفة فى العصر الاسلامى وقضية المحتوى الدراسى، وقضية الطب الروحى أو النفسى ، وقضية التراث الطبى الاســلامى ، وقضية أسلمة التعليم الطبى وتعريبه ... الخ .. كلها قضايا كانت تطــل برأسها وتفرض نفسها على الدراسة ، مما يشعر الباحث بأهمية التصدى لها فى المستقبل .

كلمة اخيرة ينبغى أن يذكرها الباحث هنا وهى أن يشكر مؤســســة الكويت للتقدم العلمى ، ومنظمة الطب الاسلامى بالكويت لتقديمهما منحة له لدراسة هذا الموضوع . لقد كان لهذه المنحة المتواضعة وما ارتبط بها من متابعة علمية مستمرة فضل الاسراع فى بروز هذا البحث الى الوجود كما هو عليه الحال ، والا فلربما ظل فكرة كغيره من الأفكار الكثيرة لدى الباحث ، أو لربما تأخر على الأقل عن الظهــور فترة قد تــطول أو قد تقصر .

هذا وبالله وحده التوفيق .

دكتور
عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب

الفصـــل الأول

دور الاســـلام وتعاليمـــه
فى ازدهار الطب الاســـلامى

دور الاسلام وتعاليمه فى ازدهار الطب الاسلامى

تتبنى الدراسة الحالية وجهة النظر التى تذهب الى أن ازدهار الطب الاسلامى لا يمكن فهمه الا على ضوء توضيح أمرين هما : موقف الاسلام من العلم والتعليم بصفة عامة ، وكيف أن الاسلام قد دفع المسلمين الى طلب العلم وحثهم عليه ، وموقف الاسلام من « التعليم الصحى » بصفة خاصة وكيف وجه الاسلام نظر اتباعه الى كثير من التعاليم الصحية وايقظ لديهم الوعى الصحى والشعور باهمية « الصحة » وهذا ما سيحاول هذا الفصل التمهيدى أن يوضحه بصورة سريعة موجزة .

اولا : موقف الاسلام وتعاليمه من العلم والتعليم بصفة عامة :

تكاد اكثر الدراسات التى تناولت الحياة العلمية والتعليمية عند المسلمين أن تجمع على اتخاذ قيام دار الحكمة فى بغداد عام ٢١٧ هـ/٨٣٢ م بداية لانطلاق النهضة العلمية والتعليمية عند المسلمين . وسواء كانت تلك الدراسات دراسات أجنبية أو دراسات عربية فانها ترى أن المرحلة السابقة لهذا التاريخ ، وبالذات مرحلة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، انما كانت مرحلة انشغال بالجهاد الاسلامى وانكفاء على النص القرآنى وما اتصل به من علوم الدين . يقول بوتنى : « أنه يبدو من الصعب ان لم يكن محالا أن نجد أى معلومات تتصل بالتعليم فى العصور الاسلامية الأولى ، اذ من الواضح أن اتباع محمد كانوا أكثر انشغالا بالجهاد فى سبيل نشر دينهم عن تعليم أولادهم » (١) وحتى عندما اراد المسلمون أن يعلموا أولادهم فقد اقتصر هذا التعليم على « اكتساب المعرفة بدين محمد ، اذ أن أى شىء وراء ذلك انما هو خرافة وخطر ، ولما كان دين محمد يحتوى على مجموعة من التعاليم وضعت فى الماضى فان المنهج والطريقة ينبغى أن يكونا ثابتين ، والحفظ لا التفكير هو الشىء المطلوب فى هذا التعليم » (٢) .

وإذا جاز للدارسين الأجانب أن يأخذوا هذا الموقف غير العلمى من الحياة التعليمية والعقلية فى صدر الاسلام قصدا أو غفلة وعفوا فان الغريب أن أكثر الدراسات العربية راحت تردد هذا الزعم وتسم القرون الاسلامية الأولى بميسم « الجهاد المسلح » من ناحية والضحالة العلمية والفكرية من ناحية ثانية دون محاولة منهم لاعادة النظر فى هذا الحكم وتمحيصه ، حتى لقد وقر فى الأذهان أن عصر الرسول والخلفاء الراشدين وصدر الدولة الأموية انما هى عصور فجاجة العقل العربى وعدم حيوية الفكر الاسلامى ، وحتى أن تربويا معاصرا عندما تناول الفكر التربوى الاسلامى فانه يقسمه الى ثلاث مراحل : المرحلة الأولى منه تبدأ من هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام حتى قيام دار الحكمة فى بغداد ، وأهم ما يميز هذه المرحلة فى نظره من الناحية الفكرية والتربوية « هو هيمنة الفكر الدينى المطلقة وشيوع التقليد الذى كان نوعا من أنواع الاستمرارية عن عهد الرسول ومحاولة للثبات عليه » (٣) ، ثم يمضى فيؤكد « نحن فى الواقع لا نجد فكرا تربويا متميزا فى هذه المرحلة (هكذا !!) خلاف ما شاع فيها من الأحاديث عن شرف العلم وكرامة السعى فى طلبه ، ويبدو أن غياب مثل هذا الفكر يعود الى بساطة النظام التعليمى الذى عرف فى هذه الحقبة وافتقاره الى النظرية التربوية المتكاملة » (٤) .

ولسنا نريد أن نستطرد فى اعطاء المزيد من الشواهد التى تؤكد على سيطرة هذا الاتجاه فى تناول الحياة العقلية والتعليمية فى القرون الاسلامية الأولى — كذلك فلن نحاول فى تلك الدراسة أن نفند هذا الرأى ونثبت بالأدلة التاريخية القاطعة أن بذور النهضة العملية والتعليمية فى العالم الاسلامى انما وضعت بذورها بنزول الوحى ، ومنذ عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، وأن العرب قد ظلوا قرونا قبل الاسلام دون أن وينتجوا لنا علوما ذات بال ، وحتى تلك الدراسات التى تؤكد على الطابع الحضارى للعرب فى الجاهلية — وخاصة عرب الجنوب (٥) لا يمكن أن تقلل من دور الاسلام وتعاليمه فى ازدهار الحياة التعليمية والفكرية عند

العرب بعد الاسلام . لقد كان الاسلام بتعاليمه نقطة تحول كاملة فى حياة العرب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وتربويا ولن نستطيع أن نفهم هذا الاقبال الشديد على العلم والتعليم فى حياة العرب بعد الاسلام الا اذا درسنا المبادىء الاسلامية التى جاء بها القرآن وأكدها الرسول وتابع تطبيقها بنفسه وطبقها الخلفاء الراشدون من بعده لنشر العلم والتعليم فى المجتمع الاسلامى ، واذا كانت الدراسة الحالية ليست هى المجال المناسب للعرض التفصيلى الموثق لتلك الحقيقة فلا أقل من أن نشير هنا اشارات سريعة الى بعض الملامح العامة التى تفيدنا فى دراسة ازدهار الطب الاسلامى فى العصور الاسلامية الوسطى المشرقة الممتدة من هجرة الرسول الى المدينة الى فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ م (٦) بحيث غدا الطب الاسلامى غاية ما وصل اليه العقل البشرى فى ميدان الوقاية والعلاج طوال تلك العصور .

فلقد كان خلف هذا الاندفاع القوى الى ميادين العلم المختلفة — ومنها الطب — دين يقدس العلم والعلماء ، ولا يرضى لاتباعه بالجهل والتخلف العقلى . والدارس لكتب التراث التربوى الاسلامى — وهى كثيرة — يجد أبوابا مخصصة للعلم وذكر فضائله والحث عليه وبيان ضرورة طلبه من ناحية ونشره بين الناس من ناحية أخرى ، وسيلاحظ الدارس أن تلك الأدبيات التربوية تتناول هذا الموضوع مدعما بالآيات وأحاديث الرسول وآثار الصحابة رضوان الله عليهم وهو ما تشير اليه بدليل النقل ثم يأتى بعد ذلك تناولها للموضوع من الناحية العقلية والمنطقية التى يرتضيها العقل السليم وهو ما يسمى بدليل العقل (٧) ، ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نتتبع هنا تلك الأدلة النقلية والعقلية معا ، ولذلك فستكتفى الدراسة بالقليل من الشواهد من القرآن والسنة « اذ العبرة بقوة الأدلة لا بكثرتها » كما يقول طاش كبرى زاده عند تناوله لهذا الموضوع (٨) .

أما عن فضيلة العلم ، فان الله تعالى يقول « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم » (آل عمران آية ١٨) . فانظر كيف بدأ

الله بنفسه سبحانه وثنى بملائكته وثلث بأهل العلم . وقال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (المجادلة آية ١١) ، وقال تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (الزمر آية ٩) . ويعلق طاش كبرى زاده على مثل هذه الآيات بقوله : « أو لم يكف بالعلم وأهله الشرف الأصيل ، والمجد الأثيل أمثال هذه الآيات الواردة فى التنزيل » (٩) . وعن فضيلة العلم أيضا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » ويعلق طاش كبرى زاده على هذا الحديث بقوله « ومعلوم انه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ، أما أهل العلم فدلوا على ما جاءت به الرسل ، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » ، ويعلق طاش كبرى زاده على ذلك بقوله : « فاعظم بمرتبة هى تلو النبوة وفوق الشهادة » . ولعل تلك الآيات والأحاديث قليل من كثير يوضح لنا بالفعل المنزلة السامية للعلم والعلماء فى حياة المجتمع الاسلامى وكيف نظر المسلمون الأوائل الى أهمية الاقبال على العلم والتعليم .

ولا تكتفى تعاليم الاسلام بالتأكيد على أهمية العلم والتعليم ولكنها تحث الناس حثا على طلب المعرفة ، يقول تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين » (التوبة آية ١٢٢) وقال تعالى « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » (الأنبياء آية ٧) ، ويقول صلى الله عليه وسلم « من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا الى الجنة » . وقال صلى الله عليه وسلم « ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع » وقال صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ... الى غير ذلك من الآيات العديدة والأحاديث التى

تظهر فضيلة التعلم والتى تدفع المسلمين دفعا الى طلب العلم والتزود به .

وحتى يندفع المسلمون الى التعلم فلابد لهم من « العناصر المعلمة » والتى تبذل لهم العلم اذا ارادوه وسعوا اليه ، ومن هنا دعا الاسلام الى ضرورة نشر العلم وعدم كتمانه ، وضرورة ان يبذل كل عالم ما لديه من علم للآخرين .. يقول تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين (أى يتعلموا) ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم (أى يعلموا قومهم) .. » (التوبة آية ١٢٢) ، وقوله تعالى « واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » (آل عمران آية ١٨٧) وهذا أيجاب للتعليم وعدم كتم العلم ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا حسد الا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله عز وجل حكمة فهو يقضى بها ويعلمها » ، و « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين : أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون اليه والثانى يعلمون الناس فقال : اما هؤلاء فيسألون الله عز وجل ان شاء اعطاهم وان شاء منعهم ، واما هؤلاء فيعلمون الناس وانما بعثت معلما ، ثم عدل اليهم وجلس معهم » (١٠) .

ولا شك أن مثل هذه الآيات والأحاديث قد ركزت فى الحس الاسلامى وتربى عليها المجتمع منذ صدر الاسلام ، « لقد ركز فى الحس الاسلامى أن التعليم والتعلم لا يمكن أن يكون مجرد حرفة أو مهنة بل هو اصلا عبادة وتقرب الى الله ، وكما أن العالم فى الاسلام ينبغى عليه أن ينفر للتعلم ويسعى الى التزود من العلوم والمعارف فانه من الواجب عليه ايضا أن ينصرف الى تعليم الآخرين (١١) .

فاذا اضفنا الى ذلك كله ما حفل به القرآن الكريم من الدعوة الى اعمال العقل والتفكير فى ظواهر الكون والاشادة بالتدبر فى آيات الله المختلفة وعوالمه المتعددة (نبات وحيوان وانسان وطبيعة ... الخ) وتقريع الجهال والغافلين والسخرية ممن لا يعلمون أو لا يفكرون لوجدنا

انفسنا بالفعل امام عامل حاسم فى تغيير « العقل العربى » وتفجير طاقاته الثقافية واستغلال امكانياته استغلالا علميا جديدا لا عهد لهم به (١٢) .

فآيات القرآن الكريم تخاطب العقــل وتدعو الى النظر وتحــارب الخرافة والاعتماد على الظنون مثل قوله مخاطبا الناس جميعا « **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** » .. (العنكبوت الآية ٢٠) وقوله : « **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** » .. (يونس الآية ١٠١) وقوله : « **وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعقلون** » .. (الأنعام الآية ٩٧) وقوله : « **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين** » (الروم الآية ٢٢) ، وقوله : « **ألم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء** » .. (فاطر الآيتان ٢٧ ، ٢٨) . فأمثال هــذه الآيات تدعو المسلم الى التأمل والنظر فى ظواهر الطبيعة ومجالى الكون ومحاولة تأمل أسرارها والتعمق فى فهمها .

وهناك آيات أخرى تدعو الى محاربة استعمال الظنون فى التفــكير وتحث المسلم على أن يبنى فكره على أســاس قوى من الحق الصراح . يقول تعالى : « **افرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، الكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك اذن قسمة ضيزى ، ان هى الا اســماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من ســلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهــوى الأنفس** » .. (النجم الآيات ١٩ — ٢٣) . وقال تعالى : « **وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيــا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون** » .. (الجاثية الآية ٢٤) . وقال تعــالى : « **وما يتبع اكثرهم الا ظنا ، ان الظن لا يغنى من الحق شيئا ان الله عليم بما يفعلون** » (يونس الآية ٣٦) .

وهناك آيات أخرى تلفت النظر دائما الى البحث عن الدليل العقلى

وتمنع من التقليد الأعمى للسابقين دون بحث أو نظر مثل قوله تعالى : **« واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »** .. (البقرة الآية ١٧٠) وقوله تعالى : **« بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباؤكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين »** .. (الزخرف الآيات ٢٢ — ٢٥) .

ويطول بنا الحديث لو مضينا فى سرد الآيات التى تدعو الى التدبر والتعقل والتبصر واستعمال الحواس من سمع وبصر ... الخ ، واستخدام العقل فى الوصول الى علل الأشياء ، ولاشك ان مثل هذه الآيات القرآنية تمثل منهجا علميا قرآنيا ، جديدا فى حياة العرب نقلهم من البداوة الى الحضارة العقلية ومن الفوضى الى التأمل والنظرة المنسقة الى الحياة والكون ، ومن العقلية الخرافية التى لا تربط الأسباب بالمسببات الى العقلية التى تتدبر سنن الله الثابتة التى لا تتغير **« ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت »** .. (الملك الآية ٣) ، **« سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا »** .. (الأحزاب الآية ٦٢) . ولا شك أن تطبيق هذا المنهج العلمى الصارم الذى أسسه القرآن الكريم ينتهى دائما الى بناء العقلية المسلمة على أساس من المنهجية العلمية ، والايمان بمبدأ العلية والحيلولة بينها وبين الوقوع فى براثن الخرافة الناتجة من العقلية العامية التى تقع دائما فى تصديق الأشياء دون تطبيق المنهج العلمى السليم (١٣) .

ومن الطبيعى أن النقلة الهائلة من طريقة النظر الجاهلية الى الكون والحياة الى تلك النظرة العلمية القرآنية الجديدة لا يمكن أن تتم فى يوم وليلة ، ولكن المهم أن نرصد هذا التحول العقلى الهائل منذ بدايته ، وكيف أن المجتمع الاسلامى منذ صدر الاسلام كان يتجه الى درب جديد من دروب العقل والنظر والتفكير ، وها هو الرسول صلى الله عليه وسلم

عندما بلغه أن بعض الناس يظنون أن خسوف الشمس كانت بسبب موت ابنه ابراهيم عليه السلام يسارع فيصحح هذا الخبر ملفتا نظرهم الى تلك الحقيقة الكونية الثابتة قائلا « ان الشمس والقمر من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته » (١٤) كذلك فان الذى يقرأ كتابا مثل « نهج البلاغة » المنسوب للامام على بن أبى طالب — حتى وان كان الكتاب محتويا على جزء منتحل — فلابد أن يدرك اثر هـذا التغير الثقافى الضخم الذى احدثه الاسلام على العقلية العربية منذ صدور الاسلام ، اذ الكتاب لا يحتوى على فكر دينى محدود بل يعكس احيانا كثيرة نظرات عميقـة الى الكون والحياة والأحياء لا يمكن أن تصدر الا عن عقل قد درب على دقة التأمل والتدبر والملاحظة (١٥) .

وحتى يتأكد هـذا التحول العقلى الهائل كان لابد من نشر العلم والتعليم بين افراد المجتمع ، لذلك وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم منذ بدايات الدعوة الأولى يمارس التعليم ويدعو الناس الى العلم رجالا ونساء ، سواء فى دار الأرقم بمكة او فى مسجده بالمدينة (١٦) وما أن يبايع وفد المدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الأولى على الاسلام حتى يرسل معهم مصعب بن عمير ويأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم فى الدين وكان يسـمى المقرىء بالمدينة (١٧) ولا تمضى مدة طويلة حتى تبرز أسماء وقيادات تربوية من الرجال والنساء أمثال ابى بن كعب وزيد بن ثابت وأبى زيد ومعاذ وأبى الدرداء وسعد بن عبادة وأبى عبيدة الجراح وأسيد بن حضير وأم ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصـارى وغيرهم كثيرين وكثيرات (١٨) . ثم يظهر « اخـوان الصـفة » فيعكفون فى مسجد رسول الله بالمدينـة ويفرغون أنفسهم لطلب العلم والجهـاد فى سبيل الله نظير أن يوفر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « حاجاتهم الأولية » وأهل الصفة أضياف الاسلام لا يأوون الى اهل ولا مال ولا على أحد ، اذا اتته (رسول الله صلى الله عليه وسلم) الصدقة بعث بهـا اليهم ولم يتناول منها شيئا واذا أتته هدية أرسـل اليهم واصاب منهـا وأشركهم فيها (١٩) ، ولقد بدأ عدد « أهـل الصفة » قليـلا فى البداية

ثم ظلوا يتزايدون فيما بعد ، اذ أن بعض الروايات تجعلهم عشرين والبعض يجعلهم اربعين وبعض الروايات تصل بهم الى اربعمائة من القراء المجاهدين (٢٠) ، ولقد عكفت هذه الأعداد الكبيرة من أهل الصفة على التعليم والجهاد ، اذ كانوا يخرجون في كل سرية من سرايا الرسول ولعل « أهل الصفة » هم النواة الأولى لفكرة « المدرسة » فيما بعد التى يتفرغ فيها الطلاب والمعلمون لطلب العلم والتعليم نظير اجور أو أرزاق كانوا ينالونها من الأوقاف ، مع فارق اساسى هو ان « أهل الصفة » قد جمعوا بين « العلم والجهاد » بينما اقتصر اهل المدارس « على طلب العلم فقط » كذلك فان ارزاق « أهل الصفة » لم تكن منتظمة بعكس أرزاق اهل المدارس فقد كانت منتظمة عن طريق الأوقاف الثابتة الدخل والمنصرف .

ولم يكن أهل الصفة يتعلمون القرآن شفاهة فقط بل تعلم معظمهم الكتابة ايضا وقد كان سعيد بن العاص كاتبا محسنا ، أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يعلم الناس الكتابة بالمدينة ففعل ، وكان ممن علمهم الكتابة اناسا من اهل الصفة ، علمهم الكتابة والقرآن ، أما عبادة بن الصامت فكان يعلمهم القرآن فقط (٢٢) . والغريب أن تؤكد كل المصادر الاسلامية تقريبا على دور « أهل الصفة » التعليمى والجهادى ثم نرى باحثا معاصرا يشكك فى هذا الدور ويشكك فى وجود تلك الأعداد المتفرغة لهذا الأمر ، ويستكثر على مجتمع المدينة أن يكون به مثل تلك الطائفة ويذهب الى انهم كانوا مجرد مجموعة من المشاغبين محبى الحرب وحدتهم مصالح وانتماءات خاصة ولم يكونوا اهل تعليم أو جهاد (٢٣) .

ونترك هذا الباحث وامثاله لكى نتتبع الخطوات العملية التى اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم لنشر العلم والتعليم فى المجتمع الاسلامى ، فقد مارس التعليم بنفسه ثم ظهرت بجواره مجموعة من الصحابة كان يستطيع أن يعتمد عليهم فى هذا الشأن . وبعد مدة وجيزة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يدفع بالرجل غير المتعلم الى من يعلمه ويفقهه فقد دفع على سبيل المثال وردان جد الفرات بن يزيد بن وردان الى أبان بن سعيد بن العاص ليعلمه القرآن ، ودفع ابا ثعلبة الى عبيدة ابن الجراح لكى يعلمه وهكذا ، وكان يأمر الناس أن يستعلموا الفقه

والقرآن من جيرانهم قائلا : « ما بال اقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويتفقهون ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون او أعاجلنهم العقوبة » (٢٤) . وفى غزوة بدر عندما وجد بين الأسرى من يجيد الكتابة جعل فدية كل منهم أن يعلم عشرة من العلماء الكتابة ، وكان فداء الرجل قد بلغ أربعة آلاف (٢٥) . ولم يحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تعليم « الرجال » الكتابة فقط بل طلب من الشفاء أم سليمان بن أبى حتمة ان تعلم زوجته حفصة الكتابة (٢٦) .

ولقد ادرك المسلمون منزلة الكتابة وأهميتها حتى أن مجاهدا روى فى قوله تعالى : ((**يؤتى الحكمة من يشاء**)) يعنى « الخط » ، ((**ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا**)) يعنى الخط بتقديم وتاخير ، وكيف لا يدركون اهمية الكتابة والقرآن يأمرهم أن تكون معاملاتهم فى حالة الدين كتابة . يقول تعالى : ((**يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه**)) . . (البقرة ١٨١) . والذى يطالع أسماء كتاب رسول الله فقط ويجدهم اثنين واربعين كاتبا كما يروى عكرمة (٢٧) لا يملك الا أن يرفض ما يروى عن ندرة الكتابة فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكر ابن خلدون فى مقدمته وتابعه على ذلك معظم الدارسين بدون تدقيق او تحقيق ويقول « صاحب الحكومة النبوية » ما قاله معلقا على رأى ابن خلدون : « وهذا — اقبال المسلمين على تعلم الخط والكتابة — يبطل ما قاله ابن خلدون عن جهلهم بالخط فان عكرمة كان يتكلم عن مشاهدة وابن خلدون كان يتكلم عن تخمين » (٢٩) .

ويحتاج الرسول صلى الله عليه وسلم فى اتصالاته بالعالم الخارجى الى من يتقن اللغات الأجنبية فى ذلك الوقت وهى الفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، فينتدب لذلك زيد بن ثابت الأنصارى فيتعلمها زيد بالمدينة من اهل هذه اللغات : الفارسية من رسول كسرى ، الرومية من حاجب رومى كان للرسول صلى الله عليه وسلم ، والحبشية من خادم للنبى صلى الله عليه وسلم ، والقبطية من خادمة له صلى الله عليه وسلم .

وتذكر المصـــادر أنه تعلم السريانية فى بضعة عشر يوما (سبعة عشر يوما) (٣٠) . ومما لا شك فيـــه أن درجة معرفته بتلك اللغات لم تصـــل الى درجة الحذق بها فى مثل تلك المدة الوجيزة ولكن المهم هنا هو لفت النظر الى قوة الدافع الاسلامى الذى يدفع أحد الصحابة الى تعلم هذه اللغات فى مدة قصيرة ، وتلك الروح الحضارية الجديدة التى تمكن زيد ابن ثابت من أن يصبح ترجمانا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك اللغـــات .

وفى هذا الجو العلمى والتعليمى الجديد ظهرت كفايات علمية متعددة كعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس ... الخ . وكان الأخـــير يسمى البحر لسعة علمه ، وكان يعلم فى مسجد المدينـــة علوم الدين واللغة العربية والشعر . وحرصا على افادة طلابه الكثيرين وتلبية لطلباتهم كان يخصص يوما للقرآن والتفسير وثانيا لمغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم وثالثا لأيام العرب ورابعا للأنســـاب وخامســـا للشعر والنحو (٣٢) وكان عمر بن الخطاب — فيما بعد — يلفت نظر عمال الدولة وقادتها الى تلك الكفايات العلمية المتعددة عندما قال لهم فى مؤتمر الجابية : « من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبى بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ومن أراد أن يسأل عن الفقـــه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى ، فان الله سبحانه وتعالى جعلنى خازنا وقاسما » (٣٣) .

وتؤكد المصادر على أن المسلمين قد واصلوا تلك المسيرة العلميـــة والتعليمية فى عهد الخلفاء الراشدين ، فقد أرسل الوالى يزيد بن أبى سفيان رسالة الى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب يطلب منه ايفاد المعلمين لتعليم أهل الشام وهذا هو نص الخبر :

قال محمد بن كعب القرظى : « ولما كان عمر كتب يزيد بن أبى سفيان أن أهل الشام كثير قد احتاجوا الى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، قال عمر لأصحابه : أعينونى بثلاثة فقالوا (عن أبى أيوب الأنصارى) هذا شيخ كبير ، وعن (أبى بن كعب) هـــذا سقيم فخرج معاذ بن جبـــل وعبادة

ابن الصامت وابو الدرداء . فقال عمر : ابدأوا بحمص فاذا رضيتم عنها فليخرج واحــد الى دمشق وآخر الى فلسطين : فأقام عبادة بحمص ، وخرج أبو الدرداء الى دمشق ومعاذ الى فلسطين ، ومات معاذ عام طاعون عمواس ، فسار عبادة بعدها الى فلسطين ومات بها ولم يزل أبو الدرداء بدمشق حتى مات » (٣٤) .

ولقد اقبل طلاب العلم على تلك الحلقات الدراسية التى كانت تعقد « بالمساجد » المنتشرة فى أرجاء الدولة الاسلامية حتى أن الحلقة الواحدة كانت تضم المئات بل والألوف وتروى المصادر أن أبا الدرداء كان من أوائل من عقد هذه الحلقات بالشام وأن عدد تلاميذه قد بلغوا ألفا وستمائة ونيفا كان يقسمهم مجموعات ، ويضع على كل مجموعة عريفا يحفظهم القرآن . « عن أبى عبد الله مسلم بن مشكم قال : قال أبو الدرداء : اعدد من يقرأ عندنا يعنى فى مجلسنا هذا فعددت الفا وستمائة ونيفا ، فكانوا يقرأون ويتسابقون عشرة وعشرة ، لكل عشرة منهم مقرىء ، وكان ابو الدرداء يستفتونه فى حروف القرآن يعنى المقرئين فاذا أحكم الرجــل من العشرة القراءة تحول الى ابى الدرداء ، وكان ابو الدرداء يبتــدىء فى كل غداة اذا انفتل من الصلاة فيقرأ جزءا من القرآن وأصحابه محدقون به يستمعون الفاظه ، فاذا فرغ من قراءته جلس كل رجل منهم فى موضعه واخذ على العشرة الذين أضيفوا اليه » (٣٥) .

ولقد زادت الحلقــات اتساعا مع الأيام وازدادت أعدادها ، حتى ان حلقة ابن عامر « تلميذ أبى الدرداء — ضمت أربعمائة عريف يقومون عنه بالقراءة » (٣٦) ، مما يصور بالفعل مقدار ما وصل اليه المجتمع الاســلامى الأول من اقبال على العلم والتعليم .

ويصور ابن حزم ما وصل اليه المجتمع الاسلامى فى صدر الاسلام من شيوع العلم والتعليم بقوله : « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم والاسلام قد انتشر وظهر فى جميع جزيرة العرب من منقطع البحر المعروف ببحر القلزم مارا الى سواحل اليمن كلها الى بحر فارس الى منقطعــه

مارا الى الفرات ثم علي ضفة الفرات الى منقطع الشام الى بحر القلزم وفي هـذه الجزيرة من المدن والقرى ما لا يعرف عدده الا الله ، كاليمن والبحرين وعمان ونجد وجبلى طيء وربيعة وقضاعة والطائف ومكة كلهم قد أسلم وبنوا المساجد ليس منهـا مدينـة ولا قرية ولا حلة لأعراب الا وقد قرىء فيها القرآن فى الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء وكتب » (٣٧) . وتأمل قوله : « ليس فيها مدينة ولا قرية ولا حلة لأعراب الا وقد قرىء فيها القرآن فى الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء وكتب » ليتضح لك كيف أن الحركة التعليمية فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتـدت الى المـدن والقرى والحلل ، وكيف أن القرآن قد درس قراءة وكتابة للصبيان والرجال والنسـاء . أما عن استمرار تلك الحركة التعليمية والتربوية فى عصر الخلفاء الراشدين فان ابن حزم يقول : « ثم مات ابو بكر وولي عمر ففتحت بلاد الفرس طولا وعرضـا وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها ولم يبق بلد الا وبنيت فيه المساجد ونسخت فيه المصاحف وقرأ الائمـة القرآن وعلمه الصبيان فى المكاتب شرقا وغربا » مما يؤكد على أن حركة التعليم كانت قد تدعمت فى المجتمع الاسـلامى الأول ، وأن مكاتب الصبيان لتعليم القرآن كانت قد انشئت بالفعل فى عهد عمر بن الخطاب على الأكثر ان لم يكن قبل ذلك ، وليس فى العصر الأموى كما تذهب الى ذلك اكثر الدراسات المعاصرة جريا وراء أسطورة أن عهد الرسول والخلفاء الراشدين لم يكن عهد استقرار وعلم وتعليم بقدر ما كان عهد غزوات وفتوح ، ولقد غاب عن هؤلاء الدارسين أن الفتوح والغزوات لم تكن هدفا فى حد ذاتها ، تعطل من اجله شـئون العلم والتعليم ، وانما كانت تلك الفتوح والغزوات وسيلة لازالة العوائق التى تحول بين المسلمين وتادية فرض أساسى من فروض دينهم الا وهو نشر الدين الاسـلامى على أوسع نطاق ممكن ، ولم يكن هـذا الغزو حائلا بين المسلمين وبين العلم والتعليم ، بل كان اداة من أدوات نشر الدعوة وما يتصل بها من علم وتعليم (٣٩) . لقد كانت سياسة الرسول وخلفائه الراشدين تتمثل فى الاتصال بمختلف الوسائل بالقبائل والشعوب المجاورة ودعوتهم الى الاسلام . وعندما كان هؤلاء يقبلون الدعوة كان « العلماء »

يتجهون اليهم لتعليمهم اركان الدين ، وعندما كانوا يرفضون ويبدأ القتال كان فتح بلد من البلدان يعنى انتقال المسلمين من مرحلة الفتح الى مرحلة تعليم الدين الاسلامى والقرآن الكريم (٤٠) من هنا نفهم لماذا كانت الجيوش الاسلامية فى صدر الاسلام تضم القضاة والعلماء والقراء لكى يعلموا الجند الاسلامى من ناحية ، ولكى يباشروا مهمتهم التعليمية والحضارية مع البلدان التى تدخل الاسلام من ناحية أخرى ، وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد كان جيش اليرموك على طريق الشام يضم قاضيا هو أبو الدرداء وقاصا هو أبو سفيان بن حرب ، وقارئا هو المقداد بن الأسود (٤١) ، وجريا على السنة التى سنها الرسول فى معركة بدر فان قادة « الجيش الاسلامى » فى عهد عمر بن الخطاب قد طلبوا من أسرى الشام الذين يجيدون الكتابة تعليمها للمسلمين ، مثال ذلك ما يروى البلاذرى من ان اسرى قيسارية وضعوا فى الجرف (وهو معسكر المسلمين فى فلسطين) وطلب منهم تعليم المسلمين الكتابة (٤٢) ، ولعل هذه الشواهد التاريخية أن تظهر أن الفتوح الاسلامية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين لم تكن ملهاة عن نشر العلم والتعليم ، بل كانت أداة لنشر « العلم الاسلامى » ودليلا على ان المسلمين كانوا قد أشربوا حب العلم والتعليم ، يمارسونه فى سلامهم ويمارسونه فى حربهم ، وفرق هائل بين القادة عباقرة الحرب مثل الاسكندر المقدونى ونابليون وهتلر وموسولينى ... الخ ، وبين القادة عباقرة الحضارة مثل خالد بن الوليد ، وابى عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن ابى وقاص ، وعقبة بن نافع ... الخ ، بين هؤلاء الذين حققوا انتصارات حربية باهرة فى الزمان الأقصر ولم يخلفوا آثارا حضاريه وثقافية من بعدهم ، وهؤلاء الذين فتحوا البلاد شرقا وغربا ثم بقيت آثارهم ظاهرة فى السياسة والحضارة والثقافة (٤٣) .

...

من كل ما سبق يتضح لنا شيئا من تلك الروح العلمية والتعليمية التى جاء بها الاسلام والتى حركت العرب الى الاقبال على العلم والتعليم : يقبلون عليه فى اوقات السلام ، ويقبلون عليه فى اوقات الفتوح والغزوات ، وستظل هذه هى السمة الغالبة على « المجتمع الاسلامى » عبر العصور

الاسلامية الزاهرة فحيثما ذهب المسلمون أقاموا حلقات العلم ومؤسسات التعليم وان اختلفت أسماء تلك المؤسسات وتعددت المناهج باختلاف العصور واختلاف الحاجات العلمية والتعليمية ، مما يؤكد لنا أن عصر الرسول والخلفاء الراشدين كان بحق عصر التحول العلمى والتعليمى فى حياة العرب ، وهو بهذا المعيار — يعد فى نظرنا — من أزهى العصور الثقافية فى حياة العرب والمسلمين * ، ولا شك أن « ميدان الطب » كان أحد الميادين التى تأثرت بتعاليم الأسلام من زاويتين : الزاوية الاولى ، هذا الاقبال وهذا التقديس للعلم والمعرفة بصفة عامة ، والتى دفعت الناس الى مزيد من العلم والتعلم ، والزاوية الثانية ما حفلت به تعاليم الاسلام من مبادىء طبية فتحت المجال لمزيد من « الوعى الصحى » ومزيد من الاقبال على « التعليم الطبى » على نحو ما سنبينه فى الصفحات القليلة التاليـة :

ثانيا — موقف الاسلام وتعاليمه من التعليم الصحى بصفة خاصة :

رغم أن القرآن ليس كتاب تعليم طبى ورغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يزعم لنفسه **دور الطبيب البشرى** Medical Doctor الا أن تعاليم القرآن والسنة قد احتوت الكثير من المبادىء الطبية العامة التى استهدفت خلق المجتمع الاسلامى القوى صحيا ، وسواء فى ميدان الطب الوقائي Protection، أو فى ميدان الطب العلاجى Treatment ، فان تعاليم الاسلام قد احتوت على الكثير من الأسس الصحية التى تستهدف « حفظ الصحة وازالة المرض » عن الانسان والمجتمع . وتعتبر دراسة أحمد شوقى الفنجرى « الطب الوقائي فى الاسلام » (٤٤) ، من أشمل الدراسات وأوجزها التى تناولت مبادىء الاسلام الطبية المتعلقة « بالطب الوقائى » مستمدة من القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه

---

* يشعر الباحث أن هذا الموضوع « التعليم فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين » يستحق دراسة خاصة موثقة ، ويأمل أن تتهيأ له الظروف البحثية للقيام بتلك الدراسة الهامة .

وسلم . ولقد عالجت الدراسة المبادىء الاسلامية المتعلقة بما يسمى فى عصرنا الحاضر « الطب الوقائى » تحت العناوين الرئيسية التى نوجز أهمها فيما يلى :

١ — أوامر فى صحة البيئة الاسلامية ونظافتها :

Sanitation and Personal Hygene

فقد اشتمل القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم على العديد من الآيات والأحاديث التى تدعو الى نظافة البدن والأيدى والأسنان والأظافر والشعر ونظافة الملابس ونظافة الطعام والشراب والشوارع والبيوت والمدن وموارد المياه كالأنهار والآبار ، وانه لأمر لا يخلو من معنى فى ذلك الشأن أن نشير الى أن أول سورة نزلت تنادى بالعلم وثانى سورة نزلت تنادى بالنظافة ، فقد جاء فى السورة الأولى قوله تعالى : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم** » (العلق الآيات ١ — ٥) ، ولاحظ اشارة السورة الى العلم والتعليم من أول نزول الوحى وبداية الدعوة لتدرك طبيعة هذا الدين الحضارية ، وجاء فى السورة الثانية قوله تعالى : « **يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر** » (المدثر الآيات ١ — ٥) ، ايذانا باشعار المسلمين أن هذا الدين جاء لنظافة الظاهر والباطن معا ، ويطول الحديث لو ذهبنا نستعرض كل الآيات والأحاديث التى تدعو الى النظافة بجميع صورها ولكن يكفى أن نذكر هنا القليل منها مثل قوله تعالى ممتنا علينا بنعمة « الماء » أفضل أداة للنظافة « **وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان** » (الأنفال الآية ١١) ، والعجيب أن من مظاهر قياس درجة تحضر الشعوب فى عصرنا الحديث هو مقدار استهلاكه للماء ، ولا ندرى هل هناك شعب أكثر استخداما للماء فى أنواع الطهور المختلفة من المسلمين ؟ انهم يستخدمونه خمس مرات فى اليوم عند كل وضوء لكل صلاة مفروضة ، دع عنك النوافل والسنن ، ويستخدمونه للتطهر — بالاستحمام الكامل — من الجنابة الصغرى والجنابة الكبرى ،

ويستخدمونه فى الاستحمام فى كثير من المناسبات التى يدعو اليها الشارع الحكيم ، حتى لقد احصت كتب الفقه الاسلامى الأسباب الداعية للاستحمام فى الاسلام « فوجد انها سبعة موجبة وستة عشر مستحبة أى انها ثلاثة وعشرون سببا » ، ويكفى أن نذكر هنا أن أول خطوة للدخول فى الاسلام هى الغسل أى الاستحمام قبل شهادة الا اله الا الله . ويلتزم المسلمون بالاجتماع والالتقاء معا مرة كل اسبوع فى صلاة الجمعة وحتى يكون المسلم فى هذا اللقاء نظيفا خاليـــا من الروائح الكريهة والعرق فانه يستحب له الغسل لقول الرسول : « غسل يوم الجمعة واجب والسواك وان يمس من الطيب ما يقدر عليه » ، وقوله : « اذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل »(٤٥).

ولا يكتفى الاســـلام بالاستحمام كسبيل لنظافة الجسم بل انه يأمر المسلم بازالة كل ما يمكن أن تتجمع تحتـــه القذارة والميكروبات فى جسمه وفى هـــذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خمس من الفطرة : الاستحداد والختـــان وقص الشارب ونتف الابط وتقليم الأظافر » وحديث انس رضى الله عنه قال : « وقت لنا النبى صلى الله عليه وسلم فى قص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الابط وحلق العانة الا يترك اكثر من اربعين ليلة » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا قام أحدكم من نومه فليغســـل يديه فانت لا تدرى أين كانت يداك » ، وقال : « اذا توضأت فخلل أصابع يديك » ، وقال « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالســـواك عند كل صلاة » وعندما رأى بعض أصحابه يهمل فى نظافة أسنانه حتى اصفر لونها قال لهم : « مالى أراكم تدخلون على قلحا استاكوا رحمكم الله » ، ووجه الي اهمية غسل شعر الراس وترجيله وعندما دخل عليه رجل ثائر الراس واللحية فأشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل شعره واصلاحه ، وعندما رأى مسلما لا ينظف ثوبه لفت نظر أصحابه قائلا : « أما يجد هـــذا ما يغسل به ثوبه » وذكرهم بقوله تعالى : ((**يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد**)) (الأعراف الآية ٣١) .

ويحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على توجيه اتباعه الى نظافة الطعام والشراب ومصادر المياه والسكن والشارع فيقول صلى الله عليـــه

وسلم : « غطوا الاناء وأوكئوا السقاء فان فى السنة ليلة ينزل فيهـا وباء لا يمر باناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء الا نزل فيه من ذلك الوباء » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الملاعن الثلاث : البراز فى الموارد وفى الظل وفى طريق الناس » ، ودعا الى نظافة المساكن مثل قوله : « نظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود التى تجمـع الأكباء (الزبالة) فى دورها » ، وحرم البصق على الأرض واعتبره خطيئـة تؤذى المسلمين وتوجب اللعنة ما لم يزلها فاعلها مثل قوله : « البصاق على الأرض فى المسجد خطيئـة وكفارتها ردمها » وقوله : « من آذى المسلمين فى طريقهم وجبت عليه اللعنة » ، وهكذا اذا ذهبنا نستعرض مبادىء الاسـلام الصحية فى ميدان الفرد والبيئة لاتضح لنا أنها لم تترك شيئا فى هـذا المجال .. وكيف لا ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى لأصحابه اقل من أن يكونوا « المثل الأعلى » بين الناس فى النظافة مثـل قوله : « احسنوا رداءكم ، واصلحوا ركابكم ، حتى تكونوا شامة فى النـاس » ... وهكذا انطلق المسلمون تحدوهم تلك المثل العليا الصحية لتربية الانسان النظيف فى ذاته وفى مسكنه وطعامه وشرابه وطريقه والبيئة التى يعيش فيها (٤٧) .

٢ — اوامر لمنع الأمراض المعـدية : Epidimilogy

فقد اشتملت تعاليم الاسـلام الوقائيـة على عزل المريض بالمرض المعدى وعدم دخوله على الأصحاء ، كذلك أمر الأصحاء بدورهم بالبعـد منه حتى يشفى ، وفى هـذا يقول رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « لا يورد ممرض على مصح » اى لا يدخل المريض على الأصحاء فينتقل اليهم العـدوى ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعـل بينـك وبين المجذوم قدر رمح أو رمحين » ، وقال : « اذا سمعتم بالوباء بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وانتم بهـا فلا تخرجوا فرارا منه » وهكذا أدرك المسلمون مبكرا ضرورة « العزل الصحى » وفرقوا بين الحذر من العدوى ، والأخذ بأسباب الوقاية وبين التواكل والاهمال تحت دعوى عدم الهروب من قضاء الله . ومن تعاليم الاسلام فى عيادة المرضى أن يغسل الزائر يديه قبل الدخول على المريض ، لأن المريض يكون ضعيف المناعة

وأكثر قابلية للعدوى ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من توضأ فأحسن الوضوء وعاد اخاه المريض بوعد من النار » (٤٨) .

٣ — أوامر في التغذية : Nutrition

ولا نظن ان هناك دينا من الأديان قد أسهب فى الحديث عن الغذاء المناسب لصحة اتباعه كما فعل الاسلام ، فقد حرص الشارع الحكيم على نوع هذا الغذاء وكمه وطريقة تناوله مما يمثل فى مجمله قانونا غذائيا عاما للمسلمين ، وسنرى أن الطب الاسلامى يعتمد اعتمادا كبيرا على استخدام الغذاء كدواء ووقاية ، فقد حرم الاسلام على المسلم الأطعمة والأشربة المضرة صحيا مثل الميتة والدم ولحم الخنزير والخمر ... الخ يقول الله تعالى : « **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع الا ما ذكيتم** » (المائدة الآية ٣) ، ويحرم تناول الخمر والمخدرات بقوله : « **يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون** » (المائدة الآيتان ٩٠ ، ٩١) ، ويقول صلى الله عليه وسلم ، « كل شيء اسكر فهو حرام وكل مغيبة حرام » (٤٩) .

وفى الوقت الذى يحرم فيه هذه الأطعمة والأشربة المضرة صحيا فانه يشجع اتباعه على تناول الأغذية المفيدة صحيا مثل اللحوم بانواعها : لحم البر والبحر ومثل العسل والتمر واللبن والتين والزيتون والفاكهة .. الخ ولو تتبعنا الاشارات القرآنية ، والاحاديث النبوية التى تتناول الأغذية المستحبة لأدركنا ما وراء تلك الأطعمة والأشربة من قيمة غذائية ونكتفى هنا بذكر القليل فى هذا الباب مثل قوله تعالى : « **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون** » (النحل الآية ٦) اشارة الى اللحوم الحيوانية ، وقوله تعالى : « **نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين** » (النحل الآية ٦٦) ، اشارة الى اللبن وقيمته الغذائية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا اعلم ما يجزى من الطعام

والشراب مثل اللبن » ، وعن العسل وأهميته يقول تعالى : ((**يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس**)) (النحل الآية ٦٩) ، ويقول صلى الله عليه وسلم : « العسل شفاء من كل داء » وعن غير ذلك من الأطعمة والفاكهة يقول تعالى : ((**وانزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم**)) (البقرة الآية ٥٧) ويقول : ((**وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون**)) (الواقعة الآيتان ٢٠ ، ٢١) ويقول : ((**وامددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون**)) (الطور الآية ٢٢) ، الى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تتناول أنواعا متعددة من الأطعمة والأشربة الطيبة (٥٠) .

ولا يكتفى الاسلام بذكر الحلال المفيد صحيا والنص على المحرمات المضرة صحيا من الوان الطعام والشراب بل يشمل توجيهات طبية تنظم تناول الطعام والشراب من حيث مواقيته وكميته وطريقة تناوله مثل قوله تعالى : ((**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين**)) (الأعراف الآية ٣١) ، ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان كان لابد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « اياكم والبطنة فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة عن العبادة » ، وتذكر كتب السيرة كيف كان يتناول الرسول القدوة طعامه بأنه : « كان يصغر اللقمة ويجيد مضغ الطعام ولا يلتقم لقمة الا بعد بلع ما سبقها » .

ثم هناك بعد ذلك فريضة « الصيام » بكل ما وراءها من حكم صحية عديدة يدركها الطب الحديث (٥١) .

٤ — اوامر الصحة الجنسية : Sex Hygene

وسيعجب الدارس لهذا الموضوع .. كيف أن الاسلام منذ خمسة عشر قرنا قد قدم لأتباعه « الثقافة الجنسية » الكاملة النظيفة التى تحاول أحدث المدارس التربوية المعاصرة أن تقدمها لطلابها فلا تستطيع ، اذ أن الثقافة الجنسية فى الاسلام تأتى فى اطار عقائدى سليم ، وآيات واحاديث لها منزلة القداسة والتبجيل ، وسنرى أن الثقافة الجنسية

فى الاسلام تتناول أمور الجنس تناولا شاملا يشمل تكوين الجنين ونموه ، وكيفية اختيار الزوجة وكيفية المعاشرة الجنسية السليمة وعــدم اتيـــان النســـاء فى المحيض والحث على الزواج وتحريم الزنا واللواط والشذوذ وتحليل الطلاق وتعدد الزوجات فى الحالات التى تستدعيها الظروف الطبية والجنسية والانسانية الملحــة ، مع أوامر للنظافة الجنسية كالاستحمام بعد الجماع والاستنجاء بعد البول والاستنجاء بعد البول والغائط ... الخ ، وسنكتفى بذكر القليل من تعاليم الاسلام فى هذا الشأن (٥٢) .

يقول تعالى فى اختيار الزوجة ، وما ينبغى أن يكون بين الزوجـين من مودة ومحبـة : **« ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليهـا ، وجعــل بينكم مودة ورحمــة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »** (الروم الآية ٢١) ، ويقص قصة اعجاب ابنة شعيب بموسى عليه السلام لأمانته وقوته فتقول لأبيها :

« يا ابت استاجره ان خير من استأجرت القوى الأمين » (القصص الآية ٢٦) ، فيفهم الأب فى الحال لغة القلوب ، فيقول لموسى **« انى اريد أن انكحك احــدى ابنتى هاتين »** ويدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن يرى المسلم المراة التى يريد أن يتزوجهـا بنفســه حتى لا يفاجأ بما لا يرضاه بعد الزواج فيقول : « اذا خطب احدكم المرأة فقدر ان ينظر منها بعض ما يدعوه الى نكاحها فليفعل » ، وقال للمغيرة بن شعبة وقد خطب فتاة من الأنصار بدون أن يراها : « اذهب فانظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما » فاذا كان الزواج أحل الله لهما الاستمتاع كل بالآخر .. فيقول سبحانه وتعالى : **« نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم »** (البقـرة الآية ٢٢٣) ، وقوله : **« هن لبـاس لكم وانتم لبـاس لهن »** (البقرة الآية ١٨٧) . الا عند المحيض فان المباشرة مضرة صحيا بكل من الزوجين .. يقول الله تعالى : **« ويسالونك عن المحيض قل هو اذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فاتوهن من حيث أمركم الله ، ان الله يحب التوابين ويحب المتطهـرين »** (البقـرة الآية ٢٢٢) وينهى رسول الله صلى الله عليــه وسلم أن يباشر الرجل زوجته دون

أن يسبق ذلك ملاطفة عاطفية وتمهيد جنسى بمثل قوله : « لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة وليكن بينهما رسول ، قيل وما الرسول يا رسول الله ، قال : القبلة والكلام » ، ومن تعاليم الاسلام أن يتزين الرجل لزوجته ، وأن تتزين المرأة لزوجها ، والا ينظر الرجل بشهوة الى غير زوجته ، والا تمتنع المرأة عن زوجها فى الفراش ، أو يهجر الرجل زوجته فى الفراش الا لسبب شرعى ، ويكفى أن ينظر الاسلام الى العلاقة الجنسية بين الزوجين على انها عمل مستحب ينالان عليه الأجر من الله ، لترى تلك الصراحة وتلك القداسة التى يعالج بها الاسلام موضوع الجنس فى حياة المسلم .

وفى القرآن حديث ممتع عن تطور الجنين مثل قوله تعالى : « أيحسب الانسان أن يترك سدى ، الم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » (القيامة الآيات ٣٦ — ٣٩) ومثل قوله : « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين » . (المؤمنون الآيات ١٣ ، ١٤) وقوله : « وانه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى » (النجم الآيات ٤٥ ، ٤٦) وقوله تعالى : « فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » (الطارق الآيات ٦ — ٨) ... الخ .

ويحرم الاسلام الزنا لما يشيعه فى المجتمع من فساد مثل قوله : « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا » (الاسراء : آية ٣٢) ويحرم اللواط « ولوطا اذ قال لقومه اتأتون الفاحشة ، ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون » (الأعراف : الآيات ٨٠ ، ٨١) الى غير ذلك من الموضوعات التى تكون فيما بينها جسما متماسكا من المعرفة الجنسية السليمة التى تربى المسلم على احترام الجنس وتفهم أسراره والقيام بأدواره قياما صحيا نظيفا ، وبذلك يخلو المجتمع من أمراض الجنس الناجمة عن

الاختلاط واثارة الشهوات كانتشار البرود ، أو الشذوذ الجنسى والخيانة الزوجية ... الخ مما تعج به مجتمعات التسيب والرخص (٥٣) .

٥ — اوامر الصحة النفسية والعقلية :
NENTAL AND PSYCHIC HYGENE

ان الاسلام بما يدعو اليه من ايمان وصلة قوية بالله تريح النفس وترضى العقل والشعور ، وما يكونه من علاقات اسلامية بين الأفراد والجماعات تجعلهم كالجسد الواحد ، وما يحدثه من تنظيم اقتصادى عادل لا يولد مشاعر الحقد والكراهية بين الأفراد ، وما يستثيره من دوافع اخلاقية رفيعة تسمو بالأفراد والجماعات ، الاسلام بكل هذه المبادىء والتعاليم يخلق الجو الصحى نفسيا وعقليا ، ويقضى على أكثر ما تعانيه مجتمعاتنا المعاصرة من شعور بالاغتراب ALINATION والاحباط FURSTRATION والشعور بالعجز POWERLESSNESS وما يصاحب تلك من عنف وتوتر وجريمة وعرى (٥٤) STRIKERS (*).

كذلك فان ما فى الاسلام من ذكر ، وصلة بالله ، وشعور برحمته كل ذلك مما يثرى الحياة النفسية لدى المسلم .. يقول تعالى عن الأثر النفسى لتلاوة كتاب الله : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، الا بذكر الله تطمئن القلوب » (الرعد : آية ٢٨) ، ويقول أيضا « أومن كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (الأنعام : الآية ١٣٢) ، ويدعو الى الصبر والايمان عند المحن والمصائب وعدم السخط والجزع بمثل قولة « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها » (النساء : الآية ٧٨) ، ويفتح الرحمة أمام المخطئين اذا عادوا الى الطريق المستقيم بمثل قوله : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » (الأحزاب : الآية ٥) ، وقوله : « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما » (النساء : الآية ١١٠) ، ويحذر رسول الله الانسان من أن يلهث فى سبيل الدنيا بطريقة تعرضه للقلق والعذاب النفسي ويشده بدلا من ذلك الى اهداف وآفاق أسمى وأرحب

بمثل قوله : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وآتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا الا ما قدر له » (٥٥) ولقد أدرك المسلمون هذا البعد النفسى فى حياة المسلم وسموه « مرض القلوب » وفى ذلك يقول ابن قيم الجوزية « المرض نوعان : مرض القلوب ، ومرض الأبدان ، وهما مذكوران فى القرآن » (٥٦) ، ثم يمضى فى الحديث عن تشخيص المرضين مظهرا علاجهما معا ، ويقول ابن الجوزى فى مقدمة كتاب « الطب الروحانى » : « لما جمعت كتابا فى طب الأبدان وسميته لقط المنافع آثرت ان اشفعه بكتاب فى طب النفوس أسميته « الطب الروحانى » فان طب الأبدان اصلاح الصور وطب النفوس اصلاح المعانى وهى اشرف (٥٧) ، وتحفل الكتب الطبية الاسلامية فى عصور الازدهار الاسلامى بالكتب التى تعالج طب النفوس (٥٨) ، وهو اتجاه اهملته الدراسات الطبية المعاصرة ، يقول احد الدارسين لهذا الموضوع : « أهملت الدراسة النفسية فى الطب (المعاصر) ، فكل الأمراض سببها جماث راشحة ، وجراثيم وطفيليات ، ولكل مرض اعراضة ، وعندما وضعت الأسباب النفسية فى الأمراض ، وقد حدث هذا مؤخرا حيث حشدت الأسباب النفسية من جملة الأمراض — وضعت بشكل مبهم غير محدد أو واضح بخلاف مرض المرض حينما يكون سببة جرثوميا أو فطريا أو طفيليا وهذا خلل بشع فى الدراسة مع اعتراف المؤلفين فى كتاباتهم أن الأسباب النفسية الروحية تلعب دورا هاما فى كل حادث من أحداث البدن » (٥٩) .

« والطب الروحانى » الذى عالجه علماؤنا المسلمون يختلف فى تصورنا عن العلاج النفسى المعاصر ، لأن الطب الروحانى الاسلامى يعتمد على تقوية علاقة الانسان بربه وتخليه عن الصفات المذمومة وتحليه بالصفات المحمودة ، ولا شك أن تلك المدرسة الاسلامية فى العلاج النفسى تحتاج فى عصرنا الحديث الى من يطورها ويدعمها بالمزيد من البحوث والدراسات حتى يكون لنا مدرستنا الخاصة بنا فى العلاج النفسى الاسلامى أو الطب الروحانى » (٦٠) .

٦ — أوامر اللياقة البدنية : BODY BUILT

ذلك أن الاسلام ينظر الى المسلم كخليفة الله فى الأرض ، ومن ثم فهو يطالبه بكثير من الأوامر والتكاليف لعمارة الكون والجهاد فى سبيل الله والقيام بواجباته الاسلامية العديدة من صلاة وصيام وزكاة وحج .. الخ ، ولا شك ان ذلك كله يتطلب قوة الجسم وصحة البدن ، ولذلك فان تعاليم الاسلام تحث على ذلك وتدعو اليه . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف » ، ويشير الله فى كتابه الى فضل الرجل القوى فى مناسبات عدة فيقول « محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم » (الفتح : آية ٢٩) ، ويقول : « ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » (البقرة : آية ٢٤٧) ، وقوله « يا ابت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين » (القصص : الآية ٢٦) ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : « علموا أولادكم الرماية ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا » ، ويقول : « حق الولد على الوالد ان يعلمه الكتابة والسباحة والرمى » ، وحكت عائشة رضى الله عنها « ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد سابقها وكانت نحيلةخفيفة فسبقته ثم مرت السنون وكثر شحمها فسابقها فسبقها فأخذ يذكرها بالمرة السابقة ويقول لها : هذه بتلك » . فاذا أضفنا الى ذلك ما فى « أداء الحج » من تدريب على المشاق ، وعلمنا أنه ركن من أركان الاسلام الخمسة « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » (الحج : آية ٢٧) ، وما يتضمنه الجهاد فى سبيل الله من تدريبات بدنية وعسكرية مختلفة يأمر بها الاسلام ويدعو اليها بمثل قوله : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » (الانفال : آية ٦٠) ، وقوله : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال أن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » (الأنفال : آية ٦٥) لأدركنا مدى حرص تعاليم الاسلام على اللياقة البدنية .

ثم تأتى الصلوات الخمس اليومية — غير السنن والنوافل — لتحتوى على أنواع متعددة من الرياضات والتمارين الصالحة لكل الأعمار : للأطفال والرجال والنساء على حد سواء ، ولا يكلف اداؤها شيئا ويمكن ان تؤدى فى وقت قصير وبدون أى مساعدة وفى أى لحظة وفى أى مكان ، وهى تمثل تدريبا شاملا للأطراف والعضلات والأجزاء المختلفة للجسم (٦١) .

ويحسن ان نختم الحديث عن « الصلاة » بما ذكره صاحب كتاب « الصلاة صحة ووقاية وعلاج » بعد أن قارنها بغيرها من التمرينات الرياضية واليوجا والسورياناماسكار (نوع متطور من اليوجا) وكيف ان الصلاة تمتاز عن هذا كله بأنها لاتكسب اللياقة البدنية فقط بل تؤدى الى ارتفاع المستوى الروحى والعقلى ايضا فيقول : « ان حركات الصلاة أرق واخف وتفى بجميع المزايا المطلوبة لأرقى التمرينات الرياضية التى وصل اليها العلم علاوة على المزايا المتعددة من اتباع مقومات الصلاة وتلاوة أم الكتاب فى كل ركعة ثم تلاوة آيات الذكر الحكيم فى الركعات المتعددة » (٦٢) .

ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نتناول أيضا تعاليم الاسلام المتعلقة بالصحة المهنية OCCUPATIONAL–MEDECINE وكيف يعامل الأجير والعامل والخادم معاملة كريمة ، ورعاية المسنين GERIATRICS سواء اكانوا آباء أو أمهات أو جدودا وغيرهم ، ورعاية الأمومة والطفولة MATERNAL AND CHILD HEALTH وما ينبغى أن يوفر للطفولة والأمومة من رعاية وحب وحنان . وكل ما يمكن استخلاصه من ذلك هو أن تعاليم الاسلام قد أخذت المجتمع الاسلامى منذ نشأته الى طريق الصحة والقوة ، وأيقظت فيه « الوعى الصحى » باهمية هذه الأمور ، وجعلت من ذلك كله جزءا لا يتجزأ من تعاليم الدين ، فلا غرابة بعد ذلك أن يزداد اهتمام المسلمين بصحة البدن وصحة الروح معا ، ويقبلون على العلوم الطبية ينهلون منها ، ويضيفون اليها ، ويبدعون فيها ، ويصبحوا الرواد فى هذا الميدان طوال العصور الاسلامية الزاهرة .

الاسلام والطب العلاجى :

يعتبر الاسلام بحق أول دين سماوى يحرر التعليم الطبى وممارسة العلاج من الاعتماد على الرقى والتمائم والأحجبة وهيمنة رجال الدين على علاج المرضى واعتباره حقا من حقوقهم المقدسة ، ولسنا نجد كبير حاجة فى أن نستعرض هنا « التاريخ الطبى » للبشرية لكى نرى الى أى حد سيطرت الكهانة والشعوذة على ميدان الطب العلاجى قبل الاسلام ، وكيف أن العهد القديم كان لا يفرق بين الكاهن والطبيب ، ذلك أن المرض أصلا ليس الا عقابا على خيانة الانسان لخالقه حيث نقض عهده مع الاله وأطاع وعبد معبودات غريبة ، وبسبب خطيئة الانسان كان المرض الذى يحتاج الى طقوس خاصة لشفاء صاحبه ، « ذلك أن الأمراض ليست فى حقيقتها الا رموزا لفضيحة الانسان وعاره ونقضه لوعوده مع الاله ومن ثم وجب تدخل الكاهن » (٦٣) ، كذلك نجد أن العهد الجديد يؤكد على أن المريض قد ارتكب ذنبا فدخله شيطان المرض وأنه اذا قوى ايمانه وتاب عن ذنوبه خرج الشيطان من جسده ، وأن المسيح قد أورث رجال الدين القدرة على الشفاء . جاء فى انجيل متى (١٠) وفى لوقا (٢٠ : ٩) يقول بولس : « ومن مزيته التى لا يفاضله فيها نبى ولا رسول انه أفضى بالقدرة على اتيان المعجزات والشفاء الى تلاميذه ثم جدد منحها لهم بعد قيامه من الموت وصعوده الى السماء وأورث كنيسته تلك القدرة أيضا » ، ولذلك اعتقد رجال الكنيسة أن « العلاج » حق من حقوقهم المقدسة ولا يسمح لأحد غيرهم أن يمارس العلاج والا اتهم بالدجل والشعوذة والسحر ، وكانت الكنيسة تأمر بحرق الأطباء والعلماء أحياء أو وضعهم على الخوازيق حتى الموت ، فى الوقت الذى كان العلاج الوحيد الذى تقدمه الكنيسة للمريض يتلخص فى ثلاثة أمور هى : اضاءة الشموع حول المريض لطرد شيطان المرض ، واقامة صلاة الغفران حتى يتخلص من ذنوبه ، ودهن جسده بالزيت » (٦٤) .

كانت تلك هى النظرة الى المرض والى طريقة العلاج فى الأديان الأخرى ثم جاء الاسلام لكى يحدث تغييرا كبيرا فى تلك المفاهيم ، ولكى

يؤكد على ان المرض انما هو ظاهرة غير صحية ينبغى أن يلتمس لهـــا العلاج المناسب . « دخل رسول الله صلى الله عليه وســـلم على مريض يعوده ، وبعد أن عاده قال لأهل المريض : استدعوا له الطبيب ، قالـــوا متعجبين : وانت تقول يا رسول الله ؟ ... قال : نعم ، تداووا عباد الله فان الله لم ينزل داء الا أنزل له دواء الا داء واحد ، قالوا ما هو يا رسول الله ؟ قال : الهرم » أى كبر السن .. وفى رواية أخرى « جاءت الأعراب فقالوا ، يا رسول الله أنتداوى ؟ فقال : نعم يا عباد الله ، تداووا فان الله عز وجل لم يضع داء الا وضع له شفاء غير داء واحد ، قالوا : ما هو ؟ قال : الهرم » ، وقال صلى الله عليه وسلم يحث على طلب « الدواء » : « لكل داء دواء فاذا أصيب دواء الداء برأ باذن الله عز وجـــــل » ، وفى رواية أخرى : « ان الله عز وجل لم ينزل داء الا أنزل له الشـــفاء : علمه من علمه وجهله من جهله » (٦٥) . فتأمل حث رسول الله صلى الله عليـــه وسلم على العلاج وربط الأسباب (الشفاء) بالمسببات (طلب الدواء) ، وتاكيده على أن لكل داء دواء وضرورة البحث من العـــــلاج الصحيح ، ويعلق ابن قيم الجوزية على تلك الأحاديث بقوله : « وفى قوله صلى الله عليه وسلم : لكل داء دواء ، تقوية لنفس المريض والطبيب وحث عـــلى طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه ، فان المريض اذا استشعرت نفسه أن لدائه دواء يزيله تعلق قلبه بروح الرجاء وبرد من حرارة اليأس وانفتح له باب الرجاء ، ومتى قويت نفســـــه ، انبعثت حرارته الغريزية وكان ذلك سببا لقوة الأرواح النفســـــانية والطبيعية ، ومتى قويت هذه الأرواح ، قويت القوى التى هى حاملة لها ، فقهرت المرض ودفعته ، وكذلك الطبيب اذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه » (٦٦) .

ويؤكد الرسول لأتباعه على أن طلب العلاج لا ينافى صدق الايمان ولذلك عندما سأله أبو خزامة قائلا : « يا رســـــول الله ، أرأيت رقى استرقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قضاء الله شـــــيئا ؟ فقال : هى من قدر الله » . وعندما مرض صلى الله عليه وسلم فى آخـــر عمره استعان « بالأطباء » تأكيدا لهذا المعنى فى نفوس أصحابه .

روت عائشة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسقم لله آخر عمره فكانت تفد عليه أطباء العرب والعجم فتنعت له الأنعات وكنت أعالجه بها » ، وهكذا أصبح طلب الشفاء عن طريق الدواء سلوكا اسلاميا يلجأ اليه المريض والطبيب معا (٦٧) . واذا كان الاسلام يحث على « طلب الدواء » وجعله من الأسباب الموصلة الى الشفاء فقد حذر من أن يمارس مهنة الطب الا الحاذق بها ، والعارف بالأمراض وعلاجها ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تطبب ولم يعلم مهنة الطب قبل ذلك فهو ضامن » فلا يتصدر لمهنة العلاج الا من اشتهر بذلك وظهر حذقه ، اما اذا أقدم عليها الجاهل فالحق الأذى بالمريض ، فهو فى تلك الحالة مسئول عن الضرر الذى أصاب المريض نتيجة للعلاج الخطأ ، وفى ذلك تحذير للمريض أن يلجأ الى الجاهل او المحتال الذى يمتهن الطب بدون معرفة او حذق ، وتحذير للأطباء أن يقدموا على ممارسة المهنة بدون علم وتجربة وخبرة (٦٨) .

ولا شك أن تلك التعاليم الاسلامية فى العلاج كانت نقطة انطلاق انطلق منها العرب من عهد السحر والكهانة والتمائم الى عهد الطب والعلاج القائم على الأسباب والمسببات وكانت تلك التعاليم وراء هذا الاقبال على « العلوم الطبية » علما وتعليما ودراسة . وبينما كانت أوربا المسيحية طوال العصور الوسطى تمارس العلاج بطرقها البدائية التى وصلت احيانا الى درجة البربرية كان الطب الاسلامى يتقدم فى ميدان التشخيص والنبض والتشريح والصيدلة والملاحظة السريرية .. الخ .. ويروى لنا أسامة بن منقذ (١٠٩٥ — ١١٨٨) فى مذكراته صورتين نرى أن نوردهما هنا لكى نرى حالة الطب فى أوربا فى ذلك الوقت المتأخر ، يذكر اسامه أن عمه أرسل الى المحافظ الافرنجى لقلعة منيطرة بلبنان بناء على طلبه طبيبه النصرانى ثابت ليعالج بعض الأشخاص الذين الزمهم المرض الفراش ، وبعد عشرة أيام رجع ثابت فقوبل بالتهنئة على نجاحه السريع فى مداواة مرضاه فقال ردا على التهنئات ، ان الأمر على أى حال لا يدعو اليها فقد قدموا اليه عند وصوله مريضين ، رجلا يشكو من دملة

فى رجله ، وامرأة مريضة بذات الرئة ، فاخذ فى معالجتهما الأول باستعمال اللبخات والثانية بالغذاء المناسب والأدوية ، وكانت صحتهما تتقدم بحالة مرضية . واذا بطبيب افرنجى يتدخل مقرا بان العلاج المتبع لا جدوى منه، واتجه الى الرجل سائلا اياه : اى الأمرين احب اليه أن يموت برجلين أم يعيش برجـــل واحدة ، فأجاب المريض مفضـــــلا الأمر الثانى وعلى ذلك استدعى الطبيب الافرنجى فارسا قويا معه فاس وأمر بقطع ساق الرجل بضربة واحدة ولكن الفارس فشل ، وعند الضربة الثانية سال مخ السياق من العظم ومات الرجل فورا ، ثم وجـــــه الطبيب الأفرنجى التفاته الى المرأة وبعد أن فحصها اعلن أن شيطانا يسكنها ، وأن مكانه فى راسها ، وامر بازالة شــــــعرها وان تعاود تناول الطعام العـادى الذى تتناوله زميلاتها ، وهو الثوم والزيت ، ولما ساءت حالتها صنع علامة على هيئة صليب فى رأسها بأن شقها شقا عميقا حتى ظهر العظم ، ومرخ فى الجرح ملحا ، واذ ذاك اسلمت المرأة أيضا روحها ، أما القصة الأخرى فقد رواها أســـــامة نقلا عن غليوم دى بورز Guillaume de Bures الذى صاحب اسامة فى سفر من عكا الى طبرية — قال غليوم : « كان عنـــدنا فارس قوى البأس فى بلادنا وأشرف على الموت ، وكملجأ أخير قصدنا الى قسيس نصرانى ذى شأن عظيم لنعهد اليه بالمريض قائلين : تعال معنا لتفحص الفارس فلانا فوافق وسار معنا ، وكنا نعتقد أنه ما يكاد يضع يده عليه حتى يشفى ، وعندما رأى القسيس المريض قال : احضروا لى شمعا ، فاحضرنا بعضا منه ، فلينه وعمل منه سدادتين مثل عقدة الأصبع ووضع كل واحدة منهما فى كل من فتحتى الأنف فمات عند ذلك ، فصحنا قائلين : « انه ميت . . » فأجاب القسيس : نعم ، كان يتعذب فسددت أنفه حتى يموت ويستريح » (٦٩) .

واذا كنا ندرس اليوم تاريخ الطب الاسلامى ونعجب بكل ما حققـــه المســـلمون فى هذا الميدان ، وكيف أنهم حولوا الطب الى علم يقـــوم على أسس عقلية سليمة ، واذا كنا نعجب بما ألفه المسلمون فى علم الطب من

مؤلفات حوت تجاربهم فى الميدان وتجارب الأمم السابقة وشملت كل فروع الطب الوقائى والطب العلاجى فلابد أن نتذكر أن الاسلام بتعاليمه كان هو المحرك الكبير لتلك الحركة العلمية والتعليمية الطبية عند المسلمين ، لقد هيأت تلك التعاليم العقلية العربية لادراك أهمية الصحة والأسباب الوقائية والعلاجية للأمراض وبذلك استطاعت تلك العقلية أن تستوعب علوم الآخرين الطبية ، واستطاعت أن تضيف عليها ، وأن تبدع ما أبدعت فى حقل الطب الاسلامى على النحو الذى سنراه فى صفحات البحث التالية .

« مراجع الفصل الأول ومصادره »

(١ ، ٢) Ethel W. Putney: "Moslem Philosophy of Education" **The Moslem Wdrld**, 1961, vol 61 pp. 190, 191.

— W. Montgomery watt, **Islamic philosophy and theology**, Edinburgh University press, 1972.

— Bayard Dodge: **Muslim Education in the Medieval Times**, The Middle East Institute, Washington, 1962.

— A.S. Tritton: **Materials on Muslim Education in the Middle Ages**, London, Luzzac Co., 1957.

(٣) محمد جواد رضا . **الفكر التربوى الاسلامى مقدمة فى أصـوله الاجتماعية والعقلانية** ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢١ .

(٤) **نفس المرجع** ، ص ٢٥ ، وراجع تفصيل هذا الرأى عنـده فى الصفحات من ص ٢١ ، ص ٢٧ .

(٥) راجع الأجزاء من ٨ — ١٠ من موسوعة جواد على . **المفصـل فى تاريخ العرب قبل الاسلام** ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧١ ، وهى تعتبر أوفى دراسـة عن العرب قبل الإسلام وتقع فى عشرة أجزاء خصصت الأجزاء الثلاثة الأخيرة للعلوم والآداب فى الجاهلية .

(٦) راجع ضرورة اعادة تقسيم الأعصر التاريخية للعالم الاسـلامى فى عمر فروخ — **تجديد التاريخ فى تعليله وتدوينه ، اعادة النظر فى التاريخ** دار الباحث ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٦ — ص ٢٣ .

(٧) انظر على سبيل المثال : ابن جماعه . **تذكر السامع والمتكلم فى أدب العالم والمستعلم** ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٥٣ هـ ، الغزالى **احيـاء علوم الدين** ، جـ ١ ، مرجع سابق ، وطاش كبرى زاده : **مفتاح السـعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم** ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

(٨) **نفس المرجع** ، جـ ١ ، ص ٦ .

(٩) **نفس المرجع والمكان** .

(١٠) **نفس المرجع** ، ص ٩ — ص ١٠ .

(١١) الباحث : « **ديمقراطية التعليم فى عصور الازدهار الاسلامى دروس مستفادة** » بحث مقدم الى **مؤتمر ديمقراطية التعليم فى مصر** الذى عقدته رابطة التربية الحديثة بالتعاون مع صحيفة الأهرام فى الفترة من ٤/٢/ — ١٩٨٤/٤/٥ ، ص ٨ .

(١٢) هناك كثير من الدراسات التى توضح تلك النقطة مثل :

— العقاد : **التفكير فريضة اسلامية** ، دار القلـــم ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧١ .

— أحمد محمد الحوف : **القرآن والتفكير** ، المجلس الأعلى للشـــئون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

— عبد الرزاق نوفل : **القرآن والعلم الحديث** ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٧٣ .

— عبد الرزاق نوفل : **الله والعلم الحديث** ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

— عبد الرزاق نوفل : **الاسلام والعلم الحديث** ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٨ .

(١٣) محسن عبد الحميـــد : **حركة التغير الاجتماعى فى القرآن** . مطبعة كاظم ، دبى ، ١٩٨٣ ، ص ٩٥ .

(١٤) **نفس المرجع والمكان** .

(١٥) على بن ابى طالب : « **نهج البلاغة** » شرح الامام محمد عبده ، دار المعرفة ، بيروت ، بدون .

(١٦) محمد شديد : **منهج القرآن فى التربية** ، دار الأرقم ، بيروت ، بدون ، ص ١٠ — ص ١٨ ، وانظر أيضا :

— ابن هشام : **السيرة النبوية** ، مطبعة صبيح ، ١٣٤٦ هـ ، القاهرة .

— ابن قيم الجوزية : **زاد المعاد فى هدى خير العباد** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨١ م .

(١٧) عبد الحى الكتانى : **نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية** ، دار الكتاب العربى ، ج ١ ، بدون ، ص ٤٢ .

(١٨) **نفس المرجع** ، ص ٤٤ — ص ٤٧ .

(١٩) **نفس المرجع** ، ص ٤٧٣ .

(٢٠) **نفس المرجع** ، ص ٤٧٣ — ٤٨٠ .

(٢١) **نفس المرجع** ، ص ٤٨ .

(٢٢) **نفس المرجع** ، ص ٤٠ .

(٢٣) M.A. Shaben : **Islamic History, A new Interprtation,** Vol. 1, Cambrideg University Press, London, New York, Melbourne, 1971, pp. 50, 51.

(٢٤) عبد الحى الكتانى : **نظام الحكومة النبوية** ، مرجع سابق ، ص ٤٠ ، ص ٤١ .

(٢٥) **نفس المرجع** السابق ، ص ٤٨ .

(٢٦) **نفس المرجع** ، ص ٢٩ .

(٢٧) راجع فصل كتاب الرسول وصور من كتبة صلى الله عليه وسلم ، **نفس المرجع** ، ص ١١٤ — ص ١٧٢ .

(٢٨) انظر مثلا : احمد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخها** ، ط ١ ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٤٤ ، ص ٤٥ .

— سعيد اسماعيل علي : **معاهد التعليم الاسلامى** ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٤ — ص ٥ .

(٢٩) عبد الحى الكتانى : **نظام الحكومة النبوية** ، مرجع سابق ، ص ٤٩ .

(٣٠) **نفس المرجع** ، ص ٢٠٢ — ص ٢٠٤ .

(٣١) ماجـد عرسـان الكيلانى : **تطـور مفهوم النظرية التربوية الاسلامية** ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ، ١٩٧٨ ، ص ٦٨ .

(٣٢) ملكة أبيض : **التربية والثقافة العربيـة الاسلامية فى الشـام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة بالاستناد الى مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر** ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٦١ .

(٣٣) حسين عبـد الله محضر : **الجـديد فى الادارة المدرسية** ، دار الشروق ، جـدة ، ١٩٧٨ ، ص ١٦ .

(٣٤) ملكة أبيض : **التربية والثقافة العربية الاسلامية فى الشـام والجزيرة** ، مرجع سابق ، ص ٨٥ ، ص ٨٦ .

(٣٥) خليل داود الزرو : **الحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثـانى للهجرة** ، دار الآفاق ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٩ ، ٢٠ ، نقـلا عن ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح المنجد ، مطبعة المجتمع العلمى العربى ، دمشق ، ١٩٥١ ، جـ ١ ، ص ٣١٥ .

(٣٦) **نفس المرجع** ، ص ٢٠ .

(٣٧) ابن حزم : **الفصل فى الملل والأهواء والنحل** ، طبعة عبد الرحمن خليفة ، ١٣٤٧ هـ ، القاهرة ، جـ ١ ، ص ٦٦ .

(٣٨) **نفس المرجع** ، ص ٦٧ .

(٣٩) عبد الرحمن الحجى : **نظرات فى دراسة التاريخ الاسلامى** ، دار القلم ، دمشق ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٢٥ — ص ٥٤ .

(٤٠) ملكة أبيض : **التربية والثقافة العربيـة الاسلامية فى الشام والجزيرة** ، مرجع سابق ، ص ٨٢ .

(٤١) **نفس المرجع** ، ص ٨٣ .

(٤٢) **نفس المرجع** ، ص ٨٥ .

(٤٣) عمر فروخ : **تجديد التاريخ فى تعليله وتدوينه ، اعادة النظر فى التاريخ** ، مرجع سابق ، ص ٢٥٨ ، ص ٢٥٩ .

(٤٤) احمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسلام** ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

(٤٥) **نفس المرجع** ، ص ٢١ .

(٤٦) محمود رجائى المصطيهى وآخرون : « استعمال السلوك لنظافة الفم وصحته » من **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٤٠٧ ، ص ٤١١ .

(٤٧) أحمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٧ ، ص ٣٤ .

(٤٨) **نفس المرجع** ، ص ٣٥ — ص ٤٠ وللمزيد من الأحاديث الواردة فى هذا الباب انظر :

— ابن قيم الجوزية : **الطب النبوى** ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢٨ — ص ٢٩ ، ص ٣٤ — ص ٣٥ .

— محمود على البار : **العدوى بين الطب وحديث المصطفى** ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٨١ .

(٤٩) احمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٤٢ — ص ٤٦ .

— محمود صدقى : **رسالة الطب فى ايام العرب وقوانين الصحة عند المسلمين** ، ترجمة حافظ صدقى عن الفرنسية ، مطبعة ابو الهول القاهرة ، ١٩١٠ ، ص ٢٢ ، ص ٢٤ .

— محمد عبد الحميد البوشى : **الاسلام والطب** ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤٣ — ص ٦١ .

(٥٠) احمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٥١ — ص ٥٣ .

— عبد الحميد دياب ، أحمد قرقوز : **مع الطب فى القرآن الكريم** ، مؤسسة القرآن ، دمشق ، ١٩٨٠ ، ص ١٢٧ — ص ١٩٩ .

— السيد الجميلى : **الاعجاز الطبى فى القرآن** ، دار التراث العربى ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٦٢ — ص ٨٢ ، ص ١١٠ — ص ١٢٠ .

(٥١) أحمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسلام** ، مرجع سابق ص ٥٢ — ص ٧١ .

— الحاج محمد وصفى : **القرآن والطب** ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٠٦ — ص ٢٠٨ .

— شوكت الشطى : **الطب فى الاسلام والطب** ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٥٩ ، ص ٢٥٨ — ٢٦١ .

(٥٢) أحمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٠٩ — ص ١٥٤ .

— السيد الجميلى : **الاعجاز الطبى فى القرآن** ، مرجع سابق ، ص ٢٤ — ٦٠ .

— عبد الحميد دياب ، أحمد قرقوز : **مع الطب فى القرآن الكريم** ، مرجع سابق ، ص ٦٩ — ص ٩٦ .

(٥٣) D. Radnicla : **An Introdution to Man And His Development.** New York, Appleton Century Crofer, 1966, pp. 375 — 376 & Herbert W. Armetrong. **The Modern Romans, The Decline, of Western Civilization**, Ambassador Press, Pasadena, U. S. A. . 1975.

— جمعية الاصلاح والتوجيه الاجتماعى : **المجتمع العارى بالوثائق والأرقام** ، مطبعة كاظم ، دبى ، الامارات العربية المتحدة ، ١٩٨٣ .

(٥٤) راجع : قيس النورى : الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا « **عالم الفكر** » ، العدد الاول ، أبريل — يونية ١٩٧٩ ، سيد صبحى : **الشباب وازمة التعبير** ، المطبعة التجارية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

Richard D. Aeth, **Youth and Changing Secondary School**, Hamborg, Unesco institute for Education, 1973, pp 11 — 16.

(٥٥) احمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاســـلام** ، مرجع سابق ، ص ٧٩ — ص ١٠٨ ، يوسف القرضاوى : **الايمان والحيــاة** ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٧٤ — ص ٣٤٩ .

(٥٦) ابن قيم الجوزية : **الطب النبــوى** ، مرجع سابق ، ص ١ ثم تفصيل ذلك من ص ١ — ص ١٨ .

(٥٧) الحافظ ابن الجوزى : **الطب الروحانى** ، مرجع سابق ص ٥ .

(٥٨) **نفس المصدر** ، الامام الشيرازى :**الطب الروحانى** ، مرجـــع سابق ، ابن حزم الاندلسى : **رسالة فى مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد فى الرذائل** ، مرجع سابق .

(٥٩) خالص جلبى كنجو : **الطب محراب الايمان** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٨ .

(٦٠) من الدراسات الجادة على هذا الطريق .

— سيد محمد عثمان : **المسئولية الاجتماعية والشخصية المسلمة دراسة نفسية تربوية** ، الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

— حسن الشرقاوى : **نحو علم نفس اسلامى** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القــاهرة ، ١٩٧٦ .

— عامر يس محمد النجار : **الآراء النفسية لدى صوفية القرن الثالث الهجرى فى ضوء علم النفس الحديث** ، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية العلوم ، جامعة القــاهرة ، ١٩٨٠ .

Malik Badri : **The Dilema of Psyohologists,** M. W. H., London Publishers, 1979.

(٦١) أحمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاســـلام** ، مرجع سابق ، ص ٧٣ — ص ٧٨ .

— باقر شريف : **النظام التربوى فى الاسلام دراسة مقارنة** ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، لبنــان ، ١٩٧٩ ، ص ٣٧١ — ص ٤٠٢ .

— علي القاضي : **اضواء على التربية الاسلامية** ، دار الانصار ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٣٠ — ص ٣١ .

(٦٢) محمد زكي سويدان : **الصلاة صحة ووقاية وعلاج** ، مطابع شركة الاعلانات الأهلية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٢٠٦ — ص ٢٠٧ .

(٦٣) ناجي موريس : « المفهوم الاسلامي للشفاء » من **ابحاث واعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الاسلامي** ، مرجع سابق ، ص ٦٥١ .

(٦٤) **نفس المرجع** ، ص ٦٥١ ، ص ٦٥٢ ، أحمد شوقي الفنجري : **الطب الوقائي في الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٥٦ .

(٦٥) ابن قيم الجوزية : **الطب النبوي** ، مرجع سابق ، ص ٨ .

(٦٦) **نفس المرجع** ، ص ١٢ .

(٦٧) **نفس المرجع** ، ص ٨ ، ص ٩ ، احمد شوقي الفنجري : **الطب الوقائي في الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٦١ .

(٦٨) **نفس المرجع** ، ص ١٠٧ — ص ١١٥ .

(٦٩) ادوارد ج. براون : **الطب العربي** ، ترجمة احمد شوقي حسن ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٩٣ .

الفصل الثانى

الاعداد التربوى للطبيب عند المسلمين

المرحلة الأولى : (التعليم الابتدائى)

Primary Education.

الاعداد التربوى للطبيب عند المسلمين

التعليم الابتدائى :

قبل التحدث عن الاعداد التربوى والمهنى للطبيب عند المسلمين كان من اللازم ان نتعرض اولا للمرحلة الدراسية التى تسبق المرحلة التخصصية وهى مرحلة التعليم الابتدائى (Primary Education) ، وذلك أن التعليم فى تلك المرحلة الابتدائية سوف تنعكس آثاره على التلميذ فى المرحلة الدراسية التالية وتكسب الطالب المسلم الطابع الخاص المميز له كانسان مسلم اولا ، قبل أن يكون انسانا متخصصا فى حقل الطب ثانيا . ولقد آثر الباحث أن يستخدم هنا مصطلح التعليم الابتدائى لأنه يحمل فى ثناياه اشارة الى الترتيب والى أن هناك مرحلة تالية سيطلق عليها الباحث التعليم الأعلى (Further Education) والتى ستكون هى مرحلة الاعداد التربوى والمهنى للطبيب . غير انه ينبغى الاشارة الى ان تلك المرحلة الابتدائية عند المسلمين لم تكن تعنى بالضرورة ان كل الأطفال الذين تلقوا التعليم الابتدائى ينتقلون الى المرحلة التالية بل أحيانا ، كانت تلك المرحلة تعتبر تعليما اوليا اساسيا ، (Elementary Education) ينتقل الأطفال بعده الى الحياة العملية والمهنية . أى أن تلك المرحلة كانت مرحلة ابتدائية بالنسبة لبعض الأطفال ذوى الاستعدادات العلمية والعقلية ، وكانت مرحلة منتهية بالنسبة للآخرين ذوى الاتجاهات العملية والمهنية (١) .

ورغم ان الدراسة الحالية ليست المكان المناسب لعرض تربية الطفل عند المسلمين منذ ولادته وحتى دخوله مرحلة التعليم ، الا أنه ينبغى ان نذكر هنا أن ادبيات التربية الاسلامية لم تهمل طفل ما قبل التعليم بل اهتمت به فى جميع مراحل نموه : اهتمت به وليدا ، وتناولت كل ما يتعلق بغذائه رضيعا ، ونومه ، ورضاعته وفطامه ، ونظافته ، واستحمامه

ورياضته ثم تناولت مرحلة طفولته المبكرة وكل ما يتعلق بهـــا من رعاية أخلاقية وبدنية ووجدانية ، والذى يطالع ما كتبه المسلمون عن طفل ما قبل التعليم ، يدهش كيف اتهمت التربية الاسلامية بعد ذلك أنها تربية تتجاهل الطفل فى سنواته الأولى ولا تتحدث عنه ولعل فى مراجعـــة بعض كتب التراث التربوى ما يوضح للدارسين مدى احتفال المسلمين بطفل ما قبل التعليم (٢) .

وعندما نركز هنا على « التعليم الابتدائى » كمرحلة اولى فى اعـداد الطبيب نحب أن نلفت النظر منذ البداية أن هذا التعليم الابتدائى لم يكن نظاما مغلقا Closed System معلوم البداية محدد النهـاية ، ولم يكن محصورا فى مؤسسة تعليمية واحدة أو سن دراسية محددة . بل كانت تلك المرحلة مثلها مثل المرحلة القادمة نظاما مفتوحا Open System يقبل عليه الطالب عندما يشاء وينتهى منه عندما يشعر ويشعر اساتذته معه أنه أهل لذلك (٣) . وقد يقضى تلك المرحلة فى « الكتاب » أو ينتهى منها على يد مؤدب يحضر اليه فى منزله وقد تتسع مواد الدراسة وقد تضيق وقد تطول مدة الدراسة وقد تقصر كل ذلك حسب ظروف الطالب واســتعداداته . ومن ثم فانه من الخطأ أن يحاول بعض الدارسين أن يطبق أشكال « النظم المغلقة » على « التعليم الاسلامى » وسنلقى هنا نظرات سريعة على تلك المرحلة الابتدائية تبين طبيعتها ومحتواها واهدافها ووسائلها لتحقيق تلك الأهداف .

١ — مؤسسات التعليم الابتدائى :

سبق أن ذكرنا فى الفصل الأول من تلك الدراسة — أن المســلمين قد عرفوا « المكاتب » أو « الكتاتيب » لتعليم القرآن قراءة وكتابة منـذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كما يرى الباحث — وهو رأى ما زال يحتاج الى مزيد من الأدلة والتدعيم — ولكن الذى لا شـــك فيه أنهم قد عرفوا هذا « الكتاب » فى عهد عمر بن الخطاب على الأقل . يقول — ابن حزم : « ثم مات أبو بكر وولى عمر ففتحت بلاد الفرس طولا وعرضـا وفتحت الشام والجزيرة ومصر كلها ولم يبق بلد الا وبنيت فيه المساجد

ونسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمة القرآن وعلمه الصبيان فى المكاتب شرقا وغربا » (٤) . اذ من الطبيعى أن يهتم المسلمون بكتاب الله قراءة وكتابة ويتخذونه محورا لتعليم أطفالهم منذ بداية الدعوة .

ويقف الدارسون للتربية الاسلامية طويلا أمام المكان الذى كان يوجد به « الكتاب » هل كان بالمسجد ؟ أم كان مستقلا ؟ ويميل اكثرهم الى أن « الكتاب » قد بدأ فى المسجد ثم صار بعد ذلك مستقلا ، ويرون أن استقلال الكتاب عن المساجد كان بسبب عبث الصبيان الذين لا يتحفظون من النجاسة مما جعل الفقهاء يمنعون تعليم الصبيان فى المسجد ويأمرون المعلمين ان يتخذوا لهم أماكن منفصلة عن المساجد لتعليم الصبيان (٥) « يقول أحمد شلبى » : « وردت توصيات كثيرة بالا يكون الكتاب فى المسجد، ومن ذلك ما قاله الامام مالك حينما سئل عن ذلك « لا أرى ذلك يجوز لأن الأطفال لا يتحفظون من النجاسة » وقد ورد فى كتب السنة ما يؤيد ذلك فقد نصت على انه « لا يجوز تعليم الأطفال فى المسجد لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات بل يتخذ لتعليمهم حوانيت فى الدروب ، وأطراف الأسواق » (٦) . ورغم ما قاله الفقهاء فان هناك شواهد تاريخية كثيرة تؤكد أن « الكتاب » ظل أحيانا كثيرة فى المسجد . والذى يقرأ رحلة ابن جبير ، ورحلة ابن بطوطة يجد ذكر الكثير من الحلقات التى التف فيها الأطفال فى المسجد حول معلم القرآن ، وقد ذكر ابن حوقل أمثلة أخرى لهذا النوع (٧) . ويعتبر أحمد شلبى هذا تجاهلا لتوصيات الرسول وتحذيرات الفقهاء ورجال السنة (٨) . فكيف كان ذلك ؟ المتأمل فى الأمر يجد أن الكتاب ظل طوال العصور الاسلامية وحتى عصرنا الحديث غير مقتصر على مكان واحد ، فقد وجد مستقلا فى الغالب ولكن وجد فى « المسجد » أحيانا أخرى ، ولم يكن فى ذلك اهمال لتوصيات الرسول أو تحذيرات الفقهاء ورجال السنة ، ذلك أن الأطفال لهم مكانهم فى المسجد عند أداء الصلاة خلف صفوف الرجال مباشرة وقبل صفوف النساء ، مما يدل على أن وجود كتاب لهم بالمسجد لم يكن بالأمر المكروه دينيا فى حد

ذاته ، وانما تأتى الكراهة لأسباب اخرى مثل : هل يأخذ المعلم أجرا على تعليمه أم لا ؟ وهل يقتصر على تعليم القرآن أم يضم الى ذلك موضوعات أخرى ؟ وكم عدد الأطفال فى كل حلقـــة ؟ وما هو الوقت الضرورى لأداء هذا العمل التعليمى ؟ وما هو عمر الطلاب الذين يحضرون الكتاب ؟ الى غير ذلك من الأسباب التربوية التى قد تجعل من المستحسن أن يوجـــد الكتاب خارج المسجد لمصلحة الأطفال التعليمية والتربوية .

ويبدو أن عدد الكتاتيب قد ازداد زيادة سريعة وضخمة حتى أصبح بكل قرية كتاب بل ربما وجد بالقرية الواحدة اكثر من كتاب . وقد ذكر ابن حوقل انه عد حوالى ٣٠٠ معلم كتاب فى مدينة واحدة هى مدينة بلرم فى صقلية (٩) . ولا شك أن تلك الزيادة تعكس الطلب الجماهيرى عـــلى التعليم من ناحية ، وما أتيح لهذا الطلب الجماهيرى من وسائل الاشباع من ناحية أخرى . فقد أوجب الاســـلام على الآباء أن يعلموا أولادهم اذا كانوا قادرين على ذلك (١٠) ، وفى حالة عدم القدرة تحفـــــل كتب التراجم بأسماء أساتذة علموا الطلاب مجانا ، وطلاب تعلموا من الأوقاف التى كان يحبسها المحسنون من محبى العلم والمعرفة بجوار ما كان يسود المجتمع الاسلامى من شعور بالتكافل الاجتماعى بين أفراده ، مما أتاح لكثير من الطلاب أن يتعلموا على نفقة صـــــديق أو قريب أو جار .. الخ . كذلك وجدت مكاتب للأيتام والفقراء خاصة لرعاية شئونهم وتقديم « المعـــاليم النقدية والعينية » لهم ولمؤدبيهم (١١) ، وأقبل الحكام وغيرهم على انشاء تلك الكتاتيب للفقراء ، وغير القادرين حتى أن المنتصر قام بانشاء ٢٧ مكتبا فى قرطبة وحدها لتوفير التعليم المجانى لأبناء الفقراء وأوقف حوانيت السراجين ليدفع منها مرتبات المعلمين (١٢) .

بجوار هذه الكتاتيب الموجودة فى المسجد أو بجواره أحيانا والمستقلة احيانا أخرى ، وتلك المكاتب العامة التى يدفع أولياء الطلاب أجر تعليـــم أولادهم فيها وتلك التى لا يدفع الطلاب الأيتام أو الفقراء نرى شــــواهد كثيرة على أن هذا التعليم الابتدائى كان يتم أحيـــانا فى المنازل على أيدى المعلمين الخصوصيين يحضرهم الآباء من أهل اليســـــار لتعليم أولادهم

وتأديبهم . يقول ابن سينا « واحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كاد يقضى منى العجب » (١٣) . وسنرى أن ابن سينا لم يؤيد مثل هذا التعليم الخصوصى وفضل عليه أن يكون التعليم فى تلك المرحلة « تعليما جماعيا » غير خصوصى ، ونصح بضرورة تربية الطفل مع غيره لما فى ذلك من فوائد تربوية تعود على الطفل . يقول ابن سينا « وينبغى أن يكون مع الصبى فى مكتبه صبية من أولاد الجلة (العظام أو السادة) حسنة آدابهم مرضية عاداتهم فان الصبى عن الصبى القن وهو عنه آخذ وبه آنس — وانفراد الصبى الواحد بالمؤدب أجلب الأشياء لضجرهما ، فاذا راوح المؤدب بين الصبى والصبى كان ذلك أنفى للسآمة وابقى للنشاط واحرص للصبى على التعليم والتخرج فانه يباهى الصبيان ، والمحادثة تفيد انشراح العقل وتحل منعقد الفهم لأن كل واحد من اولئك انما يتحدث بأعذب ما رأى واغرب ما سمع فتكون غرابة الحديث سببا للتعجب منه والتعجب منه سببا لحفظه وداعيا الى التحدث به . ثم أنهم يترافقون ويتعاوضون الزيارة ويتكارمون ويتعارضون الحقوق ، وكل ذلك من اسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة وفى ذلك تهذيب لأخلاقهم وتحريك لهممهم وتمرين لعاداتهم » (١٤) .

وهكذا تعددت أماكن التعليم الابتدائى فهو يتم فى كتاب ملحق بالمسجد أحيانا أو مستقل أحيانا أخرى ، وقد يتم فى المنازل عن طريق معلم أو مؤدب خصوصى ، وقد يكون فى مؤسسات ذات مصروفات أو أخرى مجانية ، كل ذلك وفق ظروف الطالب وظروف المجتمع الذى يعيش فيه .

اهداف التعليم الابتدائى :

لعل اهم ما يميز التعليم الاسلامى بصفة عامة هو اختلاف هدفه عن غيره من النظم التربوية ، وهو اختلاف قلما يدرك الدارسون أهميته . فاذا كانت النظم التعليمية تتفق على هدف واحد هو اعداد المواطن الصالح ، واذا كان لكل أمة ولكل مذهب فلسفى تحديده لما هو « المواطن الصالح » فان هدف التعليم الاسلامى يتجاوز حدود المواطنة ليعد الانسان

الصـــالح الذي تعتبر المواطنة بكل متطلباتها مجرد بعد من ابعـــاده . ان التربية الاسلامية « تستهدف أولا غرس البعد العقائدى لدى الفرد . وهذا البعد العقائدى هو الأساس الذى ستبنى عليه التربية الاسلامية فيما بعد كافة الأبعاد الأخرى من عبادات واخلاق ونظم سياســـية واقتصــادية وعسكرية وصحية » .. الخ ، والذين لا يدركون مقدار أثر هذا البعـــد العقائدى على التربية يخطئون احيانا وهم يظنون أن الهدف من التعـــليم الابتدائي فى الاسلام كان هدفا دينيا بحتا ولا علاقة له بالدنيا وعمارتها . بل أن بعضهم قد ذهب الى أن التربية الاســــلامية من خلال حديثه عن الغزالي انما « هى تربية للآخرة وليست للدنيا ، تربية لمجتمع لا يتغير الا الى أسوأ ولا يسير الا الى الوراء ، وهو مجتمع لا يســيطر على نفســه ولا يوجه ذاته بقدر ما يخضع لسيطرة وتوجيه قوة خارجية عنه .. الله .. الذى خلقه ويسيطر عليه سيطرة مطلقة ، ومن ثم فهو مجتمع لا هدف له الا أن يقيم دين الله ، بأن يهيىء الفرصة لعبيده لممارســـة شـــعائر الدين » (١٥) . وكأن الهدف من اقامة « دين الله » مجرد ممارسة « الشعائر الدينية » أو العبادات بالمعنى الدينى الضيق . ونسى هؤلاء الدارســون أو لعلهم يجهلون أن اقامة دين الله يشمل كل جوانب الحياة الانسانية ، كذلك فان الخضوع لله ليس مجرد خضـــوع اعمى لســـلطة « خارجيـــة مطلقة » بل هو خضوع عاقل يحرر الانسان من جميع السلطات التى تريد أن تستبد به على الأرض .

واذا كانت أدبيات التربية الاسلامية تركز على ضرورة الاهتمام بهذا الجانب العقائدى فى تلك المرحلة وكل ما يتصل بتدعيم الايمان وتقويته فى نفس الطفل فذلك لأن هذا هو الأصل الذى تبنى عليه ســـائر الفروع والتكاليف الاسلامية . ويشمل هذا الهدف العقائدى مساحة واســعة من اهتمام الفكر التربوى الاسلامى فى تلك المرحلة بالذات . بل وسيظل من أهداف المرحلة التالية ايضا على ما سنبين فيما بعد . ان اعداد الانسان « العابد » لله بالمعنى الاسلامى الواســع للعبادة ، والذى يشـــمل كل تصرفات الانسان وسلوكه وأقواله فى تلك الحياة هو الهدف الأســـمى للتربية الاسلامية (١٦) .

وسوف ينعكس ذلك على منهج تلك المرحلة من حيث المحتـــوى ودرجة الاهتمام بكل موضوع دراسى ، وعلاقة المعلم بطلابه وعلاقته بالآباء والمجتمع والسلطة ... الخ .

مناهج التعليم الابتدائى :

سبق أن ذكرنا أن التعليم الابتدائى كان يتم فى أماكن متعددة اما داخل المســجد أو فى الكتاتيب أو فى المنازل والقصـــور ، وطبيعى أن يختلف المنهج اتساعا وضيقا باختلاف نوعية المؤسسة وباختلاف الأهداف الخاصة من هذا التعليم . ولما كانت طبيعة التعليم الاسلامى كما سبق أن ذكرنا تعليما مفتوحا (Open system) فمن الخطأ أصلا أن يصر الدارسون لهذا التعليم على وضع مراحل دراسية محددة له ، ووضع مناهج محددة لـكل مرحلة بل وربما وضع نظم امتحانات . والذى يقرأ فى أدبيات التربيـــة الاسلامية يتأكد له أنه لم توجد تلك التقسيمات العصرية الى مراحـــل تعليمية ولم توجد المتطلبات الدراسية لكل مرحلة . ولكن الطالب كان يقبل على العلم فى تلك المرحلة ليأخذ منه على قدر استعداده وما يريد له ولى أمره فى المستقبل . فهو اذن نظام تعليمى مفتوح يقوم على حرية الطـــالب وحرية أولياء الأمور فى اختيار ما يريدون من دراســـات وما يريدون من تعليم أعلى أو مجرد تعليم أولى يكسب الانسان « شخصيته الاسلامية » ثم يتجه بعد ذلك الى حرفة أو مهنة . ولذلك فان أدبيات التربية الاسلامية تذكر موضوعات عديدة يمكن دراستها فى تلك المرحلة مثل حفظ القرآن ، وبعض الأحاديث ، وتعلم الكتابة ومبادىء النحو والحســاب والشـــعر والتاريخ والقصص ... الخ . وتترك للطـــالب حرية أن يدرس منهـــا ما يشاء من موضوعات .

ولا شك أن موضوع « تعلم القرآن قراءة وكتابة » كان هو الموضوع المحورى فى هذا التعليم مهما كانت المؤسسة التى تقـــدمه ، ومهما كانت طبيعة المرحلة التعليمية القادمة . فســـــواء اتجه الطالب فيما بعد الى الدراسات الأدبية ، أو الدراسات الدينية أو الدراسات العلمية أو اتجه اتجاها مهنيا أو حرفيا .. الخ فان حفظ القرآن وتعلمه قراءة وكتابة كان

شعار التعليم الاسلامى وأهم سماته على الاطلاق . ولم يقبل المسلمون على تعليم القرآن بحماس دينى يفتقد المبررات العقلية والأسس الاجتماعية بل كان اقبالهم على ذلك بناء على ادراك سليم بأن حفظ القرآن فى تلك المرحلة يكسب الطفل الطابع الاسلامى الأصيل . يقول أحمد فؤاد الأهوانى : « وكان حفظ القرآن أو حفظ ذلك القدر اليسير منه كافيا فى طبع الأبناء على التربية الاسلامية الصحيحة ، فالقرآن ديوان المسلمين فيه جوهر العقيدة وفيه تفصيل العبادات وفيه ارشاد للسلوك الفاضل والطريق المستقيم » (١٧) . ويوضح ابن خلدون ذلك بقوله : « اعلم أن تعلم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم لما يسبق منه الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الحديث . وصار القرآن أصل التعليم الذى تبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات وسبب ذلك أن التعليم فى الصغر أشد رسوخا وهو أصل مابعده ... لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون ما ينبنى عليه » (١٨) . لذلك حرص المسلمون حرصا بالغا على أن يبدأ الطفل بحفظ القرآن وخشوا أن ينشغل بأى موضوع آخر ، أو ينصرف عن التعليم كلية دون أن يحفظ جزءا مناسبا منه . يقول ابن خلدون : « ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن ايثارا للتبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد فى جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن ، لأنه ما دام فى الحجر — لم يصل الى سن البلوغ — منقاد للحكم ، فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة — عدم التعليم — فيغتنمون فى زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه » (١٩) والذين يحاربون « حفظ القرآن » من رجال التربية المعاصرين فى تلك المرحلة بدعوى عدم ادراك الطفل لمعانى القرآن ، أو حتى عدم جدوى حفظه فى تلك المرحلة المبكرة (٢٠) ، لا يدركون ظروف المجتمع الاسلامى الثقافية التى جعلت من حفظ القرآن أهم الموضوعات على الاطلاق ، كذلك فانهم للأسف نادرا ما يدركون ما يمثله حفظ القرآن

بالنسـبة للمتعلم ، اذ أن حفظه فى صغره سيمده فيما بعد بالنبع الثقافى الثرى الذى سيستمد منه شواهده ، وأدلته على ما سيصادفه من مشكلات عقلية وفكرية .

وبجوار تعليم القرآن الذى هو محور المنهج الإسـلامى فى تلك المرحلة تعتبر العبادات الاسلامية محورا آخر من هذا المنهج . فالطفـل لابد أن يتعلم كيف يؤدى ما كلف به من عبادات ، وعلى المعلم مراعاة ذلك فيعلم الأولاد الصلاة والوضوء لها وآدابها وأحكامها ويدربهم على الصيام عندما يطيقون ويأمرهم بالصلاة اذا كانوا بنى سبع سنين ويضربهم عليها اذا كانوا بنى عشر (٢١) ، ويراقب احوالهم فى آدابهم وهديهم وأخلاقهم باطنا وظاهرا فمن صدر منه من ذلك ما لا يطيق عالجه المعلم بما يتناسب من تأديب أو زجر أو لوم أو عقاب (٢٢) .

ثم يأتى بعد ذلك ضرورة أن يتعلم الطفل الكتابة والأدب ومبـادىء النحو والحساب والحديث والتاريخ والسير ، ويؤكد المربون المسلمون على ضرورة اختيار الأشعار السهلة التى قيلت فى فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهـل وما حث على بر الوالدين واصطناع المعروف (٢٣) وأن نبعـد عن الطفل أشـعار الهزل والمجون فانها تغرس فى نفوس الأطفـال بذور الفسـاد (٢٤) ، وكذا الأشـعار التى فيها ذكر الحمية والخنا أو قبح الهجاء (٢٥) ، فالهدف الأخلاقى منها واضح فى اختيار النصوص بجـوار الهدف الأدبى الذى يتمثل فى اكتساب الطفل ملكة اللغة ، واستخدام تلك الأشعار للاستشهاد بها فيما يريد بيانه (٢٦) ، أما سيرة الرسول والصحابة واحاديث الأخيار وحكايات الأبرار واحوالهم فهى تغرس فى نفس الطفل حب الصالحين ومحاولة تقليدهم (٢٧) ، يقول الأهوانى : « وسـيرة الرسول هى قدوة المسلمين كما قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وقال : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » لذلك كان تعليم سيرة الرسول ذات فائدة خلقية عظيمة لأنه يضرب الأمثال للصـبيان فى الأخلاق الفاضـلة وكذلك تاريخ العرب وهو المعروف بأيام العرب وأخبـارهم والذى نص عليه القابسى

وغير القابسى من المربين مع المواد التى يتعلمها الصبيان انما الغرض منه سوق العبر الفاضلة والعظات الخلقية التى يقتدى بها الصبيان (٢٨) .

والذى لا شك فيه ان الطفل المسلم لم يكن مجبورا على أن يدرس كل هذه العلوم والمعارف بل كان ينال منها ما يستطيع أن يحصله ، واذا استثنينا حفظ القرآن وتعلم الكتابة والعبادات الاسلامية فهناك ما يؤكد أن الطفل المسلم كان ياخذ من المواد الأخرى وفق اختياره ، ولم تذكر أدبيات التربية الاسلامية انها كانت جميعا اجبارية ، وعلى سبيل المثال فان المحدثين والفقهاء كانوا يرون أن الركن الاساسى فى التعليم الابتدائى هو تعلم القرآن وكانوا يكتفون به كشرط لقبول الطلاب فى حلقاتهم (التعليم الأعلى) .

وعندما كان الأوزاعى يرى حدثا بين الجالسين فى حلقته كان يقول له : يا غلام : هل قرأت القرآن ؟ فان قال نعم ، اختبر حفظه ، فان تبين له انه لا يعرف القرآن قال له : اذهب تعلم القرآن قبل أن تطلب العلم (٢٩) . واذا كان الفقهاء والمحدثون قد اكتفوا بذلك فلعل الادباء والأطباء والحكماء .. الخ لم يكتفوا به ، بل من الطبيعى أن يفضل الادباء من حصل حظا من الأدب والشعر ، وأن يتطلب الأطباء والحكماء دراية أكبر بالحساب .. الخ ، ومن ثم فان المنهج كان يضيق ويتسع وفق ارادة الطالب وولى أمره وما يراه المعلم من استعدادات لدى الطفل . وليس بصحيح ما ذهب اليه محمد جواد رضا من أن منهج هذه المرحلة كان واحداً لجميع الأطفال فى العصر الاسلامى الأول ثم أصبح مختلفا بعد ذلك فى العصر الأموى والعصر العباسى بصورة خاصة وذلك بسبب ظهور التمايز الطبقى فى التعليم ، حيث ظهر بسبب هذا التمايز الطبقى مناهج متعددة فى تلك المرحلة : فهناك منهج الكتاتيب التى تضم أبناء الطبقات المتوسطة وسواد الشعب ، ويقتصر على تعليم القراءة والكتابة والحساب وبعض الشعر ، وهناك منهج التعليم المخصوص فى المنازل والقصور والذى يتمتع به أبناء الأمراء والاغنياء والوزراء ، ويتسع هذا المنهج ليشمل الأدب والحكمة والتفسير والكلام والشعر والتاريخ والمنطق

والفلسـفة ، ثم هناك منهج تعليم الطبقات الحاكمة أبناء الخلفـاء وولاة العهد الذى يشمل الاطلاع الواسع فى الثقافة العربية والاسلامية وآدابها وكلام الملوك والحكماء وعلوم الأمم السـالفة ، وقد تميز منهج تلك الفئة كما يذكر الباحث بدرجة عالية من التعقيد من حيث المحتوى والهدف نظرا للمسئوليات الاجتماعية والسياسـية التى كان يهيأ لها هذا النوع من الطلاب (٣٠) . والأقرب الى الواقع التاريخى لتطور الثقافة الاسـلامية الا ننسب تعدد المناهج فى تلك المرحلة الى « التمايز الطبقى » وما يقترن به من عوامل اقتصادية ، بل ان ارجع ذلك الى ازدهار العلوم والمعـارف الاسـلامية ، وما اقترن بذلك من ضرورة الاخـذ بمبدأ التخصص العلمى والتربوى ، ونظرة واحدة الى كتاب مثل مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زادة ، أو الفهرست لابن النديم او كشف الظنون على اسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة ترينا مقدار ما وصلت اليه الثقافة الاسلامية من تعدد العلوم والمعارف فى تلك العصور بحيث أصبح من المحال أن يلم الطالب بكل هذه العلوم والمعارف ، واصبح من الضرورى أن يتخصص الطالب فى فرع او اكثر من فروع العلم الاسلامى (٣١) . ومن هنا ظهرت الاتجاهات والمدارس التربوية المختلفة فهناك الاتجاه الفقهى فى التربية ، وهناك الاتجاه الفلسفى والاتجاه الصوفى ، والاتجاه الأدبى ، والاتجـاه المهنى والفنى ، وطبيعى ان يختلف اعداد الأديب عن اعداد الطبيب عن اعداد الفقيـه .. الخ ، وطبيعى أن يؤثر ذلك الاختلاف على اختيـار موضوعات المرحلة الابتدائية كما سبق ان ذكرنا . نعم ، نحن لا ننكر أن العامل الاقتصادى والاجتماعى قد لعب دورا فى اتاحة الفرص التعليمية الأفضل لذوى الاستعدادات العلمية والعقلية من ابناء ذوى السلطة أو الثروة ، ولكن « كتب التراجم » تظهر أن أعلام الثقافة الاسلامية لم يكونوا فى الغالب من أبناء الملوك والوزراء والحكام أو حتى من ابناء ذوى الثروة والمكانة ، بل كانت الغالبية العظمى منهم من ابناء الطبقات المتوسـطة وسواد الشعب التى زعم محمد جواد رضا أنها حرمت من التعليم الغنى فى محتواه وهدفه ومناهجه .

ويذكر لنا ابن خلدون سببا آخر لاختلاف المنهج فى تلك المرحلة ويتمثل

هذا السبب فى اختلاف الأقطار الاسلامية فى نظرتها الى طبيعة المنهج ، والموضوعات التي تستحق التركيز : « أما أهل المغرب فمذهبهم فى الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط واخذهم فى اثناء الدراسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه ولا يخلطون ذلك بسواه فى شىء من مجالس تعلمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من كلام العرب الى أن يحذق فيه » بينما أهل الأندلس « يضيفون الى ذلك رواية الشعر والترسل (النثر) وقوانين العربية وحفظها (النحو) وتجويد الخط والكتابة ، ويهتم اهل افريقية بتعليم شىء من الحديث فى الغالب بجوار تعليم القرآن »(٢٢)، وهكذا اختلف محتوى المنهج باختلاف الأمصار ، واختلاف التوجيه التربوى والمهنى للطلاب .

طريقة التدريس :

راينا كيف يمثل القرآن وحفظه ، الموضوع الأول للتعليم فى تلك المرحلة وكان التلاميذ قبل تعلمهم للقراءة سواء فى الكتاب او المنزل ، يبدأون بحفظ السور القصيرة بطريقة التلقين والتكرار ، فالمعلم يقرأ السورة آية آية قراءة سليمة ، والطفل يردد وراءه ، ويكرر المعلم ذلك مرات كثيرة حتى يحفظ الطفل (٣٣) ، وكانت تلك القراءة تتم بطريقة جهرية حتى يتأكد المعلم من أن الطفل قد حفظ الآيات حفظا مضبوطا صحيحا ، وكذلك لأن الجهر « يوقظ القارىء ويجمع همه الى الفكر ويصرف سمعه اليه ويطرد النوم ويزيد فى النشاط » (٣٤) ، وينبه علماء التربية المسلمون الى ضرورة أن تتم عملية التحفيظ بصورة فردية ، لأن اجتماع الأطفال على القراءة يخفى على المعلم قوى الحفظ من الضعيف (٣٥) ، والقراءة الفردية تلاحظ تلك الفروق وترعاها ، كذلك فان اختبار مقدار حفظ الأطفال ينبغى أن يتم بصورة فردية ، وذلك بأن يختبر المعلم كل طفل فى مقدار حفظه ليعلم مقدار ما اصابه الطفل من حفظ أو تقصير (٣٦) ، وبذلك كان كل طفل يجد الرعاية التربوية المناسبة له .

وعلى ضوء تلك « المتابعة الفردية » كانت تختلف الواجبات الدراسية لكل طفل من حيث عدد الآيات المكلف بحفظها كل يوم ، وعدد مرات كتابة اللوح ... الخ .

ثم تأتى مرحلة يطلب من الطفل أن يتعلم الكتابة ، ويظن بعض الدارسين أن الأطفال كانوا يتعلمون الكتابة عن طريق كتابة الحزب الذى سيحفظه فى اللوح الخاص به (٣٧) ، ولكن أدبيات التربية الاسلامية تذكر لنا طريقتين من طرق تعلم الكتابة ، الطريقة الأولى باستخدام ما يسمى برسم المصحف . وغاية تلك الطريقة : حفظ المصاحف الكريمة عن مخالفة المصحف الامام ، ذلك أن المسلمين كانوا يصرون على عدم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو الف أو غير ذلك ، كذلك « فان القرآن لابد أن يكتب مفرجا بأحسن خط ولا يصغر ولا تقرمط حروفه ولا يخلط به ما ليس منه » (٣٨) . اى أن تعليم الكتابة حسب تلك الطريقة كان يتم باستخدام « النص القرآنى » مع المحافظة على رسم المصحف من ناحية ، وتجويد الخط وتحسينه من ناحية أخرى .

وبجوار تعليم الكتابة عن طريق « النص القرآنى » أو رسم المصحف اشارت أدبيات التربية الاسلامية الى طريقة أخرى تستخدم الأدب لتعليم الكتابة ، ولقد لمعت أعلام فى تعليم الخط وتحسينه فى أواخر خلافة بنى أمية وأوائل خلافة بنى العباس مثل أبى على محمد بن على بن حسن بن مقلة الوزير (ت ٣٢٨) الذى قيل عنه أنه « أول من كتب الخط البديع » ثم ظهر فى سنة (٤١٣) صاحب الخط البديع على بن هلال بن البواب البغدادى الذى قيل عنه أنه « لم يوجد فى المتقدمين ولا فى المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه » وصنف حذاق الخطاطين رسائل كثيرة فى طرق تحسين الخط مثل رسالة ياقوت المستعصمى وما أورده القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » عن تحسين الخط (٣٩) ، وبذلك أصبح تعليم الكتابة فنا من الفنون له معلموه ، وله طرقه الخاصة : « ومبنى هذا الفن الاستحسانات الناشئة من مقتضى الطباع السليمة ، ويختلف بحسب الألف والعادة والمزاج بل بحسب كل شخص شخصى وغير ذلك مما يؤثر فى استحسان الصور واستيضاحها ولهذا يتنوع هذا العلم بحسب قوم قوم بل شخص شخص ، ولهذا لا يكاد يوجد خطان متماثلان فى كل الوجوه » (٤٠) ويبدو أن الطريقة الأولى فى تعلم الخط كانت شائعة فى بلاد المغرب وافريقيا بينما ذاعت الطريقة الثانية فى بلاد المشرق

والأندلس (٤١) ، كذلك حفظ الأطفال بعض الأحاديث التى تتناول اصول الدين وفضائل الاسلام وطلب العلم ومنزلة القرآن .. الخ ، وبعض الأشعار المختارة وتدربوا على ايرادها فى المناسبات المختلفة (٤٢) ، وقصت عليهم حكايات الصالحين ، واخبار الأنبياء وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت هذه الأمور متداولة أما عن طريق « الحكاية الشفهية » أو عن طريق القراءة من كتب عدة مثل « صفوة الصفوة » لابن الجوزى ، وروض الرياحين فى حكايات الأبرار والصالحين لليافعى ، وقصص الأنبياء لابن الجوزى وسيرة ابن هشام وسيرة محمد بن اسحاق وغير ذلك من المؤلفات (٤٣) .

كذلك تدرب الأطفال على العمليات الحسابية ، من الجمع والتفريق والتناسب والضرب والقسمة ، وشعر المربون المسلمون بأهمية الحساب للمتعلم فى « ضبط المعاملات وحفظ الأموال وقضاء الديون وقسمة التركات بين الشركاء وغيرها ، ويحتاج اليه فى العلوم الفلكية وفى المساحة والطب، وقيل : يحتاج اليه فى جميع العلوم ، وبالجملة لا يستغنى عنة ملك ولا عالم ولا سوقة ، وزاد شرفا بقوله تعالى : « وكفى بنا حاسبين » (الأنبياء آية ٤٧) وقوله تعالى : « ولتعلموا عدد السنين والحساب » (يونس : آية ٥) ، وقوله تعالى : « فاسأل العادين » (المؤمنون آية ١١٣) (٤٤) . وقد يدرس الطفل الى جوار ذلك بعض قواعد اللغة (النحو) لكى يحترز عن الخطأ فى تطبيق التراكيب العربية على ما يصدر عنة من بيان كتابى أو شفهى ، اذ أعتبروا الجهل بمبادىء النحو الأساسية « لحنا » يستدعى الضحك والسخرية (٤٦) .

وبجوار ذلك كله فان المعلم لابد ان يراقب أحوال طلابه فى آدابهم وهديهم وأخلاقهم وعباداتهم حتى لا يتبادر اليهم مساوىء الأخلاق وتتمكن منهم قبائح العادات ، ويصعب بعد ذلك مفارقتها ، وتؤكد أدبيات التربية الاسلامية على هذا الجانب الأخلاقى ، وترى أن سوء الأخلاق مؤثر على قدرة الطالب على تحصيل العلم والمثابرة على طلبه ، يقول الزرنوجى : « وينبغى لطالب العلم أن يحترز عن الأخلاق الذميمة فانها كلاب معنوية ،

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة » وانما يتعلم الانسان بواسطة ملك » (٤٧) . فكأن العلم فى تصور الزرنوجى لا يستقيم مع سوء الخلق ، ويرى الزرنوجى أن نعلم الطفل أيضا الآداب والسنن ولا نكتفى بالفرائض فقط ، لأن التهاون فى السنن قد يؤدى الى التفريط فى الواجبات ، يقول الزرنوجى : « فينبغى لطالب العلم أن لا يتهاون بالآداب والسنن ، ومن تهاون بالأدب حرم السنن ، ومن تهاون بالسنن حرم الفرائض ، ومن تهاون بالفرائض حرم الآخرة » (٤٨) ، ويرى عن الشافعى قوله : (٤٩)

شكوت الى وكيع سوء حفظى .·. فأرشدنى الى ترك المعاصى
واخبرنى بأن العلم نور .·. ونور الله لا يهدى لعاصى

وتتحدث أدبيات التربية الاسلامية عن الوسائل المختلفة التى ينبغى للمعلم أن يتبعها مع طلابه لكى يتأكد من تقدمهم العلمى والأخلاقى فى حدود قدرة الطالب ورغبة ولى أمره : فهناك الترغيب والترهيب والايناس والايحاش والاعراض والاقبال والحمد مرة والتوبيخ مرة أخرى ما كان ذلك واقيا ، فان احتاج (المعلم) الى الاستعانة باليد لم يحجم عنه وليكن أول الضرب قليلا موجعا كما أشار به الحكماء قبل — بعد الارهاب الشديد واعداد الشفعاء — فأن الضربة الأولى اذا كانت موجعة ساء ظن الصبى بما بعدها واشتد منها خوفه ، واذا كانت الأولى خفيفة غير مؤلمة حسن ظنه بالباقى فلم يحفل به » (٥٠) ، كما يقول ابن سينا والواقع أن أكثر أدبيات التربية الاسلامية تسمح باللجوء الى العقاب الجسمانى (الضرب) بعد استنفاد الوسائل الأخرى وان كانت تضع له بعض الحدود والشروط مثل : الا يضرب المعلم وهو غاضب ، حتى لا يكون الضرب لمجرد التشفى ويتجاوز دوره التربوى ، وأن يكون الضرب فى مكان مأمون من جسم الطفل ، وأن يستخدم المعلم درة رطبة لينة ، وأن يكون الضرب من ثلاث الى عشر لا تزيد عن ذلك ... الخ (٥١) .

سن التعليم ومدته :

متى يبدأ الطفل فى التعلم ؟ حاول بعض الباحثين ان يحدد السن التى بدأت فيها عملية التعليم — فذهب ابراهيم سلامة عند تناوله للتعلم عند الزرنوجى ان الطفل بعد أن يتلقى التعليم فى المنزل يذهب الى الكتاب فى السابعة من عمره واستشهد على ذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « علموا أولادكم الصلاة اذا كانوا بنى سبع وأضربوهم عليها اذا كانوا بنى عشر » (٥٢) . وواضح أن الحديث لا يستنتج منه ضرورة أن يبدأ التعليم فى السابعة ، وهناك شواهد كثيرة من كتب التراجم على أن الطفل كان يبدأ التعليم قبل ذلك بكثير ، فهذا ابن عبد الله التسترى حفظ القرآن وعمره ست او سبع سنوات ، والامام الشافعى حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين (٥٣) مما يدل على انهم بدءوا التعليم قبل ذلك بكثير ، وابن سينا يذكر عن نفسه انه بدأ التعليم فى السادسة من عمره « فلما بلغت السادسة اسلمت نفسى للتعليم » واعتمد ابن سينا على تجربته الشخصية فنصح بان يبدأ الطفل التعليم فى هذه السن فقال : « واذا أتى عليه (الطفل) من أحواله ست سنين فيجب أن يقدم الى المؤدب ، والمعلم » ورأى انها سن مناسبة فيها « تشتد مفاصل الصبى ويستوى لسانه ويتهيأ للتلقين ويعى سمعه » (٥٤) . مما سبق يتضح انه لم يكن هناك سن معينة يبدأ عندها الطفل فى التعليم وانما كان الأمر متروكا لتقدير آباء الصبيان فاذا وجدوا أن الطفل بدأ فى التمييز والادراك دفعوا به الى « الكتاب » أو « المؤدب » . يقول أبو بكر بن العربى فى ذلك : « وللقوم فى التعليم سيرة بديعة وهو أن الصغير منهم اذا عقل بعثوه الى المكتب » (٥٥) . فالمعيار لم يكن تحديد سن معينة فيها يبدأ التعليم بل اختلف ذلك باختلاف نضج الصبيان وتقدمهم فى الفهم والتمييز . ولقد ظل علم النفس التربوى مدة طويلة يرى أن السادسة هى سن النضج المناسبة لبداية التعلم ، ولكن تغيرت تلك النظرة ورأينا بلادا مثل انجلترا يبدأ التعليم فيها من الخامسة ، مما يؤكد على أن الاستعداد للتعليم ليس مرتبطا بسن محددة بل له عوامل متعددة ترجع الى الفروق الفردية بين الأطفال فى معدل النمو والظروف الثقافية التى يعيش فيها كل طفل .

واذا كانت التربية الاسلامية لم تحدد سنا لبداية التعليم وتركت ذلك لتقدير الآباء والمعلمين فانها لم تحدد أيضا عدد الســـــنوات التى لابد ان يقضيها الطفل فى تلك المرحلة . وليس صحيحا ما ذهب اليه الأهوانى أن الثانية عشرة كانت هى السن التى ينتهى عندها تعليم الصبى فى الكتاب فى الغالب . وقد اعتمد فى ذلك على نص للقابسى يقول فيه : « وانه ينبغى للمعلم أن يحترس بعضهم من بعض اذا كان فيهم من يخشى فســاده بأن يناهز الاحتلام أو تكون له جرأة » . فقد أخذ من هـــذا النص أن قلة من الصبيان كان يظل فى الكتاب حتى سن الاحتلام الذى يتراوح عند الذكور بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة أما أغلب الصبيان فقد كان ينتهى من حفظ القرآن قبل ذلك . ورأى الأهوانى مبنى على أن التعليم يبدأ فى السادسة ، وأن أهم ما كان يعلم فى الكتاب هو حفظ القرآن ، فاذا بدأ الصبى فى تعلمه فى سن السادسة مثلا فانه يحتاج الى أربع سنوات أو الى خمس ليتم حفظ القـــرآن وهو المعروف بالختمـــة (٥٦) . ولكن شواهد « التربيـــة الاسلامية » تدل على خلاف ذلك من عدم تحديد بداية سن التعليم ، وعدم تحديد نهاية تلك المرحلة الابتدائية فقد كان ذلك يتوقف على استعدادات الطفل وامكاناته العقلية ، ويتوقف على ما يريده الطفل أو ولى أمره بعد ذلك من أنواع التعليم . ولم تكن هناك عوائق تحول دون الطفل النجيب وبداية التعلم مبكرا ، أو الانتهاء منه فى سن متقدمة ، فهذا قتادة يحفظ القرآن كله فى سبعة أشهر ، وهذا عبد الله التسترى يحفظه وعمره ست أو سبع سنوات ، وتاج الدين الكندى يكمل القراءات العشر وله عشرة أعوام ، والامام الشافعى يحفظ القرآن وهو ابن ســـبع ســـنين ثم يحفظ الموطأ ويستوعب مسائل الفقه حتى يقال له وهو ابن خمس عشرة سنة : أفت يا أبا عبد الله فقد والله آن لك أن تفتى ، وكان سفيان بن عيينة اذا جــاءه شىء من الفتيا أو التفسير التفت الى الشافعى وقال : سلوا هذا الغلام . أما ابن سينا فقد حفظ القرآن وشيئا من الأدب ومن أصول الدين وحساب الهندسة والجبر والمقابلة فى العاشرة من عمره (٥٧) وسواء كانت الدراسة فى الكتاب أو على يد المعلم الخاص « فقد كان الطفل يمضى فى دراســــته الى حيث يحمله استعداده وامكانياته التعليمية ، وكان يتخرج من الكتاب

أو على يد المعلم الخاص حينما كان يكمل ما كان يتوقع من الطلاب اكماله اعتياديا حسب تقدير المعلم » (٥٨) .

المعلم :

اهتمت أدبيات التربية الاسلامية اهتماما كبيرا بشخصية المعلم ورفعت من منزلته ورأت أن وظيفته من أشرف الوظائف ، ذلك أن أشرف مخلوق على الأرض هو الانسان والمعلم مشتغل بتعليم هذا الانسان ، وتهذيبه وارشاده ومن ثم فان وظيفته هى أشرف المهن وأفضلها على الاطلاق (٥٩) . وقد تناولت تلك الأدبيات ما ينبغى أن يكون عليه المعلم من خلق وعلم وورع ، وحددت واجباته نحو طلابه ، وواجبات طلابه نحوه بصورة مفصلة وأوجبت له من الاحترام والتوقير ما هو أهل له (٦٠) . يقول الزرنوجى : « اعلم أن طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به الا بتعظيم العلم وأهله ، وتعظيم الأستاذ وتوقيره ومن توقير المعلم أن لا يمشى أمامه ، ولا يجلس مكانه ، ولا يبتدىء بالكلام عنده الا باذن ، ولا يكثر الكلام عنده ولا يسأل شيئا عند ملاقاته ويراعى الوقت ولا يدق الباب بل يصبر حتى يخرج الأستاذ ، فالحاصل أن يطلب رضاه ويجتنب سخطه ويمتثل أمره فى غير معصية الله تعالى فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق (٦١) . ولذلك أدرك المربون المسلمون مبكرا كيف أن المعلم لا يمكن أن يقوم بدوره الا اذا نال ما يستحق من عناية واحترام وأن المعلم الذى يفتقد الشعور بالحرية والكرامة الشخصية لا يمكن أن يكون ذا تأثير ايجابى على الطلاب ، اذ أن فاقد الشىء لا يعطيه ، كذلك فان الطالب الذى يتأذى منه أستاذه « يحرم بركة العلم ولا ينتفع بالعلم الا قليلا » ويروون فى ذلك : (٦٢)

ان المعلم والطبيب كلاهما .·. لا ينصحان اذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه .·. واقنع بجهلك ان جفوت معلما

وقد نال المعلم فى التربية الاسلامية ما يستحق من عناية ورعاية مادية وأدبية بما فى ذلك معلم الكتاب أو « المؤدب الخصوصى » وتحفل أدبيات التربية الاسلامية وكتب التراجم بصور كثيرة من تلك العناية

والرعاية والتبجيل ، والتى وصلت أحيانا الى حد المبالغة ولكنها تعكس لنا روح العصر ، ومقدار توقير المعلم فى المجتمع الاســـلامى . ومن ذلك ما حكى أن الخليفة هارون الرشيد بعث ابنه الى الأصمعى ليعلمه الأدب فرآه يوما يتوضأ ويغســــــل رجله وابن الخليفة يصب الماء على رجله ، فعاتب الأصمعى بقوله : « انا بعثته اليك لتعلمه وتؤدبه فلماذا لم تأمره بأن يصب الماء باحدى يديه ويغسل بالأخرى رجلك » (٦٣) .

ويرى بعض الدارسين أن « معلم الكتاب » لم يتمتع بهذا التقـــدير والاحترام ، وانما كان ذلك من نصـــيب معلمى المعـــــاهد العليــــــا ، ويستشهدون على ذلك ببعض ما رواه الجاحظ عن ســــــوء تقدير الناس لبعض معلمى الكتاتيب فى عصره ويردون ذلك الى قلة بضـــــــاعة هؤلاء المعلمين فى العلم أو ما اشتهر عنهم من جشـــع وحرص على اســـتغلال الوظيفة (٦٤) . بينما نجد باحثا آخر يرى أن « معلم الكتاب » لم يكن أهلا للاحترام والتقدير نتيجة « للتمايز الطبقى » الذى شهده المجتمع الاسلامى فى العصرين الأموى والعباسى ، وما ترتب على هـــذا التمايز الطبقى من طبقية فى التعليم بحيث أصبح هناك تعليم للأغنياء وآخر للفقراء وأبنـــاء الطبقات المتوسطة وطبيعى أن يجتذب تعليم الأغنياء أفضل العناصر من المعلمين الذين ينالون كل التقدير والاحترام المادى والأدبى ، أما معلمـــو الفقراء وسواد الشعب (معلمو الكتاتيب) فهم يمثلون أوطأ درجات السلم المهنى ثقافيا واجتماعيا يقول هذا الباحث : « كان التعليم فى البداية واحدا لجميع الأطفال ، وكان المعلمون فى جميع المراتب يتمتعون باحترام عظيم وقد استمر معلمو المعاهد العليا يتمتعون بهذا الاحترام حتى النهاية ، غير أن منزلة معلم الكتاتيب هبطت مع مرور الزمن الى الدرجات السفلى من المراتب الاجتماعية . وكان سبب ذلك ظهور التمايز الطبقى فى التعليم فى العصر الأموى وفى العصر العباسى بصـــورة خاصـــة . اذ لم يعد الآباء المقتدرون ماليا يرسلون أولادهم الى الكتاتيب بل صاروا يستأجرون لهـــم المعلمين الخصوصيين . من هنا انقسم المعلمون الى ثلاث طبقات اجتماعية متميزة : أولها معلمو الكتاتيب الذين كانوا يقومون بتعليم الطبقات المتوسطة

وسواد الشعب وكانوا يمثلون أوطأ درجات السلم المهنى ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ، وثانى هذه الطبقات ، معلمو ابناء الطبقات العليا فى المجتمع : الأمراء والوزراء والأغنياء وكان هؤلاء يدعون « بالمؤدبين » على حين كان اعضاء الطبقة الأولى يسمون المعلمون . أما ابناء الخلفاء وولاة العهد فكان لهم معلموهم الخاصون بهم ، وكان هؤلاء من العلماء الأعلام ذوى الاطلاع الواسع فى الثقافة العربية والاسلامية وآدابها وكلام الملوك والحكماء وعلوم الأمم السالفة وكانوا بهذا يمثلون ذروة المهنة التعليمية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا وقد سموا بحق « كبار المؤدبين » وكان منهم سيبويه والكسائى والأصمعى » (٦٥) .

والواقع أن هذا التفسير الطبقى لمنزلة المعلم ونوعيته واعداده تفسير لا يستقيم مع الواقع التربوى الاسلامى . والا فهل كان الضحاك ابن مزاحم (١٠٥ هـ) والكميت بن زيد (١٢٦ هـ) وعبد الحميد الكاتب (١٣٢ هـ) وغيرهم من الأسماء اللامعة فى المجتمع الاسلامى والذين كانوا معلمى كتاتيب (٦٦) هل كانت مثل هذه الاسماء تحتل أوطأ السلم المهنى ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ؟ وهل هناك أدلة على أن هؤلاء العلماء الأعلام ذوى الاطلاع الواسع فى الثقافة العربية الاسلامية وآدابها وكلام الملوك والحكماء وعلوم الأمم السالفة أمثال سيبويه والكسائى والأصمعى ممن يذكرهم الكاتب ، قد اختصوا بالفعل بتعليم أبناء الخلفاء وولاة العهد فقط دون أن يكون لهم بجوار ذلك حلقاتهم العامة التى انتظمت من سماهم الباحث أبناء الطبقات المتوسطة وسواد الشعب ؟ الواقع أن الشواهد التعليمية الكثيرة تؤكد خلاف ذلك تماما . فقد نال معلم الكتاب ، ومعلم الأدب ، ومعلم الخط ما يستحقونه من الاحترام ، وظلوا متمتعين بتلك المنزلة فى عالمنا الاسلامى الى وقت قريب ، ولعلهم لم يعانوا شيئا من الهوان الا فى ظل الاتجاهات العلمانية ، وموجات الاستعمار والتغريب التى جرفت العالم الاسلامى خلال القرن التاسع عشر وما بعدها ، اذ أصبح احتقار معلم اللغة العربية والقرآن سياسة عامة ليس على مستوى المرحلة الابتدائية فقط بل وعلى جميع المستويات التعليمية (٦٧) .

ادارة التعليم وتنظيمه وتمويله :

ولعل اكثر الدراسات التى تناولت ادارة التعليم الاسلامى وتنظيمه وتمويله قد تناولته وهى متأثرة بالنظم المعاصرة ، ولم تستطع أن تدرك الفارق الكبير بين نظام ادارى وسياسى يقوم على القيادات التلقائية الشعبية فى الادارة وفى تقديم الخدمات Public Service (النظام الاسلامى) ، ونظام آخر يقوم على القيادات القانونية التى تتدخل السلطات فى تنصيبها ومن ثم يكون لها يد فى توجيهها وتبديلها (النظم الوضعية) (٦٨) ، ان التعليم كخدمة عامة Public Service قد قام بها المسلمون انفسهم نحو أولادهم وهم الذين أشرفوا عليه تنظيما وادارة وتمويلا ، ولم تتدخل الدولة فى ذلك الا ما ورد من انشائها للكتاتيب الخاصة بالأيتام ، وتكليفها « رجال الحسبة » بمراقبة الكتاتيب للتأكد من أن المعلم « لا يدرس الا لعدد محدود من الصبيان ، فاذا كثر التلاميذ أمروه أن يعين مساعدين له يتناسب عددهم مع عدد التلاميذ بحيث يكون لكل فقيه عدد قليل من الصبيان ». قال ابن عبدون : ويجب للمؤدب ألا يكثر من الصبيان ، ويمنعون من ذلك فانه لن يستطيع أن يعلمهم شيئا على ما ينبغى » (٦٩) ، وأما ما وراء ذلك فقد ظل التعليم الاسلامى بجميع مراحله ، شأنا من شئون الأفراد لا تتدخل الدولة فى رسم سياسته أو متابعة برامجه أو الصرف عليه ، تلك هى القاعدة العامة أما الاستثناء فهو وارد ايضا فى كتب التربية الاسلامية ، عندما استخدمت الدولة الفاطمية الأزهر مثلا لنشر مذهبها الشيعى ، وعندما استخدم صلاح الدين الأيوبى « المدارس » لنشر المذهب السنى (٧٠) ، ولكن مع وجود هذه الشواهد التاريخية على تدخل الدولة فى التعليم الاسلامى فقد ظل هذا الاتجاه محدود التأثير ، وظل التعليم الاسلامى بصفة عامة ، والتعليم الابتدائى بصفة خاصة تعليما شعبيا ينظمه الشعب ويموله بعيدا عن تدخل الدولة .

واذا كانت الدولة الاسلامية لم تضع النظم التعليمية المحددة ولم تتحكم فى ادارة التعليم وطابع الدراسة ومناهجها وتركت ذلك ليكون شأنا

من شئون الأفراد ـ الا أن ذلك لم يمنعها من تشجيع التعليم بصفة عامة ، والعمل على تيسيره وتسهيله ، لقد كانت تمده فعلا بالمساعدة والتوجيه القوى الشامل عن طريق تقديم مكافآت للعلماء ، وتفريغ بعضهم لتثقيف الجماهير فى المساجد ، وفتح مؤسسات تربوية لغير القادرين على التعليم (مكاتب الفقراء والأيتام) وتقديم تسهيلات علمية (المكتبات) وانشاء مؤسسات متخصصة بفروع معينة من العلوم والمعارف (مثل المدارس والبيمارستانات) الى غير ذلك من ضروب تشجيع العلم وتيسيره وتسهيله والتى مارسها الخلفاء والحكام المسلمون عبر العصور ، أى أن الدولة الاسلامية كانت تمارس صورا متعددة من تشجيع التعليم وتيسيره ولكنها نادرا ما تدخلت تدخلا مباشرا فى ادارة التعليم وتنظيمه ، وفارق كبير ما بين التشجيع والتيسير وبين احكام الرقابة والسيطرة الادارية والتنظيمية على التعليم ، ولقد اعتمدت الدولة فى ذلك على « الروح الاسلامية » العامة التى تدفع المسلم الى طلب العلم وتحثه على ذلك من المهد الى اللحد ، واعتمدت على الروح الاسلامية الجماعية التى تحث الأفراد على التعاون فيما بينهم للقيام بالخدمات العامة ورعاية مصالح الآخرين .

فتعاليم الاسلام تدفع الناس الى ضرورة تعليم أولادهم ، وتدفع المعلمين الى ضرورة نشر علمهم ، واذا كان بعض المعلمين قد افتتح « كتابا » لتعليم الأطفال نظير أجر معين ، فقد وجد أيضا من لا يأخذ الأجر على التعليم أخذا بحديث عبادة بن الصامت قال : « كان رسول الله يشغل فاذا قدم الرجل مهاجرا على رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعه الى رجل منا يعلمه القرآن ، فدفع الى رسول الله رجلا كان معى فى البيت أعشيه عشاء البيت ، وكنت أقرئه القرآن ، فانصرف الى أهله ، ورأى أن عليه حقا ، فأهدى الى قوسا لم أر أجود منها عودا ولا أحسن منها عطفا ، فأتيت الرسول فقلت : ما ترى يا رسول الله ؟ قال : جمرة بين كتفيك تعلقتها أو تقلدتها » (٧١) ، ولقد ناقشت أدبيات التربية الاسلامية موضوع جواز الأجر على التعليم ، ورغم أنها أجازته الا أن « الدوافع الاسلامية »

ظلت تدفع الكثيرين الى تعليم الناس مجانا ، وتأبى أن تحـول العلم الى حرفة ، ولذلك رأينا بعض أعلام الثقافة الاسلامية يحترفون أعمالا أخرى يكتسبون منها ليباشروا التعليم « حسبة » ابتغاء وجه الله ، وظلت الكثير من المساجد طوال العصور الاسلامية وحتى عصرنا الحديث تقدم الوانا من « التعليم الاسلامى الأولى » للأطفال يقوم به معلمون بدون أجـر ابتغاء وجه الله ، وكلما كان الدافع الاسـلامى قويا كلما كثر عدد هؤلاء الذين يقدمون التعليم بدون أجر ، وكثر عدد هؤلاء الذين يفضلون كسب قوتهم بالعمل فى مجالات التجارة أو الحرف مع ممارسـة تعليم الناس تطوعا ، ونصح طلابهم باتباع ذلك مثلهم (٧٢) .

أما هؤلاء الذين اتخذوا مكانا لتعليم الأطفال ، واخذوا أجرا نظير تفرغهم لهذا العمل فقد كانوا يديرون هذا الكتاب بأنفسهم اذا كان عدد الطلاب محدودا ، وقد يشـترك معلمان أو اكثر فى التعليم اذا كان عـدد الطلاب كبيرا ، ويدفع الآباء بأبنائهم الى هؤلاء المعلمين نظير أجر يدفعونه اليهم ، وقد يدفع هذا الأجر شهريا أو سـنويا أو بمقدار تعلم الصبى ، ويقضى الصبى يوما دراسيا كاملا فى الكتاب تحت رعاية معلمه ، يبدأ هذا اليوم الدراسى من الصباح الباكر ويسـتمر حتى الظهر ، حيث ينصرف الأطفال لآداء الصلاة وتناول طعام الغذاء ، ثم يرجعون بعد الظهر ويظلون بالكتاب حتى آخر النهار ، وجرت العادة أن تعطل الدراسة بالكتاب بعد ظهر الخميس وسحابة يوم الجمعة ، ثم يعود الطفل الى « مكتبه » صباح السبت (٧٣) .

ولا شك أن الأخذ بنظام اليوم الدراسى الكامل قد أتاح للمعلم الفرصة الكافية للاشراف على تربية الطفل ، كما أتاح للأطفال أن يعيشوا حيـاة جماعية يستفيدون فيها من تجارب غيرهم وينتفعون بهذا التفاعل الاجتماعى الذى يحدث فيما بينهم (٧٤) .

وكانت عملية التعلم تمضى بطريقة غير جامدة ، اذ لم يكن من اللازم أن يحفظ الصبى القرآن كله ، الا اذا كانت تلك رغبة أبيه ، ولم يكن من

اللازم أن يأخذ كل الأطفال كما معينا من الموضوعات الدراسية ، ولم يكن من اللازم أن يصل كل الأطفال الى نفس المستوى التحصيلى فى وقت محدد ، بل روعيت الفروق الفردية ، فهناك الأذكياء والموهوبون وهناك المتوسطون ، ويتشكل المنهج ، وتطول مدة التعليم أو تقصر وفق القدرة العلمية لكل طفل ، وقد جمع « الكتاب » الواحد مستويات تعليمية متعددة وقدم موضوعات دراسية مختلفة ، وروعى الأطفال العاديون والأطفال الموهوبون فى ذلك كله باضافة مواد دراسية Enrichment أو تكوين مجموعات خاصة Special Grouping واتاحة الفرصة للقادرين علميا أن يتقدموا بسرعة فى دراستهم Acceleration الى غير ذلك من الأساليب التى نحاول تطبيقها فى عصرنا الحديث فنصيب بعض النجاح والكثير من الفشل (٧٥) .

وكانت عملية « التقويم » عملية مستمرة تتم بصورة فردية فى الغالب ، فالمعلم يتابع الطفل فى قراءته للوحه قراءة نموذجية صحيحة ، ثم يمتحنه فيما حفظ كل يوم ، ويرى أعماله التجريبية ، فاذا أخطأ الصبى فى الكتابة والهجاء أو الحفظ ، وأهمل أو انصرف الى اللعب والعبث دون الدرس والعلم ، أو هرب من الكتاب ، عاقبه المعلم بالنصح تارة والعزل والتهديد مرة أخرى ، والضرب تارة ثالثة ان لم تفلح النصائح ولم يجد التهديد ، واذا جاز الصبى مرحلة التعلم فى الكتاب جاز امتحانا فيما حفظ من القرآن والخط وخلافه ، وكان اكمال الطفل لحفظ القرآن ويسمى « بالختمة » مناسبة علمية يكرم فيها المعلم والتلميذ ، وينالان من أسرة الصبى الكثير من الهدايا ، وكانت عملية التقويم هذه تتم فى الغالب بالتعاون بين الأستاذ وأهله ، فالمعلم على صلة دائمة بأسرة الصبى ، وهو يبلغهم عن أحوال طفلهم العلمية والأخلاقية ، باستمرار ويتشاور معهم فيما يطرأ من مشكلات . ولما كان الآباء يهتمون بنصيب طفلهم من العلم والأخلاق معا ، فقد شملت عملية التقويم البعدين معا ، البعد العلمى والبعد الأخلاقى .

وكان تمويل التعليم الابتدائى سواء كان تعليما خاصا فى المنازل أو تعليما عاما فى الكتاتيب ، يقوم به الآباء نحو أبنائهم ، أو يقوم به

القادرون نحو أقاربهم الفقراء ، أو غير أقاربهم من أبناء المسلمين ، وأبرز التطبيق العملى لمبادىء الاسلام صورا من التضامن الشعبى فى مجال الخدمات التعليمية ، وبرزت مصطلحات مثل « أهل القرية » و « أهل المصر » و « أهل الحضر » و « أهل الجماعة » — جماعة المسجد — كصور من صور التضامن الشعبى للقيام بالخدمات العامة ومنها الصحة والتعليم (٧٧) ، ومن هنا لم تكن الدولة محتاجة الى الصرف على التعليم وتمويله الا فى أضيق الحدود كما سبق أن ذكرنا . وبالرغم من ذلك ، أو لعله بسبب ذلك ، انتشرت مؤسسات التعليم الابتدائى فى كل مكان من أرجاء العالم الاسلامى ، بحيث لم توجد مدينة أو قرية من القرى الا ووجدنا فيها لونا من ألوان هذا التعليم يتناسب وحاجات افرادها يوفره « أهل جماعة القرية » لأطفالها ويتولون تنظيمه والاشراف عليه وتمويله (٧٨) .

تقييم التعليم الابتدائى الاسلامى :

بعد أن عرضنا لهذا التعليم الابتدائى الاسلامى نحب أن نعرض هنا بايجاز لبعض الآراء التى هاجمت هذا التعليم من حيث تنظيمه وأهدافه ومحتواه وسنرى أن تلك الهجمات تأخذ « الثوب العلمى » ظاهريا وتعتمد على بعض معطيات العلوم التربوية الحديثة دون أن تملك الأصالة العلمية التى تستطيع بها أن تتمثل تلك العلوم التربوية ، وأن تخضعها لمطالب مجتمعاتنا العربية والاسلامية ، كما سنلاحظ أيضا أن بعض هذه المثالب التى أخذها البعض على التعليم الابتدائى الاسلامى انما ظهرت فى أعين هؤلاء الدارسين كمثالب لعدم فهمهم لروح الاسلام وتعاليمه ، ولو توفر هذا الفهم لديهم لأدركوا فى الغالب أنها ليست مثالب بل مميزات وخصائص للتعليم الاسلامى .

من ذلك مثلا ما يقال من أن الهدف من التعليم الابتدائى الاسلامى انما كان هدفا دينيا بحتا يتركز فى حفظ القرآن وما يتصل به من تعليم القراءة والخط (٧٩) ، ولقد تجاهل القائلون بذلك تنوع المنهج فى تلك المرحلة واختلافه باختلاف الظروف على نحو ما بينا ، أما كل ما يقال

حول حفظ القرآن بدون فهم فى تلك المرحلة ومخالفـــة ذلك لقواعد علـــم النفس الحديث ، فهو قول يعود فى اكثره الى عدم تقدير المنزلة التى يحتلها القرآن فى حياة الجماعة الاسلامية خصوصا لدى الطبقة المثقفة التى ستقود المجتمع فيما بعد ، ودع عنك الافراد العاديين الذين لا يستغنون عن حفظ شىء من القرآن لاستخدامه يوميا فى صلواتهم .

كذلك فان هـــذا القول يقلل من ادراك اهمية الدوافع الاجتماعية والنفسية التى كانت تدفع الطفل المسلم الى حفظ القرآن وتجعله يستسيغ هذا المجهود الذهنى الجاد ، فقد كان المجتمع ينظر نظرة اعزاز وتقدير لمن يحفظ القرآن ، يقول ابن حنبـــل : « كان الرجـــل اذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا » اى عظم بيننا ، فماذا عن الحافظ للقرآن الكريم كله ؟ اذ لا شك أن هـــذا التقدير الاجتماعى قد دفع الكثير من أطفال المسلمين الى حفظ القرآن الكريم لينالوا احترام المجتمع وتقـــديره . ان الطفـــل يسعى دائما الى « التقدير الاجتماعى » ويسعى الى كسب رضاء الآخرين ، وما دام سيجد فى حفظ القرآن الكريم احتراما وتقديرا فلا عليه أن يفعل ذلك ، بجوار أن هذه السن هى أكثر الأعمار مناسبة للحفظ وكلما تقـــدم الطفل فى السن كلما قلت ملكة الحفظ ، بجوار أن ما يحفظه فى تلك المرحلة يكون أوضح واوعى للتذكر، ولعل مايؤكد وجهة النظر هذه ماذهب اليه بلارد Ballard من انه « اذا استظهرنا قطعة من الشعر فان المقدار الذى نتذكره منها يزداد بعد بضعة أيام من تاريخ الحفظ بدلا من أن يبلغ أقصاه عقب الحفظ مباشرة ، وقد ينسى الانسان بعض الألفاظ وبعض العبارات التى كان يحفظها عن ظهر قلب ولكنه يستبدل بها عبارات والفاظا أخرى تبرز من نفسها بعد فترة الاستقرار ، وهـــذا التذكر واضح جدا عند صغار الأطفال ولكن يقل كلما تقـــدم الانسان فى السن فاذا وصلنا الى مرحلة الرجولة أخذ ينقرض أو يتلاشى » (٨٠) .

كذلك ينظر بعض الباحثين بعين الازدراء الى عملية الحفظ هـــذه ويرون أنها نوع من التدريب على التذكر اللفظى وهى عملية من العمليات

العقلية الوضعية التى لا تقترن بالذكاء ولا قوة الادراك * . وايدوا وجهة نظرهم هذه « بأن كثيرا من البلهاء وضعاف العقول ينعمون بذاكرة قوية ، وبعض الأذكياء ذاكرتهم ضعيفة ، ولكن ازدراء الذاكرة والنظر اليهـا هـذه النظرة القليلة الأهمية فيه بعد عن الحقائق النفسية ، وتدل نتائج البحث فى الأمراض النفسية على أن فقدان الذاكرة يؤدى الى اضطراب الحياة العقلية وفساد السلوك ومما لا شك فيه ان الذاكرة الجيدة تخدم علماء الطبيعة والكيمياء والنبـات والحيوان لأنهم فى حاجة الى استظهار كثير من القوانين الرياضية والمعادلات الكيميائية التى تتألف منها مبادىء المعرفة الصحيحة الضرورية ، ولا يستطيع الانسان اجادة اللغة دون معرفة كثير من الألفاظ وقواعد النحو والصرف ، وقد ظن كثير من علماء النفس والتربية أن هناك تعارضا بين الذكاء والذاكرة ، والحقيقة على خلاف ذلك لأن موهبة الذكاء وحسن التفكير مما يخـدم الذاكرة فى سرعة التحصيل وجودة الحفظ وسهولة الاسترجاع وفى ذلك يقول وليم جيمس : « أن فن التذكر هو فن التفكير » (٨١) .

كذلك هوجمت التربية الاسلامية عموما والتربية فى المرحلة الابتدائية خصوصا لأنها لم تمتن « بالتربية الفنية » لدى الأطفال ، وما دامت مناهج تلك المرحلة لم تشتمل على الفنون الجميلة التى يشتمل عليهـا المنهـج المعاصر وخصوصا الموسيقى والتصوير ، فهذا يدل على انعدام الشعور بأهمية التربية الفنية والجمالية فى التربية الاسلامية ، وهذا وهم باطل كما يقول الأهوانى « فالفنون الجميلة فى الاصطلاح هى الموسيقى والتصوير

---

* فى الواقع ان قضية حفظ القرآن الكريم فى المرحلة الابتدائية من القضايا التربوية الهامة التى تستحق دراسة مستقلة تستخدم الأسلوب التجريبى لقياس الفروق بين أطفال يحفظون القرآن وآخرين لا يحفظون من حيث الطلاقة اللغـوية ، والنجاح الدراسى ، والقيم والاتجاهات ... الخ ، ودراسات أخرى تتناول أمثل الطرق التجريبية التى ينبغى اتباعهـا لحفظ القرآن فى تلك المرحلة .

والنحت والزخرفة والعمارة ، وعناية الغربيين اليوم — وهى عناية ورثوها عن اليونان — هى تعليم الموسيقى والتصوير ، أما الاسلام فقد استعاض بهذين الفنين بالنسبة للأطفال فنونا أخرى جميلة هى الخط والشعر والزخرفة العربية . ولا ينبغى أن يذهب عن بالنا أن القرآن نفسه فيه موسيقى سماوية أسمى من الشعر وبخاصة فى السور القصار ، ومن اجل ذلك يتغنى الأطفال بالقرآن عند حفظه فطرة وسليقة ويزين القراء التلاوة بالصوت الحسن » (٨٢) ، فاذا كانت التربية الغربية لها فنونها الجميلة الخاصة بها ، فهل يؤخذ على التربية الاسلامية أن تكون لها ايضا فنونها الجميلة الخاصة بها ، من لوحات خطية بديعة ، وزخرفة عربية منمقة ، وموسيقى قرآنية وشعرية ... الخ ؟ * .

كذلك اخذ على التربية الاسلامية فى تلك المرحلة أنها أخذت بأسلوب « العقاب الجسمانى » وصوروا المعلم على انه انسان فظ القلب ، يهوى بدرته على الأطفال بدون دراية بمعطيات علم النفس التى تذهب الى أن أخطاء الطلاب لا تدل على حاجتهم الى العقاب بقدر ما تدل على وجود شىء خاطىء فى المنهج أو فى طرق التدريس أو فى الظروف المادية والمعنوية للعملية التعليمية (٨٣) ، ولقد سبق أن ذكرنا متى يجوز استخدام أسلوب الضرب ؟ وشروطه . ونحب أن نؤكد هنا أن ادبيات التربية الاسلامية قد حذرت من الافراط فى اللجوء الى هذا الأسلوب لما ينتج عنه من أضرار تربوية ونفسية ، يقول ابن خلدون : « ومن كان مرباه بالعسف والقهر سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها وذهب بنشاطها ، ودعا الى الكسل وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه » (٨٤) . أى أن التربية

---

* يحتاج تعليم الفنون الجميلة فى تلك المرحلة الى دراسات أعمق حول الفنون الجميلة الاسلامية التى تتمثل فى الخط الكوفى والشعر والزخرفة العربية والموسيقى القرآنية وكيفية تدريس تلك الفنون الجميلة فى عصرنا الحديث وكيف نرعاها ونطورها فى مدارسنا المعاصرة .

الاســـلامية انما استخدمت الضرب فى أضيق حدوده ، ورعت أن يكون استخدامه مؤثرا من الناحية التربوية ، وبلغة علم النفس فان ضربة العصا تؤلم الصبى فتؤدى الى امتناعه عما يفعل حتى لا يقع عليه الضرب مرة ثانية ، والانســـان بطبيعته مفطور على الاقبال على ما يسره والابتعـــاد عما يؤلمه ، والذاكرة تلعب دورا هاما فى ذلك اذ يستعيد الصبى سبب أوجاعه ويستحضر فى ذاكرته الموقف الذى ضرب فيه فيعمل على ابعـــاد كل ذلك وبهذا يستقيم ، اما المبالغة فى الضرب فتؤدى الى البلادة وانعدام الألم الذى به يتم الانصراف عن الأفعال القبيحة والسلوك الذى يراد تغييره وعـــدم تكراره (٨٥) .

كذلك اخذ على التربية الاسلامية خصوصا فى تلك المرحلة انها تربية جادة صارمة لم تراع حاجات الأطفال الى اللعب والترويح على النفس ولم تعرف الوان الالعـــاب التربوية والترويحية التى تعرفهـــا مدارسنا فى العصر الحديث ، والواقع ان ادبيات التربية الاسلامية لم تغفل ضرورة الترويح عن الطفل دفعا للسآمة فابن سينا يحذر من أن يحمـــل الأطفال على ملازمة الكتاب مرة واحدة حتى لا يتعرضوا للسأم ، والغزالى يلفت نظر المسلم الى ضرورة الاهتمام بلعب الطفـــل والترويح عنه فيقول : « وينبغى أن يؤذن له (الصبى) بعد الانصراف من الكتاب ان يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب الكتب بحيث لا يتعب فى اللعب فان منع الصبى من اللعب وارهاقه الى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه راسا » ، ويقول فى مكان آخر ، « ويعود الصبى فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل » (٨٧) ، والزرنوجى يحذر الصبى من ان يجهد نفسه جهدا يضعف النفس حتى ينقطع عن العمل بل يستعمل الرفق فى ذلك ، والرفق اصل عظيم فى جميع الأشـــياء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الا أن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض نفسك فى عبادة الله تعـــالى ، فان المنبت لا ارضـــا قطع ولا ظهرا أبقى » (٨٨) ، لذلك كله فان الاسبوع الدراسى فى الكتاب خمسة أيام ونصفا فقط ولم يكن اليـــوم

الدراسى فى الكتاب يقضى كله فى الدراسة بل لم يخل الامر من أحاديث يتبادلها الأطفال وفترات راحة ينالونها . فاذا بقى بعد ذلك ظل من الصرامة والجدية فهى صرامة تقتضيها ظروف العصر وقلة التسهيلات العلمية والمادية الميسرة للطلاب فى ذلك الوقت ، وعظم الشعور بالمسئولية التربوية التى احس بها الآباء والمعلمون نحو تربية الصبيان .

كذلك اخذ على التربية الاسلامية فى تلك المرحلة انها ظلت طوال العصور الاسلامية عملا شعبيا يتم بصورة عشوائية غير منتظمة ، وان الدولة قد فشلت فى تقديم نظام تعليمى عام موحد لجميع الأطفال تشرف على تنظيمه وادارته . وان الخلافة الاسلامية قد فقدت فرصة تقديم نظام تعليم حكومى فى ثلاث مناسبات تاريخية هامة :

الأولى : عندما انشأ عمر بن الخطاب الدواوين ووضع لها نظمها الخاصة وكان فى امكانه أن يضع ايضا نظاما عاما للتعليم ولكنه لم يفعل .

والثانية : عندما أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين ولم يقدم نظاما تعليميا عاما لتربية الكوادر اللازمة لهذا الأمر .

والثالثة : عندما حاول المامون أن يفرض رأيا فلسفيا فى خلق القرآن عن طريق القوة والارهاب دون ان يلجأ الى انشاء « نظام تعليمى » يربى الأفراد على تلك العقيدة الجديدة (٨٩) . ولقد سبق أن ناقشنا علاقة الدولة بالتعليم واظهرنا ان التعليم كان أمرا من أمور الأفراد ، ولم يكن شأنا من شئون الدولة بالفعل ، ولكن ذلك لم يمنع من انتشار هذا النوع من التعليم الابتدائى ، ولا يعيب نظام التربية الاسلامية ، أنه كان بعيدا عن سيطرة الدولة وتدخلها فى شئونه المالية والادارية بل ربما كان هذا من أعظم مميزات هذا النظام ، فقد جعلته أكثر اتصالا بحاجات الجماهير ، كما جعلته محور اهتمام الأفراد والجماعات ، بجوار ما اتاحه ذلك من حريات واسعة للطلاب والمعلمين ، وها هو التعليم الأمريكى كان وما زال شأنا من شئون الولايات وليس من واجبات الحكومة الفيدرالية ومن ثم فليس للولايات المتحدة نظام يسير التعليم القومى كتلك النظم التى توجد فى كثير من البلاد الأخرى وليس من اختصاص الحكومة

الفيدرالية أن تسير النظم المدرسية أو تتحكم فى طابع المدرسة أو فى مناهجها وان كان من واجبها أن تشجع التعليم وتعمل على تيسيره وانها لتمده فعلا بالمساعدة والتوجيه القوى الشامل عن طريق « مكتب التربيـــة » الذى يتخذ كافة الطرق لعون الولاية فى جهودها وابتكاراتها (٩٠) وهذا ما فعلته الدولة الاسلامية نحو التعليم ، اذ قدمت له الوانا متعددة من المساعدة والتشجيع ولكنها لم تحاول أن تسيطر عليه سيطرة كاملة .

ثم يأتى بعد ذلك هذا الشعور السائد بين الدارسين بان تلك المرحلة الابتدائية بالذات كانت الغلبة فيهـا لسيطرة رجال الفقـه ذوى الاتجاه الدينى المتشـدد مثـل الغزالى ونصـير الدين الطوسى وابن جماعـة وابن سحنون وابن حجر الهيثمى والقابسى ... الخ وان أصحاب هـذا الاتجاه الدينى المتشدد فى التربية قد طبعوا التعليم فى تلك المرحلة بطابعهم الدينى الذى ركز على التدين والخلق الدينى المحافظ (٩١) . ورغم غلبـة الطابع الدينى والأخلاقى على تلك المرحلة بالفعل كما سبق أن ذكرنا . الا أن هـذا الطابع هو الذى أمد الطبقة المثقفة المسلمة عبر العصـور بشخصيتها الاسلامية المستقلة ، وجعلها لا تذوب فى غيرها من الثقافات ، واكسبها القدرة على نقل جميع الحضارات المختلفة دون أن تذوب فى واحدة منها . كما أن هذا الطابع الدينى والأخلاقى قد حفظ على المثقفين المسلمين « حدا أدنى من الثقافة المشتركة فيما بينهم وبذلك لم تفرقهم التخصصات المهنية فكريا وأيديولوجيا فيما بعد ، كذلك جعلتهم أكثر اتصالا بالشعب وثقافته ووجدانه وأمدتهم بأخلاقيات ومثل عالية يفتقدها انساننا المعاصر الذى يعانى من أزمة خلقية وروحية تهدد حضارته » (٩٢) .

كان هذا هو التعليم الابتدائى عند المسلمين بكل ظروفه وملابساته ومناهجه وأهدافه وادارته ، والذى تعرض له الطفـل المسلم ، قبـل أن يدخل المرحلة التاليـة من مراحـل التعليم المتخصص ، وهو تعليم — كما رأينا — كان يتيح للطفل أن يحصل على حظ وافر من كتاب الله ، ان لم يحفظه كله ، وكان يمكنه من اتقان مهارات القراءة والكتابة والخط والحساب ، مع العناية بأخلاقه وممارسته للشعائر الاسلامية ، وقد يضاف

الى ذلك كله معرفة بالآداب وفنون الشـــعر الذى يقال فى المناســبات المختلفة بجوار الكثير من قصص الأنبياء والصالحين . وهو بذلك يعتبر تعليما غنيا وكافيا لانتقال الطفل الى المرحلة التالية من مراحل التعليم . كما يعتبر تعليما كافيا ومناسبا اذا انقطع الطفــل عن التعليم وتوجــه الى صناعة أو مهنة يزاولها لكسب العيش .

وسوف نتتبع طفلنا المسلم « الذى لديه الاستعداد الكامل لمواصلة التعليم الى المرحلة التالية ، وسنركز حديثنا لطبيعـــة البحث على هؤلاء الذين اختاروا الطب ميدانا لدراستهم وتخصصهم لنرى كيف تمت تربيتهم واعدادهم تربويا ومهنيا لممارسة تلك المهنة الطبية » . وهذا هو موضوع فصلنا الثالث ..

مراجـــع الفصـــل ومصـــادره

(١) راجع تحديد هذين المصطلحين في أحمد حسن عبيد : **فلسفة النظـــام التعليمى وبنيته السياسية التربوية** ، دراسة مقارنة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٠ .

(٢) راجع فى ذلك على سـبيل المثـال : ابن الجزار القيروانى : **سياسة الصبيان وتدبيرهم** ، نشر وتقديم محمـد الحبيب الهيلة ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٨ ، شمس الدين الانبابى : **رسالة فى رياض الصبيان وتعليمهم وتأديبهم** ، مخطوط بمكتبة جامعة القـاهرة رقم ٤٣٢ تعليم ، حسن عبد العال : **أصول تربية الطفـل فى الاســلام** ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة طنطا ، ١٩٨٠ ، الباحث : **فلسفة التربية عنـد ابن سينا** ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ١٠٩ ــ ص ١١٦ ــ ص ١٢٣ ــ ص ١٢٥ .

(٣) الباحث : **ديمقراطية التعليم فى عصور الازدهار الاسلامى دروس مستفادة** « من أبحاث مؤتمر ديمقراطية التعليم فى مصر » ، مرجع سابق ، ص ٩ ــ ص ١١ .

(٤) ابن حزم : **الفصل فى الملل والأهواء والنحل** ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .

(٥) أحمد فؤاد الأهواني : **التربية فى الإســلام** ، دار المعـارف ، القـاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٦٧ ، سـعيد اسماعيل على : **معاهد التعليم الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٧٧ ــ ص ٧٩ .

(٦) أحمد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها ، فلسفتها ، تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .

(٧) **نفس المرجع** ، ص ٥٤ .

(٨) **نفس المرجع** والمكان .

(٩) **نفس المرجع** ، ص ٥٥ .

(١٠) أحمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .

(١١) عبد الغنى محمود عبد العاطى : **التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك** ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٩١ — ص ٩٨ .

(١٢) محمد عبد الحميد عيسى : **تاريخ التعليم فى الأندلس** ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٤٦٧ .

(١٣) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن سينا** ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .

(١٤) **نفس المرجع** ، ص ١١٧ .

(١٥) محمد نبيل نوفل : **ابو حامد الغزالى ، فلسفته وآراؤه فى التربية والتعليم** ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية جامعة عين شمس ، ١٩٦٧ ، ص ١٤١ .

(١٦) انظر مثلا : ابن سحنون : **آداب المعلمين** ، القابسى : **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين** ، نشر أحمد فؤاد الأهوانى كملاحق لكتابه : **التربية فى الاسلام** ، مرجع سابق ، الغزالى : **أيها الولد** ، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٦٩ .

طاش كبرى زادة : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة** ، مرجع سابق .

(١٧) — S. S. HUSAIN S. A. ASHRAF : **CRISIS IN MUSLIM Education,** Hodder and Starughton, London, King Abdulaziz University, Jeddah, 1979.

— Abdul Rahman Salih Abdullah; **Educational theory. Aquranic outlook,** umm Al-Qurn University, Makah, 1982, pp. 133 – 136.

(١٨) أحمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٣ .

(١٩) ابن خلدون : **مقدمة ابن خلدون** ، لجنة البيان العربى ، تحقيق على عبد الواحد وافى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٧٨ .

(٢٠) **نفس المرجع** ، ص ٤٨٩ .

(٢١) محمد صلاح الدين مجاور : **تدريس التربية الاسلامية اسسه وتطبيقاته التربوية** ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ٦٥ — ص ٩٩ ، حيث ناقش تلك القضية واقترح اختيار آيات معينة للحفظ .

(٢٢) القابسى : **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين** ، مرجع سابق ، ص ٤٣ ، ب .

(٢٣) الباحث : **بحوث فى التربية الاسلامية** ، دار الفكر العربى ، القـــاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٨٠ .

(٢٤) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن ســينا** ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

(٢٥) الغزالى : **احياء علوم الدين** ، مرجع سابق ، جـ ٣ ، ص ٦٢ .

(٢٦) القابسى : **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين** ، مرجع سابق ، ص ٤٤ ، ب .

(٢٧) **نفس المرجع** ، ص ٤٥ — ب .

(٢٨) شمس الدين الانبابى : **رسالة فى رياض الأطفـــال وتعليمهم وتاديبهم** ، مرجع سابق ، ص ٢ .

(٢٩) أحمد فؤاد الأهوانى : **التعليم فى الاســـلام** ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ .

(٣٠) ملكة ابيض : **التربية والثقافة العربية فى الشــام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى** ، مرجع سابق ، ص ٢٥٩ .

(٣١) محمد جواد رضا : **الفكر التربوى الاسلامى مقدمة فى أصوله الاجتماعية والعقلانية** ، مرجع سابق ، ص ٢٦ — ص ٢٧ .

(٣٢) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن ســينا** ، مرجع سابق ، ص ٤٠ — ص ٤٧ .

(٣٣) ابن خلدون : **مقدمة ابن خلدون** ، مرجع سابق ، ص ٤٧٩ — ص ٤٨٠ .

(٣٤) Bayard Dodge ; **Muslim Education in the Medieval times**, op. cit, pp. 3, 5.

(٣٥) السيوطى : **الاتقان فى علوم القرآن** ، مطبعة حجازى ، القاهرة ، ص ١٨١ .

(٣٦) القابسى : **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين** ، مرجع سابق .

(٣٧) **نفس المرجع** ، ص ٦٩ — ب .

(٣٨) A. S. Tritton : **Materials of Muslim Education in The Middae Ages**, op. cit. p. 51.

(٣٩) طاش كبرى زادة : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم** ، مرجع سابق ، جـ ٢ ، ص ٣٧٢ ، ص ٣٧٥ .

(٤٠) **نفس المرجع** ، جـ ١ ، ص ٨٤ — ص ٨٨ .

(٤١) **نفس المرجع** والمكان

(٤٢) ابن خلدون : **مقدمة ابن خلدون** ، مرجع سابق ، ص ٤٧٧ — ٤٨٠ .

(٤٣) طاش كبرى زادة : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم** ، مرجع سابق ، جـ ١ ، ص ٢٢ .

(٤٤) **نفس المرجع** ، ص ٢٨٣ .

(٤٥) **نفس المرجع** ، ص ٣٩٠ .

(٤٦) **نفس المرجع** ، ص ١٤٤ — ص ١٤٥ .

(٤٧) الزرنوجى : **تعليم المتعلم طرق التعلم** ، مرجع سابق ، ص ٨٧ .

(٤٨) **نفس المرجع** ، ص ١٢٨ .

(٤٩) **نفس المرجع** ، ص ١٣١ .

(٥٠) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن سينا** ، ص ١٥١ — ص ١٥٢ .

(٥١) احمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاســلام** ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٥٢) **نفس المرجع** ، ص ٨ .

(٥٣) احمــد شلبى : **التربيــة الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .

(٥٤) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن ســينا** ، مرجـــع سابق ، ص ١٢٥ .

(٥٥) ابن العربى : **احكام القرآن** ، مطبعة السعادة ، القـــاهرة ، ١٣٣١ هـ ، جـ ٢ ، ص ٢٩ .

(٥٦) أحمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاســلام** ، مرجع سابق ، ص ٥٩ — ٦٠ .

(٥٧) أحمد شــلبى : **التربية الاسلامية نظمها فلســفتها تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .

(٥٨) محمد جواد رضا : **الفكر التربوى الاسلامى مقدمة فى اصوله الاجتماعية والعقلانية** ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .

(٥٩) الباحث : **بحــوث فى التربيـــة الاسلامية** ، مرجـــع سابق ، ص ٧٦ — ٨٣ .

(٦٠) عمر محمد التومى الشيبانى : **من اسس التربية الاسلامية** ، المنشأة الشعبية للنشر والاعلان والتوزيع ، طرابلس ، ١٩٧٩ ، ص ٩١ — ص ٣٤٤ .

— George D. Shala : **The Arab Conception of the Ideal teacher as Revealed in Arabic pedagogical Literature,**

M. A. Thesis, University of London, Faculty of Arts, 1939.

(٦١) الزرنوجى : **تعليم المتعلم طرق التعلم** ، مرجع سابق ، ص ٧٨ — ص ٨٠ .

(٦٢) **نفس المرجع** : ص ٨١ — ص ٨٢ .

(٦٣) **نفس المرجع** : ص ٨٢ .

(٦٤) محمد منير مرسى : **التربية الاسلامية اصولها وتطورها فى البلاد العربية** ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٩٧ .

— حسن عبد العال : **التربية فى القرن الرابع الهجري** ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٩٧ .

(٦٥) محمود جواد رضا : **الفكر التربوى الاسلامى مقدمة فى اصوله الاجتماعية والعقلانية** ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .

(٦٦) عبد الله عبد الدايم : **التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين** ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٦ ، ص ١٤٧ .

(٦٧) الباحث : **بحوث فى التربية الاسلامية** ، مرجع سابق ، ص ٦٢ — ص ٦٣ .

(٦٨) مصطفى كمال وصفى : **مصنفة النظم الاسلامية الدستورية والدولية والادارية والاقتصادية والاجتماعية** ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٤٥١ ، ص ٤٧١ ، ص ٥٢٩ ، ص ٥٤٦ .

(٦٩) احمد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ٣٠٦ .

(٧٠) **نفس المرجع** ، ص ٣٥٣ — ص ٣٨٥ .

(٧١) ملكة أبيض : **التربية والثقافة العربية الاسلامية فى الشام والجزيرة العربية خلال القرن الثالث للهجرة** ، مرجع سابق ، ص ٣٣١ — ص ٣٤٠ .

(٧٢) الباحث : **ديمقراطية التعليم فى عصور الازدهار الاسلامى ، دروس مستفادة** ، مرجع سابق ، ص ٨ .

(٧٣) احمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٦٣ ، ص ٦٤ .

(٧٤) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن سينا** ، مرجع سابق ، ص ١١٨ ، ص ١١٩ .

(٧٥) حسين فوزى النجار : **ثورة التعليم** ، النهضة المصرية بالقاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٥٨ — ص ٦٢ .

(٧٦) احمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

(٧٧) الباحث : **ديمقراطية التعليم فى عصور الازدهار الاسلامى ، دروس مستفادة** ، مرجع سابق ، ص ٧ .

(٧٨) **المرجع السابق** ، ص ١١ .

(٧٩) — Khalil ; A. Totah : **The contrbution of the Arabs To Education.** Publications Teachers College, columbia University, New York, 1926. pp. 94 - 95.

(٨٠) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن سينا** ، مرجع سابق ، ص ١٢٦ — ص ١٢٧ .

(٨١) احمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٨٨ ، ص ١٨٩ .

(٨٢) **نفس المرجع** ، ص ١٨ .

(٨٣) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن سينا** ، مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

(٨٤) احمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٨٥) راجع قانون الأثر عند ثورنديك ، ص ٢٠٦ — ص ٢٠٨ ، ورأى ليفين فى الثواب والعقاب ، ص ٣٩٦ — ص ٤٠٠ من كتاب أحمد زكى صالح : **التعلم أسسه ونظرياته** ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .

(٨٦) الباحث : **فلسفة التربيـــة عند ابن ســـينا** ، مرجع سابق ، ص ١٥٠ — ص ١٥١ .

(٨٧) الباحث : **بحوث التربية الاسلامية** ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .

(٨٨) الزرنوجى : **تعليم المتعـــلم طرق التعـــلم** ، مرجع سابق ، ص ٩١ .

(٨٩) — Al-Tibawi : **Arabic And Islamic themes, Historical Educational and litterery studies**, London, Luzas, 1974, p. 96.

(٩٠) حســين فوزى النجار : **ثورة التعليم** ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

(٩١) محمد جواد رضا : **الفكر الاسلامى التربوى مقدمة فى أصوله الاجتماعية والعقلانية** ، مرجع سابق ، ص ٥٧ — ص ٧٧ .

— أحمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٤٦ — ص ٧٢ .

(٩٢) الباحث : أزمة التربية الخلقيـــة فى مصر وجهة نظر فى **بحوث فى التربية الاسلامية** ، مرجع سابق ، ص ٥٣ — ص ٦٧ .

الفصل الثالث

الاعداد التربوى والمهنى للطبيب ، المرحلة الثانية المتخصصة

FURTHER EDUCATION.

مقـــدمة :

كان التعليم الابتدائى كما سبق أن ذكرنا يمـد الصـبى المسـلم باساسـيات الثقـافة الاسـلامية ، ويعـده الى مرحلة أعلى للتعليم Further Education ، أو الى مرحلة من الاعداد الحرفى أو اليدوى اذا أراد أن يكتفى بذلك ، وينصرف الى تعلم حرفة أو عمـل يدوى . والتعليم اليدوى أو العملى كتعلم التجارة والصياغة والنجارة وغيرها من الحرف انما « يحصل بالمواظبة على استعمال تلك الصناعة » (٢) ، اى بالتدريب العملى عليها والممارسة لمهاراتها المختلفة * . أما التعليم النظرى فهـو الذى يكتسب « بقول مسموع أو معقول من شأنه أن يوقع اعتقادا أو رأيا لم يكن أو يوقع تصورا ما ، لم يكن » (٣) . اى انه يحتاج الى تحصـيل الآراء والأقوال والأفكار العقلية والنقلية . وهذا التعليم النظرى بمصادره العقلية والنقلية هو الذى يمثل منهاج المرحلة الأعلى المتخصصة من التعليم الاسلامى . ولقد تعددت فروع هذا التعليم بتعدد العلوم الاسلامية حتى وصلت الى ثلاثمائة علم عند صاحب « مفتاح السعادة » (٤) . وظهرت كثير من المؤلفات الاسلامية محاولة أن تصنف تلك العلوم العديدة بحيث تقدمها الى الدارس المسلم ذاكرة له اهم مباحث كل علم ، واهم ما كتب فيه من مؤلفات (٥) . يقول الفارابى فى مقدمة كتابه « احصاء العلوم » : « قصدنا فى هذا الكتاب أن نحصى العلوم المشهورة علما علما ، ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها ، وأجزاء كل ما له منها اجزاء ، وجمل ما فى كل واحد من اجزائه « حتى اذا أراد الدارس » أن يتعلم علما من هذه العلوم وينظر فيه ، علم على ماذا يقدم وفى ماذا ينظر ، وفى أى شىء سيفيد بنظره ، وما غناء ذلك ، وأى فضيلة تنال به ، ليكون اقدامه على ما يقدم عليه من العلوم على معرفة وبصيرة لا على عمى وغرر » ... وحتى يستطيع « أن يقيس بين العلوم فيعلم ايها افضل ، وايهـا انفع ، وأيها

---

* فى الواقع أن التعليم الحرفى أو اليدوى عند المسلمين يحتاج دراسة وافية ، يأمل الباحث أن يفرغ لها فى القريب العاجل .

أتقن وأوثق وأقوى وأيها أوهن وأوهى وأضعف » ولكى يتبين له اذا كان يحســـــن علما منها « هل يحســـــن جميعه أو بعض أجزائه وكم مقدار ما يحسنه ؟ » (٦) .

ولا شك ان الصبى المسلم عندما كان ينتهى من دراسته الابتدائية كان يقبل على عالم واسع من العلوم والمعارف العقلية والنقلية تصـــوره لنا أمثال هذه المؤلفات ، ولذلك كان لابد من توجيهـــــه تربويا الى أنواع محددة من الدراسات . وكانت عملية التوجيـــه التربوى والمهنى للطالب تتم واضعة فى حسابها ميول الطالب العقلية من ناحية ، وما يريده له ولى أمره من أنواع التعليم من ناحية أخرى . يقول ابن سينا : « واذا فرغ الصبى من تعلم القرآن وحفظ اصول اللغة نظر عند ذلك الى ما يرد أن تكون صناعته فوجـــــه لطريقه . فاذا أراد (مدبره) به الكتابة اضـــاف الى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناقلات الناس ومحاوراتهم وما أشبه ذلك وطورح الحساب ودخل به الديوان وعنى بخطه ، وان أريد أخرى أخذ به فيها بعد ان يعلم مدبر الصبى أن ليس كل صناعة يرومها الصبى من تعلم القرآن وحفظ اصول اللغة نظر عند ذلك الى ما يراد أن الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة ، اذن ما كان أحد غفلا من الآداب وعاريا من صناعة ، واذا لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب وارفع الصناعات » (٧) . فالتعليم بعـــد المرحلة الابتدائية تعليم تخصصى يعد الطالب المسلم لحرفة أو مهنة يمارسها فى المجتمع . فاذا كان الصبى قد أظهر فى المرحلة السابقة ميولا أدبيـــة وجودة فى حفظ الشعر والأدب ، فمن الأفضل أن يوجه توجيها أدبيـــا ليصبح كاتبا أو اديبا * . واذا مال الى الفقه أو الحديث أو التفســـير وجه الى ذلك ، واذا أظهر ميلا الى الدراسات العقلية والفلسفية كانت دراسته التالية موجهة لاتقان تلك الدراسات . ويحذر ابن سينا أن يوجه

---

* فى الواقع أن تربيـــة الأديب أو تربية الكاتب عند المســـــلمين ، من الموضوعات التى تستحق دراسة مستقلة أيضا ، والتى يود الباحث أن ينتهى من اعدادها قريبا باذن الله .

الصبى الى نوع من الدراسات لا يريده ، أو لا يظهر استعدادا عقليا لمتابعته والتخصص فيه ، لأن فى ذلك مضيعة لوقت الطالب وجهده فيما لا جدوى منه . ويستدل على ذلك « بسهولة بعض الآداب على قوم وصعوبتها على آخرين ، ولذلك نرى واحدا من الناس تواتيه البلاغة وآخر يواتيه النحو وآخر يواتيه الشعر وآخر يواتيه الخطب ، وآخر يواتيه النسب ، ولهذا يقال بلاغة القلم وبلاغة الشعر . فاذا خرجت عن هذه الطبقة الى طبقة أخرى ، وجدت واحدا يختار علم الحساب وآخر يختار علم الهندسة ، وآخر يختار علم الطب ، وهكذا تجد سائر الطبقات اذا أقتليتها طبقة طبقة حتى تدور عليها جميعا . ولهذه الاختيارات وهذه المناسبات والمشاكلات أسباب غامضة وعلل خفية تدق على أفهام البشر وتلطف عن القياس والنظر ولا يعلمها الا الله جل ذكره » (٨) واذا كنا لا نستطيع الوصول الى حقيقة هذه الفروق العقلية لأنها من علم الله حتى يعمر هذا الكون باختلاف البشر فيما لديهم من قدرات ، وحتى لا يجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات ، ويترفعوا عن غير ذلك من المهن فلا تستقيم الحياة (٩) الا أنه يمكن ملاحظة آثار هذه الفروق ورصد مظاهرها المختلفة ، وتوجيه الطلاب توجيها تربويا بناء على ذلك . يقول ابن سينا : « فلذلك ينبغى لمؤدب الصبى اذا رام اختيار الصناعة للصبى — أن يزن أولا طبع الصبى ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه فيختار له احدى الصناعات بحسب ذلك ، فاذا اختار له احدى الصناعات تعرف قدر ميله اليها ورغبته فيها ، ونظر هل جرت منه على عرفان أم لا ، وهل ادواته وآلاته مساعدة له عليها أم خاذلة ثم يبت العزم ، فان ذلك أحزم فى التدبير وأبعد من أن تذهب أيام الصبى فيما لا يواتيه ضياعا » (١٠) .

فهذه المرحلة الأعلى أو التالية المتخصصة Further Education ، لا تكون الا بعد أن يكون الصبى قد مر بالمرحلة السابقة من التعليم ، وبعد أن يكون « مدبر الصبى » سواء كان ولى أمره أو استاذه — أحدهما أو كلاهما — قد وزن طبع الصبى وسبر قريحته واختبر ذكاءه واختار له الصناعة (التوجيه التربوى والمهنى) الذى يناسبه وعرف قدر ميل الصبى لهذا الاتجاه التعليمى ، ورغبته فيه ، واقباله عليه ، وقدرته العقلية على

متابعته بنجاح بحيث لا يتعرض الصبى للفشل الدراسى أو يذهب وقته سدى ، وسنقصر حديثنا فى الصفحات التالية — لطبيعة البحث — على هؤلاء الذين اختاروا الطب صناعة لهم ، لنرى كيف تمت تربيتهم واعدادهم الاعداد التربوى والمهنى المناسبين .

أولا : دوافع ازدهار التعليم الطبى فى المجتمع الاسلامى

لا شك ان الاقبال على نوع معين من التعليم يتأثر الى حد كبير بمقدار ما يوفره هذا التعليم لصاحبه من مزايا ادبية ومادية ، وقد مر بنا فى الفصل الأول كيف حث الاسلام على طلب القوة والصحة ودعا الى الأخذ بأسبابهما ، مما يمثل دافعا من دوافع الاقبال على الدراسة الطبية ، ودعوة الى البحث عن اسباب المرض وكيفية علاجه ، واسباب الصحة وكيفية الحفاظ عليها . وكان ذلك يعطى الدارس للطب الشعور بأنه يدرس علما نافعا من الناحية الشرعية . ولقد نظر العلماء المسلمون الى « علم الطب » على انه من علوم « فروض الكفاية » ، التى ينبغى أن يشتغل بها عدد كاف من المسلمين يكفى حاجات المجتمع ، والا اثم المسلمون . يقول الزرنوجى : « واما حفظ ما يقع فى الأحايين ففرض على سبيل الكفاية اذا قام (به) البعض فى بلدة ، سقط عن الباقين ، فان لم يكن فى البلدة من يقوم به اشتركوا جميعا فى المأثم ، فيجب على الامام أن يأمرهم بذلك ويجبر أهل القرية على ذلك » (١١) . ويقول طاش كبرى زاده: « علم الطب : وهو علم يبحث فيه عن بدن الانسان من جهة ما يصح ويمرض لحفظ الصحة وازالة المرض .. وموضوعه ، بدن الانسان من حيث الصحة والمرض ، ومنفعته بينة لا تخفى . وكفى بهذا العلم شرفا وفخرا قول الامام الشافعى رضى الله عنه : العلم علمان : علم الطب للأبدان ، وعلم الفقه للأديان ، ويروى عن الامام على بن ابى طالب كرم الله وجهه : العلوم خمسة : الفقه للأديان ، والطب للأبدان ، والهندسة للبنيان ، والنحو للسان ، والنجوم للأزمان » (١٢) . وتكثر الاشارة لأهمية الطب سواء فى كتب تصنيف العلوم ، أو ادبيات التربية الاسلامية ، أو تراجم الأطباء أو مقدمات كتب الطب . يقول ابن أصيبعة فى مقدمة كتابه : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء : « لما كانت صناعة الطب من أشرف

الصنائع وأربح البضائع وقد ورد تفضيلها فى الكتب الالهية والأوامر الشرعية ، حتى جعل علم الأبدان قرينا لعلم الأديان ، وقد قالت الحكماء : ان الطب نوعان : خير ولذة ، وهذان الشيئان انما يتم حصولهما للانسان بوجود الصحة . لأن اللذة المستفادة من هذه الدنيا والخير المرجو فى الدار الأخرى لا يصل الواصل اليها الا بدوام صحته وقوة بنيته وذلك انما يتم بالصناعة الطبية لانها حافظة للصحة الموجودة ورادة للصحة المفقودة ، فوجب اذا كانت صناعة الطب من الشرف بهذا المكان وعموم الحاجة اليه داعية فى كل وقت وزمان ان يكون الاعتناء بها أشد والرغبة فى تحصيل قوانينها الشكلية والجزئية أكد واجد » (١٣) . بل سنجد المولوى التهانوى فى مؤلفه « كشاف اصطلاحات الفنون » ينقل استحباب المسلمين « تعلم كل انسان من الطب قدر ما يمتنع به عما يضر بدنه » (١٤) . أما الزرنوجى المربى فيقول انه « لابد لطالب العلم من القوة ومعرفة ما يزيد فيه وما يزيد فى العمر والصحة ليتفرغ فى طلب العلم « لذلك » لابد ان يتعلم شيئا من الطب ويتبرك بالآثار الواردة فى الطب التى جمعها الامام ابو العباس المستغفرى فى كتابه المسمى «بطب النبى عليه السلام» (١٥) . ويقول خضر على بن الخطاب الطبيب فى مقدمة مخطوطه : « شفاء الأسقام ودواء الآلام » : « لما رأيت أن علم الطب اجل المفاخر والسعادات وأجمل المآثر والصناعات اذ به يحصل حياة النفوس والأرواح وصحة الأبدان والأشباح ، وبه يكون الخلاص من الأمراض والأسقام ، والمناص من الأعراض والآلام ، ومعلومه لا يتغير بتغير الملك والأديان ، ومحصوله لا يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة ... تركت الرقاد زمانا وارتكبت السهاد ، وآنا مشغوفا بتحقيق المسائل الطبية معرجا على مشاهدة الأعمال التجريبية » (١٦) . ويقول مظفر الدين الغيتابى المعروف بابن الأمشاطى فى مقدمة مخطوطه ، « شرح اللمحة العفيفة المسمى تأسيس الصحة » : « فلما كان علم الأبدان الذى جعل قرينا لعلم الأديان مما تعم الحاجة اليه فى كل حين وأوان ... الخ » (١٧) . ولعل هذه النصوص القليلة التى أوردناها على سبيل الاستشهاد أن توضح المنزلة الادبية التى احتلتها الدراسات الطبية فى المجتمع الاسلامى ، مما يمثل حافزا ادبيا واجتماعيا للاقبال على تلك الدراسة .

وهناك دافع أدبى آخر يتمثل فى أن الدراسات الطبية بدأت فى المجتمع الاسلامى كدراسات وافدة لها مصادرها اليونانية والسريانية والفارسية والهندية وظلت كذلك لفترة حتى بدت وكأنها صناعة غير اسلامية وغير عربية يكاد أن يحتكرها أهل الذمة من غير العرب ، بل وتكاد تحتكرها أسر معينة يتوارثها الأبناء عن الآباء (١٨) ، وحتى كاد أن يستقر فى أذهان العوام أنها صناعة لا يجيدها عربى أو مسلم . ومثلت تلك الظاهرة تحديا عقليا وحضاريا لا يمكن أن يقبله المسلم المثقف ، فسعى الى تغييرها واثبات قدرة العقل العربى المسلم على التفوق فى ميدان الطب . يروى لنا الجاحظ بأسلوبه الأدبى الناقد الساخر « ان طبيبا مسلما عربيا اسمه « أسد بن جانى » لم يقصده فى احدى السنين الوبئية التى نشأ فيها المرض على الرغم من علمه المعترف به وحذقه ومهارته الا القليل من المرضى ، ولما سأله أحد معارفه عن السبب فى هذا أجاب : « أما واحدة فانى عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن اتطبب بل قبل ان أخلق ان المسلمين لا يفلحون فى الطب ، واسمى أسد وكان ينبغى أن يكون صليبا أو جبرائيل أو يوحنا أو بيرا (ويعنى بذلك أن يكون الأسم سريانيا أو آراميا ، وكنيتى أبو الحارث وكان ينبغى أن تكون أبو عيسى أو أبو زكريا أو أبو ابراهيم ، ويعنى بهذا أن يكون مسيحيا أو يهوديا بدلا من كونه مسلما) وعلى رداء من قطن أبيض وكان ينبغى أن يكون رداء من حرير أسود ، ولفظى لفظ عربى وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جنديسابور (وهى بلدة فى الجنوب من فارس اشتهرت بالطب) » (١٩) .

كان الطب فى بدايته أجنبى اللغة ، أجنبى الزى والمصادر ، وقد يكون هذا جائزا فى بداية الطب الاسلامى ، وطالما راعى هؤلاء الذميون الأعاجم أصول الصنعة وآدابها وأخلاقها ، ولم يستغلوا تلك المهنة الاستغلال السىء من أجل المزيد من الثروة والنفوذ . ولكن الأمر فيما يبدو لم يمض غالبا على هذا المنوال ، اذ تطالعنا شواهد كثيرة على مخالفة آداب المهنة ، والسعى وراء مزيد من الثروة والنفوذ . ويكفى أن نذكر هنا قصة يوحنا بن ماسويه طبيب المأمون ، الذى نال من الثروة والنفوذ فى

بلاط الخليفة ما لم ينله طبيب ، ومع ذلك لم يتورع عن خيانته والاشتراك في قتله . يقول ابن اصيبعة نقلا عن الصولى فى كتاب « الأوراق » قال : « كان المامون نازلا على البذندون (نهر من اعمال طرسوس) فجلس يوما واخوه المعتصم عليه ، وجعلا أرجلهما فيه استبرادا له ، وكان أبرد الماء وارقه والذه . فقال المامون للمعتصم : احببت الســـاعة من ازاذ (نوع من التمر) العراق آكله واشرب من هذا الماء البارد عليه ، وسمع صوت حلقة البريد وأجراسه ، فقيل هذا يزيد بن مقبل بريد العـــراق ، فأحضر طبقا من فضة فيه رطب ازاذ ، فعجب من تمنيه وما تم له . فاكلا وشربا من الماء ونهضا ، وتودع المامون واقال ، ثم نهض محموما وفصد ، وظهرت في رقبته نفخة تعتاده ويراعيها الطبيب الى ان تنضج وتفتح وتبرأ فقال المعتصـــــم للطبيب وهو ابن ماســـــويه : ما أطرف ما نحن فيــه تكون الطبيب المفرد المتوحد فى صــــناعتك ، وهذه النفخة تعتاد أمير المؤمنين ، فلا تزيلها عنه وتتلطف فى حســــــم مادتها حتى لا ترجع اليه ، والله لئن عادت هذه العلة عليه لأضربن عنقك . فاستطرق ابن ماســــويه لقول المعتصم وانصرف . فحدث به بعض من يثق به ويأنس اليــه فقال له : « تدرى ما قصد المعتصم ؟ قال : لا ، قال : امرك بقتله حتى لا تعود النفخة اليـــه ، والا فهو يعلم أن الطبيب لا يقدر على دفـــع الأمراض عن الأجسام ، وانما قال لك لا تدعه يعيش ليعود المرض عليـــه » . فتعالل ابن ماســـويه وأمر تلميذا له بمشـــاهدة النفخة والتردد الى المامون نيابة عنه ، والتلميذ يجيئه كل يوم ويعرفه حال المامون وما تجـــدد له ، فأمره بفتح النفخة ، فقال أعيذك بالله ، ما احمرت ولا بلغت الى حد الجرح ، فقال له : امض وافتحها كما أقول لك ، ولا تراجعنى ، فمضى وفتحهـــا ومات المامون رحمه الله » . وبعد أن يورد ابن أصيبعة تلك الواقعة يعلق عليها بقوله : « اقول : انما فعل ابن ماســــويه ذلك لكونه عديما للمروءة والدين والأمانة وكان على غير ملة الاسلام ، ولا له تمسك بدينه أيضـــا كما حكى عنه يوسف بن ابراهيم فى اخباره المتقـــدمة ، ومن ليس له دين يتمسك به ويعتقد فيه فالواجب الا يدانيه عاقل ولا يركن اليه حازم » (٢٠).

واذا كان ابن أصيبعة يورد لنا كثيرا من الأمثلة على جشــع هؤلاء الأطباء عديمى المروءة والدين والأمانة ممن كانوا على غير ملة الاســلام فان ذلك لم يمنعه من أن يترجم للكثير منهم ، وان يعترف بفضلهم فى ميدان الطب ، وان يذكر مؤلفاتهم الطبية . كذلك فعل البيهقى فى كتابه تاريخ « حكماء الاسلام » ، اذ ترجم لأهل الاســلام كما ترجم لمن لم يمتل ملته بدون غرض أو هوى . فقد ترجم « لنحو عشرين منهم من أصــل مائة وخمسة عشر حكيما وأعطاهم حقهم غير منقوص عادا لهم جزءا من اجزاء العلم الاســلامى ،ومفخرة من مفاخر تلك الأقطار ، كأهل صناعتهم من المسلمين حذو القذة بالقذة » (٢١) ، مما يدل على أن روح التعصب الدينى لم تكن وراء هذا التحامل على هؤلاء الأطباء غير العرب أو المسلمين بل كان تقريرا للواقع . غير أن ذلك لم يمنع من وجود عدد من هؤلاء جمعــوا بين العلم وأخلاق المهنة . ويسوق لنا ابن أصيبعة أمثلة على ذلك نرى أن نورد أحدها هنا وهى تتعلق بحنين بن اســحاق . فقد ســمع الخليفــة المأمون بعلمه فأمر باحضاره ، وقرر له راتبا جيدا « وكان يســمع بعلمــه ولا يأخذ بقوله دواء يصفه حتى يشاور فيه غيره . وأحب امتحانه حتى يزول ما فى نفسه عليه ظنا منه أن ملك الروم ربما كان عمل شــيئا من الحيلة به . فاستدعاه يوما وأمر بأن يخلع عليه ، وأحضر توقيعا فيــه اقطاع يشــتمل على خمســين ألف درهم ، فشــكر له حنين هذا الفعل ثم قال ، بعد أشياء جرت ، أريد أن تصف لى دواء يقتل عدوا نريد قتله ، ولم يمكن اشهاره ، ونريده سرا . فقال حنين : يا أمير المؤمنين انى لم أتعلم الا الأدوية النافعة ، وما علمت أن أمير المؤمنين يطلب منى غيرها ، فان أحب أن امضى واتعلم فعلت ذلك . فقال : هذا شىء يطول . ورغبه وهدده ، وهو لا يزيد على ما قاله ، الى أن أمر بحبسه فى بعض القلاع ، ووكل به من يوصل خبره اليه ، وقتا بوقت ، ويوما بيوم فمكث سنة فى حبسه ودأبه النقل والتفسير والتصنيف ، وهو غير مكترث بما هو فيه . فلما كان بعد سنة أمر الخليفة باحضــاره واحضــار أموال يرغبه فيها ، واحضر سيفا ونطعا وسائر آلات العقوبات . فلما حضر قال : هذا شىء قد كان ، ولابد مما قلته لك ، فان أنت فعلت فقد فزت بهذا المال ، وكان

لك عندى اضعافه ، وان امتنعت قابلتك بشر مقابلة ، وقتلتك شر قتلة .
فقال حنين : قد قلت لأمير المؤمنين انى لم احسن الا الشىء النافع ، ولم اتعلم غيره . فقال الخليفة : فانى أقتلك . فقال حنين : لى ربى يأخذ بحقى غدا فى الموقف الاعظم . فان اختار امير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل .
فتبسم الخليفة وقال له : يا حنين طب نفسا وثق الينا ، فهذا الفعل كان منا لامتحانك ، لأنا حذرنا من كيد الملوك واعجبنا لننتفع بعلمك » . فقبل حنين الأرض وشكر له ، فقال الخليفة : يا حنين ما الذى منعك من الاجابة مع ما رايته من صدق عزيمتنا فى الحالين فقال حنين : شيئان يا أمير المؤمنين . قال : وما هما ؟ قال : الدين والصناعة . قال : كيف ؟ قال : الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا فكيف أصحابنا وأصدقائنا ؛ ويبعد ريحرم من لم يكن كذا ، والصناعة تمنعنا من الاضرار بأبناء الجنس لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم ومع هذا فقد جعل الله فى رقاب الأطباء عهدا مؤكدا بايمان مغلظة أن لا يعطوا دواء قتالا ، ولا ما يؤذى . فلم أر أن أخالف هذين الأمرين من الشريعتين . ووطنت نفسى على القتل ، فان الله ما كان يضيع من بذل نفسه فى طاعته ، وكان يثيبنى . فقال الخليفة : انهما لشريعتان جليلتان ، وأمر بالخلع فخلعت عليه ، وحمل المال بين يديه ، وخرج عنده وهو أحسن الناس حالا وجاها » (٣٢) .

واذا كان حنين قد اعتصم بدينه وأخلاق مهنته أمام هذا الاختبار القاسى ، والذى يعكس الكثير من سوء الظن وخشية مؤامرات العدو الرومى ، فقد كان هناك كثيرون آخرون يتاجرون بالمهنة ويتحكمون بها فى حياة الناس ، لذلك كان من الطبيعى أن يتجه المسلمون الى العلوم الطبية ويقبلون عليها دراسة وممارسة حتى يحولوها الى علوم عربية اسلامية ، وأن يتجه الحكام المسلمون الى انشاء المدارس الطبية التى يتفرغ فيها الطلاب المسلمون لدراسة الطب على يد أساتذة مسلمين (٣٣) . ولعل

المستنصر بالله « حين شرط أن يكون فى مدرسته (المستنصرية) طبيب حاذق مسلم وعشرة أنفس مسلمين يشتغلون عليه بعلم الطب ، انما فعل ذلك بعد أن رأى أهل الذمة قد استولوا على الطب واستفحل أمرهم وأخذوا يفسدون هذا العلم بقصد الثراء » (٢٤) . وقس على ذلك سائر المدارس الطبية والبيمارستانات الاسلامية التى أنشئت فى كثير من العواصم ، بحيث لم تمض مدة طويلة حتى زال هذا الاحتكار ، وأصبح الطب عربى اللغة ، اسلامى الروح والتقاليد ، يقول داود الانطاكى فى مقدمة كتابه « تذكرة أولى الألباب » : « فانى حين دخلت مصر ورأيت الفقيه الذى هو مرجع الأمور الدينية يمشى الى أوضع يهودى للتطبب به ، فعزمت على أن أجعله كسائر العلوم يدرس ليستفيده المسلمون » (٢٥) .

وبهذا الفهم الذكي وتلك الروح الجديدة كان الشافعي يقول : « لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب » . وكان يستنكر الا يقبل المسلمون على دراسة الطب بهمة عالية ويقول : ضيعوا ثلث العلم ووكلوه الى اليهودوالنصارى . وكان يقول : ان أهل الكتاب قد غلبونا على الطب . وحرص الشافعي مع عظمته فى علم الشريعة وبراعته فى العربية أن يكون بصيرا بالطب (٢٦) . ولقد كانت ثمرة هذا الحماس لتقريب الطب وتعميمه بين المسلمين ، أن أصبحت « المعلومات الطبية » شائعة بين الناس يتداولها المثقفون العاديون . وهذا هو المتنبى يصاب بالحمى وهو فى مصر فيصفها وصف العارف بأعراضها ، الخبير بعلاماتها فيقول : (٢٧)

وزائرتي كأن بها حياء .·. فليس تزور الا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا .·. فعافتها وباتت فى عظامي
يضيق الجلد عن نفسى وعنها .·. فتوسعه بانواع السقام
اذا ما فارقتنى غسلتنى .·. كأنا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجرى .·. مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق .·. مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر .·. اذا ألقاك فى الكرب العظام

وابن بطلان الطبيب يؤلف فى الطب بأسلوب ادبى وقصصى ممتـع كتاب : « دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة » فيمزج الطب بالأدب ، ويقربه الى القارىء العادى (٢٨) . وبذلك تحول الطب من علم أجنبى الى علم عربى اسلامى يستفيد به المثقف العادى فضلا عن أصحاب التخصص وطلاب الصنعة . واذا كان الجيل الأول من الأطباء المسلمين كانوا يعدون انفسهم اشبه بتلامذة للقدماء الافريقيين فى حين انهم وصـلوا الى نتائج جديدة رائعة ، فان الأجيـال التالية قد أدركت أنها قادرة على الابداع والوصول الى ما لم يصل اليه الاغريق من قبلهم ، وصاروا يعدون أنفسهم استمرارا لانجازات أساتذتهم المسلمين دون سواهم (٢٩) .

بجوار هذه الدوافع الأدبية والاجتماعية والدينية التى دفعت الكثيرين الى دراسة الطب ، كان هناك الدافع المادى والاقتصادى متمثلا فى هـذا العطاء السخى الذى كان يناله الطبيب فى صـورة أجور وهدايا وتلك المنزلة العالية التى كان يحتلها لدى العامة والخاصـة والحكام . وتمتلىء صفحات « عيون الأنباء » لابن أصيبعة بهذه الأجور والهدايا التى نالهـا الأطباء من العامة والخاصة على السواء (٣٠) . فلا غرابة أن يترك محمد ابن زكريا الرازى صناعة الذهب ويتجه الى دراسة الطب . يروى البيهقى « كان محمد بن زكريا الرازى فى بدء أمره صائغا ثم اشتغل بعلم الاكسير ، فذهب الى طبيب ليعالجه ، فقال له الطبيب : لا أعالجك حتى آخذ منك خمسمائة دينار . فدفع ابن زكريا الى الطبيب الدنانير ، وقال هـذا هو الكيمياء لا ما اشتغلت به . فترك صناعة الاكسير ، واشتغل بعلم الطب ، حتى نسـخت تصانيفه تصانيف من قبله من الأطباء المتقدمين » (٣١) . كذلك نال الأطباء الحظوة لدى الحكام والأمراء وذوى النفوذ ، وتبع ذلك كثير من المزايا المادية والأدبية . يقـول نظامى العروضى السـمرقندى فى أهمية الطبيب بالنسبة للحاكم : « فقوام الملك بالكاتب ، وتخليد الاسم بالشاعر ، ونظام الأمور بالمنجم ، وصحة البدن بالطبيب » (٣٢) ولعل خير ما نختم به هذا المبحث هو قول الرازى فى هذا الشـأن « ولو لم يكن لصناعة الطب وللأطباء من الفضل الا ما أنا ذاكره لكانت فيه كفاية . فإنه

قد اجتمع لهم خمس خصال لم تجتمع لغيرهم : الأولى اتفاق أهـل الملل والأديان على تفضيل صناعتهم . والثانية : اعتراف الملوك والسـوق بشـدة الحاجـة اليهم ، اذ هم المفزع والغياث ، حين لا ينفع عدة ولا عشيرة . والثالثة : مجاهدة ما غاب عن ابصارهم (من الأمراض) ، والرابعـة : اهتمامهم الدائم بادخـال السرور والراحـة على غيرهم . والخامسة : الاسم المشتق من أسماء الله تعالى . ولو لم يكن من فضـل الطبيب الا أن الانسان ربما يتشوق اليه حين يسأم أكرم الناس اليـه وأخصهم لديه ، فانه في العلل الصعبة ربما كره الانسان لقاء أهله وولده ويشتاق الى الطبيب ، ويتروح برؤيته ، وتطيب نفسه بحضوره ومشاهدته، لكان فيه مندوحة عن غيره » (٣٣) .

ثانيا : التعليم الطبي بين التخصص العميق والتخصص الضيق :

ان الدارس للطب الاسلامي سوف يلاحظ أن أعلامه لم يكونوا من أصحاب التخصص الضيق الذين يقتصرون على معرفة علومهم التخصصية فقط ، بل نراهم الى جوار ذلك أدباء وفلاسفة ورياضيين وعلماء فلك الخ. ويخطىء براون عندما يرجع ذلك الى مجرد أن جملة المعارف لم تكن حينئذ من الضخامة بحيث تتحدى قدرة شخص واحد على الاسـتيعاب ، وأنه لذلك فنادرا ما كنا نجد طبيبا في العصر الوسيط (يقصد العصر الاسلامي هنا) يقنع بأن يقصر اهتمامه على العلوم الطبية وحدها أو لا يرغب أن تشمل دراسته الفلك والتنجيم والموسيقى والرياضة بل والأخلاق وما وراء الطبيعة والسياسة (٣٤) . وذلك أن تلك الظاهرة لا تعود الى قلة معارف العصر فقط ، بل الى طبيعة النظرة الاسلامية الى وحدة المعرفة وترابط العلوم . اذ تعرض لنا كتب تصنيف العلوم الاسلامية هذه العلوم في صورة شجرة واحدة متعددة الفروع والأغصان ولكنها جميعا تزيد الانسان معرفة بالله وقربا منه . وهذا التصور الاسـلامي للمعرفة نراه بوضوح عند دراستنا لمصنفات مثل احصاء العلوم للفارابي ، ورسائل اخوان الصفا ، ومفاتيح العلوم للخوارزمي وغيرها من المؤلفات (٣٥) . وهو تصور يستند الى نصوص اسلامية مثل قوله تعالى : « سـنريهم آياتنا في الآفاق وفي

أنفسهم » (فصلت : آية ٥٣) . ولا شك أن هذا التصــور الاســلامى يختلف عن النظرة التخصصية الضيقة التى سادت العصر الحديث ، والتى سخر أحد العلمـــاء من جدواها قائلا : « انها معرفة الأكثر والأكثر عن الأقل والأقل » (٣٦) . ولقد كانت تلك النظرة التخصصية الضيقة سببا فى عزل « العلم الحديث » عن النظرة الشاملة الى الكون والحياة والانسان وعلاقة ذلك كله بالله (٣٧) .

لقد أدرك المسلمون مبكرا العلاقة بين العلوم بعضها ببعض ، وأن التخصص لا يعنى انفصـــال هذه العلوم ، بل ان بعض العلوم ضرورى لدراسة البعض الآخر ، وفى ذلك يقول ابن سينا : « تعاون العلوم هو أن يؤخذ ما هو مسألة فى علم مقدمة فى علم آخر ، فالعلم الذى فيه المسألة معين للعلم الذى فيه المقدمة . وهذا على وجوه ثلاثة : أحدها ، أن يكون أحد العلمين تحت الآخر فيستفيد العلم السافل فى مباديه من العالى مثـل الموسيقى من العدد والطب من الطبيعى والعلوم كلها من الفلسفة الأولى ، واما أن يكون العلمان متشاركين فى الموضوع كالطبيعى والنجومى فى جرم الكل ، فأحدهما ينظر فى جوهر الموضـــوع كالطبيعى والآخـــر ينظر فى عوارضه كالنجومى ، فان الناظر فى جوهر الموضوع يفيد الآخر المبادىء مثل اســـتفادة المنجم من الطبيعى أن الحـــركة الفلكية يجب أن تكون مستديرة ، واما أن يكون العلمان متشاركين فى الجنس واحدهما ينظر فى نوع بسيط كالحساب والآخر فى نوع أكثر تركيبا كالهندسة ، فان الناظر فى الأبسط يفيد الآخر مبادىء كما يفيد العدد الهندســـة مثل ما فى عاشرة اقليدس » (٣٨) . ولذلك فان الدارس للطب كان يجد نفسه محتاجا الى أن يقرأ قراءات واسعة فى شتى العلوم والمعارف التى تخدم مهنته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . وهـــذا هو التخصص العميق وليس مجـــرد التخصص الضيق الذى ساد عصرنا الحديث . يقول عبد المجيد عابدين فى تقديمه كتاب : « مقدمة فى تاريخ الطب العربى » : « ولعل هذا الكتاب خير دليل نسوقه الى الذين انزووا فى ممتم التخصص الضيق لا يغادرونه الا لماما . فالعلماء الذين لا يعرفون من الأدب والتاريخ الا اخبارا طائرة

لا غناء عنها ، والادباء والمؤرخون الذين لا يعرفون من العلوم وتاريخها الا معرفة خاطفة باهته لا تفترق كثيرا عن الجهل ، هؤلاء وأولئك جميعا لا ينهجون الطريقة المثلى ، ولا يزال تطور المعرفة يثبت لنا يوما بعد يوم أن المعرفة الانسانية شبكة متصلة لا يغنى بعضها عن بعض . ولست اعنى بهذا أن يكون المثقف متخصصا فى كل علم وفن . فهذا لا سبيل الى القول به ، بل اننى أعلم علم اليقين اننا الآن فى عصر شعاره التخصص العميق ، ولكن التخصص العميق كما نفهمه لن يؤتى ثمرته المرجوة الا اذا اتخذنا من المعرفة البشرية الواسعة وسيلة الى تحقيق هذا التخصص . وفرق بين التخصص الضيق وهذا التخصص العميق الذى نقصده . ولن يتاح للمتخصص هذا العمق الا اذا اتخذ من تخصصه محورا لدائرة واسعة من المعرفة تشمل كل ما تصل اليه طاقته من الوان الثقافات القديمة والحديثة العربية وغير العربية » (٣٩) .

ولقد ساعد على ذيوع تلك النظرة المتعمقة فى دراسة العلوم ، دين يجعل طلب العلم من المهد الى اللحد ، وادبيات تربوية تحث الطالب على التوسع فى العلوم والمعارف بقدر ما يستطيع ، ومجتمع يجزل العطاء للأفراد بقدر ما يتقنون من علوم ومعارف متعددة . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا بورك لى فى صحبة لا ازداد فيها علما » ويقول تعالى : « وقل رب زدنى علما » (طه ، آية ١١٤) « وفوق كل ذى علم عليم » (٤٠) (يوسف ، آية ٧٦) . ويقول طاش كبرى زاده موجها طالب العلم فى عصره : « ثم انك ان اخطرت بالبال ، أيها الطالب للفضل والكمال ، أن الفنون كثيرة ، وتحصيل كلها بل جلها يسيرة ، مع أن مدة العمر قصيرة ، وتحصيل آلات التحصيل عسيرة ، فكيف الطريق الى الخلاص عن هذا المضيق ، فتأمل فيما قدمت اليك من العلوم اسما ورسما، وموضوعا ونفعا ، وفيما اخترت من التفصيل فى طريق التحصيل ، ومن آداب بها فرس التمنى يثمر .. فان سهل عليك تحصيل تلك العلوم كلها فحبذا وقل : « الحمد لله الذى هدانا لهذا » (الأعراف : آية ٤٣) كما قال أفلاطون : ما من علم مستقبح الا والجهل به أقبح ، وكما قال القائل :

احرص على كل علم تبلغ الأمــلا ولا تموتن بعلم واحــد كســـلا
النحــل لما رعت من كل فاكهــة ابدت لنا الجوهرين الشمع والعسلا
الشمع فى الليل ضوء يستضاء به والشهد يبرى باذن البارىء العللا

وان أعجلك الوقت وخشيت ان يخترمك الشواغل بالفوت ، فخـذ ما قال القائل :

ما حوى العلم جميعــا أحــد لا ولو مارســـه الف ســنة
انما العــلم منيـــع غــوره فخذوا من كل علم احسنه » (٤١)

ولقد كتب هارون الرشيد الى الامصار بعطاء كل متعلم على قدر علمه فى رسالة وجهها الى الأمصار يقول فيها : « أما بعد : فانظروا من التزم الآذان عندكم فاكتبوه فى ألف من العطاء ، ومن جمع القرآن واقبـل على العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكتبوه فى ألفى دينـار من العطاء ، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه فى العلم واستبحر فاكتبوه فى اربعة آلاف من العطاء ، وليكن ذلك بامتحان الرجال الســـابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم فاسمعوا قولهم واطيعوا أمرهم فان الله تعالى يقول : « أطيعوا الله واطيعوا الرســـول وأولى الأمر منكم » (سورة النساء : الآية ٥٩) وهم أهل العلم » (٤٢) ورغم اشتهار كل عالم بفرع أو أكثر من فروع العلم كالطب والهندسة أو الفلك او الفقه أو الأدب ... (٤٣) الخ ، ورغم أنه على أساس تلك الشهرة ، كان ينال الحظوة من الأمراء والكبراء ، الا أن كتب الحضارة الاسلامية تذكر أنه كان لكل طائفـــة من العلمـــاء رزق محدود من لدن الأمراء ، وأن بعض العلماء كان يأخذ رزقا أكثر من طائفة واحدة أمثال الزجاج المتوفى عام ٣١٠ هـ فقد كان له رزق فى الندماء ، ورزق فى الفقهـــاء ، ورزق فى العلماء (٤٤) . وكان سيف الدولة بن حمـــدان « اذا اكل الطعـــام حضر على مائدته أربعة وعشرون طبيبـــا ، وكان بينهم من يأخـــذ رزقين لأجل تعاطيه علمين ، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيـــه ثلاثة علوم ، وكان من جملتهم عيسى الرقى المعروف بالتفليسى ، وكان مليح الطريقة وله كتب فى المذهب وغيرها . وكان ينقل من السريانى الى العربى ، ويأخذ أربعة أرزاق ،

رزقا بسبب الطب ، ورزقا بسبب النقل ، ورزقين بسبب علمين آخرين » (٤٥) .
بل ان مدى ما يتقن الانسان من علوم كان احد العوامل التى تؤثر حتى على ثمن الجوارى . فقد عرضت جارية موهوبة للبيع على هارون الرشيد بثمن باهظ ، ووافق الخليفة على دفع هذا الثمن بشرط أن تجيب الجارية على أى سؤال يوجهه اليهـا أعلم الحاضرين فى تلك الفروع من المعرفة التى كانت تدعى النبوغ فيها . وبدأ كبار علماء الدين والتفسير والطب والفلك والفلسفة والبلاغة والشطرنج يمتحنونها الواحد تلو الآخر ، وفى كل فرع من هذه الفروع لم تكتف الجارية باجاباتها البارعة ، على كل ما وجه اليها من أسئلة ، ولكنها كانت تطرح على أستاذ كل فرع فى نهاية الامتحان عددا من الأسئلة لم يحر لهـا جوابا . وكان الامتحان الخاص بالطب يشتمل على موجز علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وتشخيص الأمراض من واقع الأعراض ، وعلم الأمراض والصحة والتغذية الى غير ذلك من فروع الطب (٤٦) . واذا كان هـذا هو تقدير المجتمع لثقافة الجوارى ، فماذا عن تقديره لثقافة العلماء ؟ وهل نستغرب بعد ذلك هذا الاقبال على التخصص العلمى بالمعنى العميق ، وهـذا التبحر فى علوم الطب وغيرها من العلوم الخادمة أو المساعدة ؟ وهل اتضح لنـا بعض أسرار هـذا التفوق العلمى فى ميدان الطب الذى حققه العلماء المسلمون فى مدة وجيزة ، بحيث حولوا العلوم الطبية من دراسات دخيلة الى علوم عربية اسلامية أصيلة ؟ .

ثالثـا — مؤسسات التعليم الطبى :

بعد أن تحدثنا عن العوامل المادية والأدبية التى دفعت الى دراسة الطب ، وبعد أن بينا أن الاتجاه الى تعليم الطب كان اتجاها يأخذ بالتخصص العميق ، نريد أن نعرض هنا لأهم المؤسسات التربوية التى مارست هـذا التعليم الطبى .

١ — المسـاجد :

منذ أنشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده فى المدينة كمكان للعبادة والتعليم وادارة شئون المسلمين (٤٧) ، ومنذ نزل قوله تعالى :

« الذين ان مكناهم فى الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » (الحج ، الآية ٤١) ، أصبح تقليداً اسلاميا أن يهتم الحكام المسلمون بانشاء المساجد كرمز لقيام دولة الاسلام وسيادته على الأقطار الداخلة فيه . وتمثل المساجد الجامعة الكبيرة فى العواصم الاسلامية رموزا حضارية لسيطرة الاسلام السياسية والدينية والثقافية ، وكانت تلك المساجد عبر العصور أماكن علم وعبادة وقيادة وتوجيه ، ويذكر المؤرخون أمثلة لذلك : جامع عمرو بن العاص بالفسطاط الذى انشىء سنة ٢١ هـ ، وجامع العسكر الذى أنشىء عام ١٣٣ هـ وجامع أحمد بن طولون الذى انشىء عام ٢٥٩ هـ ، والجامع الأزهر الذى أنشىء عام ٣٦١ هـ ... الخ (٤٨) . اذ كانت هذه المساجد الجامعة مركزا للنشاط الدينى والاجتماعى ، ومكانا للاحتفالات الدينية فى الأعياد والمناسبات الاسلامية ، ومقرا لرجال القضاء والحسبة يباشرون منه تنفيذ أحكامهم ، ومؤسسة للتعليم بشتى أنواعه النقلية والعقلية ، يجلس بجوار اعمدته الأساتذة والمعلمون فيلتف الطلاب حولهم وينهلون من علومهم ومعارفهم . ولعل فيما يذكره ابن تغرى بردى ، والمقريزى عما كان يدور فى الجامع الأزهر ان يعطى صورة عامة عما كانت تعج به تلك المساجد الجامعة من أوجه النشاط الدينى والثقافى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى (٤٩) .

وبجوار هذه المساجد الجامعة فى العواصم ، انتشرت المساجد فى مدن العالم الاسلامى ، وقراه ، لكى تقوم بدورها الدينى والتربوى فى حياة المسلمين (٥٠) . ولقد اشرنا فى الفصل السابق الى دور المسجد فى التعليم الابتدائى ، **ويهمنا هنا ان نبرز دوره فى التعليم الأعلى المتخصص** Further Education ، وبالذات التعليم الطبى موضوع الدراسة . فقد يظن البعض أن « التعليم الطبى » كان خارج اهتمام دائرة المساجد ، لأن علم الطب كان نوعا من فروع « العلم الطبيعى » وهو من العلوم العقلية لا النقلية ، أو على اساس أن دراسة الطب تحتاج الى أدوات وتجهيزات خاصة ، وممارسات عملية ليس مكانها المسجد ، ولكن هناك إشارات عديدة تنفى ذلك ، وتؤكد أن أعلام الطب الاسلامى قد مارسوا

تدريس الطب فى المساجد الجامعة وغير الجامعة ، فالبيهقى عند ترجمته للقاضى الفيلسوف محمد الأفضـل عبد الرازق يقول : « وكان القـاضى عبد الرازق ببخارى يدرس فى مسجد محلته الطب والحساب حتى توفى بها ، وكان محترما مكرما » (٥١) . وابن أصيبعة يذكر أن موفق الدين عبد اللطيف البغدادى كان يدرس الطب فى الجامع الأزهر طوال مدة اقامته فى مصر . وينقل عن سيرته الذاتية التى كتبها البغدادى نفسه : « وكانت سيرتى فى هذه المدة ، اننى اقرىء الناس بالجامع الأزهر من أول النهار الى نحو الساعة الرابعة ، ووسط النهار يأتى من يقرأ الطب وغيره ، وآخر النهار ارجع الى الجامع الأزهر فيقرأ قوم آخرون ، وفى الليـل اشـتغل مع نفسى » (٥٢) . ولقد نزل البغدادى مصر فى عهد صلاح الدين الأيوبى عام ٥٨٣ هـ ، وظـل بهـا حتى سنة ٥٩٧ هـ ، واشتغل فى تلك الفترة بالتدريس ودراسة الخواص النباتية والطبيعية ومزاولة الطب ، والتف حوله جمهرة من الأساتذة والطلاب (٥٣) . ومثل هـذه الشواهد تؤكد أن الطب عندما عرب ، واشتغل به الأطبـاء المسلمون ، فانهم ادخلوه ضمن فروع العلم الاسلامى ، أو شجرة المعرفة الاسلامية ، ومن ثم وجد طريقه الى المسجد ، أهم المؤسسات التعليمية فى حيـاة المسلمين .
ومن المرجح أن يكون « التعليم الطبى » الذى مارسه العلماء فى المساجد مقتصرا على « الجانب النظرى » من الدراسات الطبية ، تاركين الجانب العملى والتطبيقى الى المدارس والبيمارستانات . ويظل التعليم الطبى يدرس فى رحاب المسجد بصورة أو بأخرى طوال العصـور الاسلامية وحتى مطلع العصر الحديث ، عندما يصبح « التعـليم الطبى » مقترنا مرة أخرى باللغة الأجنبية ، وبالأخذ من مصادر غير عربية أو اسلامية ، وعندما يسود الاعتقاد الخاطىء ان المساجد للعبـادة ، وللتعليم الدينى فى احسن الأحوال ، أما العلوم الحديثة فلها مؤسساتها المستحدثة المأخوذة عن الغرب (٥٤) . وهنا ينفصل الطب عن شجرة « المعرفة الاسلامية » ، وينمو بعيدا عن « روح المسجد » وهيمنة تعاليم الاسلام وسيطرة اللغة العربية على أبحاثه ودراساته .

٢ — المدارس الطبية :

ظهرت المدارس كمؤسسات تعليمية متخصصة فى تقديم الوان العلوم النقلية والعقلية ومنها الطب ، ووقف الدارسون أمام ظهورها محاولين تفسير أسبابه ، ولماذا لم يكتف المسلمون بالمساجد لتحقيق تلك الغاية ؟ وراوا أن ظهورها كان تطورا طبيعيا لتنوع العلوم وشدة اقبال الناس على حلقات العلم حتى حفلت كثير من المساجد بعدة حلقات دراسية لا بحلقة واحدة ، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس يلقى الدرس ، واصوات الطلاب يسألون ويناقشون وكانت تتلاقى الأصوات المتصاعدة من الحلقات المختلفة فتحدث فى المسجد شيئا قليلا أو كثيرا من الضجيج يمنع الصلاة والعبادة من أن تؤدى على وجهها ، وشىء آخر هو ان العلوم تطورت بتطور الزمن وتقدم المعارف وأصبحت هناك مواد تستدعى دراستها كثير من الحوار والنقاش والجدل كعلم الكلام وعلم الجدل والمناظرة ، ومثل هذه المواد تنافى طبيعة تدريسها مع ما يجب ان يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال ، ثم تبعا لرأى Von Kremer « كان هناك جماعة اشتغلوا بالتعليم معظم وقتهم وحاولوا إن يرتزقوا عن طريق حرف بسيطة كانوا يقومون بها مع التدريس ولكنهم فشلوا فى الحصول على مستوى مناسب من العيش ، فلم يكن بد حينئذ من انشاء المدارس لتضمن لهم جرايات تقوم بحاجاتهم » (٥٥) .

ورغم وجاهة هذه الأسباب السابقة الا انها تتغافل السبب الجوهرى الذى يتمثل فى « روح الخير العام » الذى يسود المجتمع الاسلامى ، والذى يلتمس أفضل أبواب الانفاق فى سبيل الله ، وافضل أسباب الحصول على رضاء الله . ولا شك أن الانفاق على نشر العلم والتعليم كان من أهم ابواب هذا الانفاق — يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » . وفهم المسلمون ان الوقف على التعليم هو افضل انواع الصدقات الجارية فظهرت الأوقاف التعليمية وزادت ايراداتها ، واندفع الخلفاء والأمراء والأثرياء والعلماء الى انشاء أنواع متعددة من المدارس يتفرغ فيها الطلاب والأساتذة لدراسة علوم معينة يحددها

الواقف (٥٦) . ولقـد امتاز التعليم فى المدارس بانه تعليم نظامى طـول الوقت (٥٧) Full time ويقول « خودابخش » : « ان عددا كبيرا من الطلاب كان يسكن هذه المدارس التى يمكن تشبيهها بالكليات الداخلية فى جامعتى اوكسفورد وكمبردج » (٥٨) .

ولقد كانت معظم هذه المدارس آية من آيات الفن الاسلامى انفقت فى بنائهـا الأموال الطائلة وحبست عليهـا الأوقاف العظيمة ، وجعلت الرواتب السخية لأساتذتها وطلابها والموظفين بها . فمدرسة السلطان حسن (٧٥٧ هـ) على سبيل المثال تعد من اعظم الآثار الاسلامية فى العالم واروعها فى مصر . وتلخص لنا واجهتها الرئيسية جميع خصائص الفن الاسلامى . ففيها الخط الكوفى والخط النسخى وفيها الزخارف التى نقلها المسلمون من الامم والزخارف التى ابدعوها وصـارت من اخص مميزات فنهم (٥٩) . وتصميم المدرسة من الداخل وما به من افنية ومبان رائعـة يعطى صورة جيدة لتصميم المبانى المدرسية ، ومحتويات المبنى المدرسى . ونفس الصورة نجدها فى تصميم المدرسة المستنصرية وما اشتملت عليـه من حمامات ومطابخ وحدائق وساعة عجيبة الصنع عملت لترشد الناس الى اوقات الصلاة والدراسة كما أنها عملت بشكل غريب لطيف لتكون زينة تحلى باب المدرسة . ولقد استوقف جمال هذه الساعة انظار المؤرخين فنقلوا لنا وصفها واسم صانعها نور الدين على بن تغلب الساعاتى . ويقول صاحب الحوادث الجامعة : « وفى سنة ٦٣٣ هـ تكامل بناء الايوان الذى انشىء مقابل المدرسة المستنصرية وعمل تحته صفة يجلس فيهـا الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ، ويقصده المرضى ويداويهم ، وبنى فى حائط هذه الصفة دائرة وصور فيهـا صورة الفلك وجعل فيها طاقات لطاف لها أبواب لطيفة ، وفى الدائرة بازان من ذهب فى طاستان من ذهب ، وراءهما بندقتان من شبه (نحاس يصبغ فيصفر ويشبه الذهب بلونه) لا يدركهما الناظر . فعند مضى كل ساعة ينفتح فما البازين ويقع منهما البندقتان وكلما سقطت بندقة انفتح باب من ابواب تلك الطاقات ، والباب من ذهب فيصير حينئـذ مفضضا ، واذا وقعت البندقتان فى الطاستين تذهبـان الى موضعهما ثم تطلع اقمار من ذهب

فى سماء لازوردية فى ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقيـــة ، وتدور مع دوراتها وتغيب مع غيبوبتها فاذا جاء الليل فهناك اقمار طالعة من ضوء خلفها كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء فى دائرة القمر ، ثم يبتدىء فى الدائرة الأخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس فيعلم بذلك أوقات الصلاة » (٦٠) . كذلك نلاحظ أن المسجد كان يمثل جزءا هاما من المبنى المدرسى ، وأن افتتاح المدرسة كان يؤرخ له بتاريخ أول صلاة اقيمت فيها . فعنـــد التاريخ لافتتاح مدرسة الطب التى انشأها مهـــذب الدين يقول ابن أصيبعة : « وابتدأ بالصلاة فى هذه المدرسة يوم الجمعة صلاة العصر ثامن ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وستمائة » (٦١) . ولا شـــك أننـــا لو درسنا تصميم المبانى المدرسية الاسلامية وما اشتملت عليه من مرافق ، وما روعى فيهـــا من أصول هندســـية وفنية واســـلامية ، لاستفدنا كثيرا فى تطوير تصميمات حديثـــة لمدارسنا نراعى فيهـــا تلك القيم الجماليـــة والاسلامية .

ويروى لنا المؤرخون ان علماء ما وراء النهر اصابهم الهم والحزن عندما كوشفوا ببناء المدارس ببغداد ، وأنهم اقاموا مأتم العلم وقالوا : كان يشتغل به أرباب الهمم العالية والأنفس الذكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفعون بهم وبعلمهم » ، واذا صار عليه أجرة تدانى اليه الأخساء وأرباب الكسل (٦٢) . الا أن هذا الخوف سرعان ما تبدد ، اذ ارتفع أكثر علماء المدارس وطلابهـــا الى مستوى المسئولية العلمية ، ومارســوا واجبهم العلمى دون الخضوع لأهواء الحكام ، بحيث كانوا محترمين لهم كرامة وحرمة ، يسعى اليهم الخلفاء والملوك والأمراء وهم لا يسعون الى احد منهم (٦٣) . وبذلك انتشرت المدارس انتشارا كبيرا ، حتى أن المقريزى يذكر لنا ثلاثا وستين مدرسة كانت فى القـــاهرة وحدها ، والرحالة ابن جبير يصف لنا حوالى ثلاثين مدرسة كانت فى بغداد ، وكانت جميعها تفوق اجمل القصور جمالا وروعة (٦٤) . والنعيمى الدمشقى يفرد مؤلفا خاصا يصف فيه مدارس دمشق وحدها (٦٥) . ويهمنا أن نلفت النظر هنا الى توفر التجهيزات العلمية لتلك المدارس وبالذات المدارس الطبية موضوع الدراسة ، ونسبة المدرستين الى عدد الطلاب ، والمستوى

المعيشى الجيد للطلاب والعلماء . ويكفى ان نذكر هنا انه فى مدرسة الطب بالمستنصرية ، كان هناك طبيب ، يعلم عشرة طلاب فقط ، وكان هـذا الطبيب مسئولا عن علاج طلاب واعضاء هيئة تدريس المستنصرية بمدارسها المختلفة ، مما يعتبر مجالا حيويا له ولتلامذته لاجراء التجارب ومعالجـة المرضى ، كذلك ضمت المستنصرية دار كتب عامرة بأنواع المؤلفات بلغ عددها عند الافتتاح ثمانين الف كتاب عدا ما حمل اليها بعد ذلك ، وكانت هـذه الدار تساعد طلاب المستنصرية على النسخ والمطالعة والتاليف ، كذلك فقد توفر للطلاب والعلماء المستوى المادى والادبى والحرية العلمية مما اتاح لهم التفرغ للعلم والبحث (٦٦) .

كذلك ينبغى الاشارة هنـا الى ان انشاء المدارس لم يكن عمـلا حكوميا رسميا فقط ، وأن الحركة الواسعة التى قام بهـا نظام الملك فى بلاد الشـام ، وصلاح الدين الأيوبى فى مصر من انشـاء عـدد كبير من المدارس لا يمكن ان يحجب الحقيقة ، وهى ان الافراد ايضا قد انشأوا الكثير من المدارس ومنها المدارس الطبيـة ، ولقد سبق ان ذكرنا كيف ان المسلمين قد ادركوا الحاجة الي تعريب التعليم الطبى والحاجة الى كسر احتكار غير العرب والمسـلمين لصناعة الطب مما دفعهم الى الاهتمام بانشاء المدارس الطبية حكاما وافرادا . وكان بعض الاطباء مثل رضى الدين الرحبى « يرى ان لا يقرىء احدا من أهل الذمة اصـلا صناعة الطب ، ولا ان يجده أهلا لها .. وكان يعطى الصناعة حقها من الرئاسة والتعظيم . وقال لى انه لم يقرىء فى سائر عمره من أهل الذمة سوى اثنين لا غـير احدهما الحكيم عمران الاسرائيلى والآخر ابراهيم بن خلف السـامرى بعد ان ثقلا عليه بكل طريق وتشفعا عنده بجهات لا يمكن ردهم . وكل منهما نبغ وصار طبيبا فاضلا » (٦٧) .. ومما يدل على ان انشاء المدارس الطبية لم يقتصر على الطبقات الحاكمة ما رواه ابن اصيبعة فى ترجمة شرف الدين الرحبى : « ولما وقف شيخنا مهذب الدين عبد الرحيم بن على رحمه الله الدار التى له بدمشق وجعلها مدرسة يدرس فيها صناعة الطب وينتفع المشتغلون بقراءتهم فيها ، أوصى أن يكون مدرسها شرف الدين بن الرحبى ،

لما قد تحققه من علمه وفهمه ، فتولى التدريس بها مدة ... الخ » (٦٨) ، ثم صار المدرس فيها بعد الحكيم بدر الدين المظفر رئيس الأطباء فى ذلك الوقت (٦٩) . ولقد وقف مهذب الدين لتلك المدرسة « ضياعا وعدة أماكن يستغل ما ينصرف فى مصالحها ، وفى جامكية المدرس وجامكية المشتغلين بهـــا » (٧٠) .

ويقف احمد شلبى عند ظاهرة قلة عدد مدارس الطب ، بالقياس الى عدد المدارس الأخــرى ، ويرجع ذلك الى أن الطب كان لا يدرس فى مدارس خاصة الا قليــلا ، والغالب أن يدرس فى المستشفيات ليمكن التطبيق العملى للنظريات الطبية التى يلقيها الأساتذة على الطلاب (٧١) . ويمكن أن يضاف الى ذلك أن عدد المؤسسات التعليمية الطبية انما يتوقف على مقدار حاجة المجتمع الى عدد معين من الأطباء ، وهو عدد أقل قطعا من عدد غيرهم من المثقفين . ولعــل فى وجود ستة آلاف دارس للطب وحوالى ألف ممارس طبى فى بغداد وحدها (٧٢) ، ما يكفى لكى يجعــل الواقفين يتجهون بأوقافهم الخــيرية الى مؤسسات تعليميـــة أو خدمات اجتماعية أخرى يشعرون بحاجة المجتمع اليهـــا أكثر وأكثر . كذلك فانه مع تعريب التعليم الطبى وتيسيره للدارسين ، دخل الطب المساجد ، وعقدت له حلقات فى منازل الأطباء ودور الكتب وغـــيرها من مؤسسات التعليم ، مما قلل الحاجة بالفعل لتخصيص مزيد من الأوقاف لانشـــاء « مدارس الطب » ، وهذا يفسر لنا لماذا جاءت « مدارس الطب » أقل عددا من غيرها من المدارس فى المراجع والمصادر العربية . ولكنها على كل حال ، قلة تلغى دورها كمؤسسة تخصصت فى تقديم التعليم الطبى .

٣ — البيمارســتانات :

كلمة البيمارستان ، كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض أو عليل أو مصاب ، (وستان) بمعنى مكان أو دار ، فهى اذن دار المرضى ، ثم اختصرت فى الاستعمال فصارت مارســـتان كما ذكرها الجوهرى فى صحاحه (٧٣) . ويرى المسلمون أن ابقراط كان أول من اخترع البيمارســـتانات وأوجدها ، وذلك أنه عمل بالقرب من داره فى موضـــع

من بستان كان له موضعا مفردا للمرضى وجعل فيه خدما يقومون بمداواتهم وسماه أخسندوكين ، اى مجمع المرضى (٧٤) . اما فى الاسلام ، فان الوليد ابن عبد الملك الخليفة الأموى (فى سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م) يعتبر أول من بنى البيمارستان ، وجعل فيه الأطباء وأجرى لهم الأرزاق ، وأمر بالحجر على المجذومين لئلا يخرجوا فتنتشر العدى بين الناس ، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق (٧٥) . ومنذ هذا التاريخ أصبح بناء البيمارستانات عملا من اعمال الخير يقوم به الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء وأهل الخير على العموم صدقة ، وحسبة ، وخدمة للانسانية وتخليدا لذكراهم (٧٦) . وانتشرت البيمارستانات فى كل العواصم العربية والاسلامية فى مرو والرى ودمشق وانطاكية ومكة والمدينة والقاهرة والقيروان ومراكش وغرناطة وغيرها (٧٧) . ولدينا معلومات موثقة على نحو اربع وثلاثين من هذه المؤسسات الموزعة فى ارجاء العالم الاسلامى من ايران الى المغرب ومن شمال سورية الى مصر (٧٨) . لعل من اشهرها بيمارستان المقتدرى والسيدة فى بغداد وبيمارستان ابن طولون والداودى فى القاهرة ، ومستشفى السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ومستشفى يعقوب المنصور فى مراكش (٧٩) .

ولقد تم اختيار الأماكن المناسبة لاقامة تلك المؤسسات الطبية ، واختيار اشهر أطباء العصر للعمل بها كأطباء وأساتذة فى نفس الوقت . من ذلك أن عضد الدولة عندما اراد بناء البيمارستان العضدى جمع الأطباء واستشارهم فى الموضع الذى يجب أن يبنى فيه المارستان ، وكان الرازى فى جملة من اجتمع على هذا الامر ، فأمر أن يعلق بعض الغلمان فى كل ناحية من جانبى بغداد شقة لحم ، ثم اختار الموضع الذى لم تتغير فيه رائحة اللحم بسرعة موضعا لبناء تلك المستشفى ، ثم أمر عضد الدولة أن يحضروا له ذكر الأطباء المشهورين حينئذ ببغداد وأعمالها ، فكانوا متوافرين على المائة ، فاختار منهم نحو خمسين بحسب ما علم من جودة أحوالهم وتمهرهم فى صناعة الطب ، فكان الرازى منهم ، ثم أنه اقتصر من هؤلاء ايضا على عشرة ، فكان الرازى منهم ، ثم اختار من العشرة ثلاثة فكان الرازى احدهم . ثم انه ميز فيما بينهم فبان له أن الرازى افضلهم ، فجعله ساعور

(متفقد المرضى ورئيس الأطباء) البيمارستان العضدى ، وعين معه أربعة وعشرين طبيبا من مختلفى التخصصات ، فكان من الطبائعيين أبو الحسن بن كشكرايا المعروف بتلميذ سنان ، وابو يعقوب الأهوازى وبنو حسنون وغيرهم . وكان فى البيمارستان من الكحالين الفضلاء ابو نصر بن الدحلى ، ومن الجراحين ابو الخير وأبو الحسن بن تفاح وجماعته ، ومن المجبرين المشار اليهم ابو الصلت (٨٠) .

وقد اغدق الملوك والسلاطين والأمراء وأهل الخير على بناء تلك البيمارستانات واعدادها وتجهيزها بكل ما تحتاج اليه من أطباء وادوية واسرة وخدمات ، بحيث اتسعت خدماتها لتشمل القادرين وغير القادرين المقيمين من اهل البلدة والغرباء والوافدين عليها ، المسلمين واهل الذمة على السواء (٨١) . كذلك فقد توافر لتلك المؤسسات أن تكون اماكن صحية من حيث تصميم حدائقها وافنيتها ونافوراتها جنبا الى جنب مع تصميم بنائها الهندسى واقسامها الطبية بجوار ما نالته من رعاية وعناية الحكام . يقول ابن جبير عند وصفه لبيمارستان صلاح الدين بالقاهرة : « ومما شاهدناه ايضا من مفاخر هذا السلطان المارستان الذى بمدينة القاهرة . وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا ، أبرزه لهذه الفضيلة تأجرا واحتسابا ، وعين قيما (رئيس الأطباء) من أهل المعرفة ووضع لديه خزائن العقاقير ، ومكنه من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف انواعها . ووضعت فى مقاصير (غرف) ذلك القصر اسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى . وبين ذلك القيم خدمة (أطباء ممارسون) يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم . وبازاء هذا الموضع ، موضع مقتطع للنساء المرضى ، ولهن أيضا من يكفلهن ، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء به مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت مجالس للمجانين ، ولهم أيضا من يتفقد فى كل يوم احوالهم ، ويقابلها بما يصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد » (٨٢) . أما فى المغرب فان عبد الواحد المراكشى يقدم لنا وصفا لمستشفى مراكش ، يكاد يعكس نفس الملامح

العامة للبيمارستانات فى الاسلام . يقول : « بنى يعقوب المنصور فى مدينة مراكش بيمارستانا ما اظن ان فى الدنيا مثله ، وذلك أنه تخير له ساحة فسيحة باعدل موضع فى البلد ، وامر البنائين باتقانه على احسن الوجوه ، فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح ، وامر ان يغرس فيه مع ذلك جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات ، واجرى فيه مياها كثيرة ، تدور على جميع البيوتات (حجرات المستشفى) ، زيادة على اربع برك فى وسط احداها رخام أبيض ، ثم امر له من الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتى فوق النعت ، واجرى له ثلاثين دينارا فى كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب اليه من الادوية ، واقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والاكحال ، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فاذا برىء المريض فان كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل ، وان كان غنيا دفع اليه ماله وتركته وسيبه . ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء ، بل كل مريض بمراكش من غريب حمل اليه وعولج الى أن يستريح أو يموت . وكان المنصور فى كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخل (البيمارستان) يعود المرضى ويسال عن اهل بيته (الاقسام الداخلية) ، يقول : كيف حال القومة (الأطباء المدارسين) عليكم ؟ الى غير ذلك من السؤال ثم يخرج . ولم يزل مستمرا على ذلك الى أن مات ، رحمه الله » (٨٣) .

ولم تكن مهمة هذه البيمارستانات فى الغالب قاصرة على مداواة المرضى بأقسامها الداخلية والخارجية ، بل كانت فى نفس الوقت معاهد علمية ، ومدارس لتعليم الطب يتخرج منها المتطببون والجراحون « الجرائحيون » والكحالون كما يتخرجون اليوم من مدارس الطب (٨٤) . بل لفضل طلبة الطب فى العصر الاسلامى قد أتيح لهم من فرص التدريب العملى والملاحظة السريرية ، وتفرغ الأساتذة للتعليم To train doctors واعطاء المثل الجيد للممارسة To set an Example to practice ما لم يتح

لاكثر طلاب الطب لدينا الآن . فقد تعـدد وجود الأطباء فى البيمارستان الواحـد ، مما أتاح للطـلاب رؤية كثير من أمثـلة الفحص والعـلاج Clinical demonstration والحكم السريرى الجيد Clinical judgement (٨٥) .

وعلى سبيل المثـال ، فان البيمارستان الكبير بدمشق كان يضم بجوار مهذب الدين الدخوار رئيس أطباء عصره ، والحكيم عمران « وهو من أعيان الاطباء وأكابرهم فى المداواة والتصرف فى أنواع العلاج ، فتضاعفت الفوائد المقتبسـة من اجتماعهما ، ومما كان يجرى بينهما من الكلام فى الأمراض ومداواتها ومما كانا يصفاه للمرضى » (٨٦) . وكان معهما ايضـا فى نفس البيمارستان الشيخ رضى الدين الرحبى — الذى كان مسئولا عن العيـادة الخارجية — « وهو من أكبر الأطباء سنا وأعظمهم قدرا واشهرهم ذكرا ، وكان يجلس على دكة ويكتب لمن يأتى الى البيمارستان ، ويستوصف منه للمرضى اوراقا يعتمدون عليها ويأخذون بهـا من البيمارستان الأشربة والأدوية التى يصفها » . ويذكر لنا ابن أصيبعة انه كان بعد أن « يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان (الأقسام الداخلية) وانا معهم ، أجلس مع الشيخ رضى الدين الرحبى فاعاين كيفية استدلاله على الأمراض ، وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم ، وابحث معه فى كثير من الأمراض ومداواتها » (٨٧) .

كذلك فقد ضمت تلك البيمارستانات « مكتبات طبية » يرجع اليها الطلاب والأساتذة ، اذ لا يكتفى الاساتذة بالشرح ، بل يأخذون الطلاب الى المكتبة ، ويدلونهم على المراجع فى موضوع الدرس . وقد يظل الطلاب فى قراءات ومناقشات مع الأساتذة داخـل المكتبة بالساعات الطوال . ويصف لنا ابن أصيبعة صورة من ذلك عند ترجمته لأبى المجد بن أبى الحكم الذى كان طبيبـا بالبيمارسـتان الكبير الذى انشـاه نور الدين زنكى (١١١٨ — ١١٧٤) بدمشق . فقد كان أبو الحكم « يدور على المرضى به ، ويتفقد احوالهم ، ويعتبر امورهم ، وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى فى ذلك ... وكان بعد فراغه من ذلك وطلوعه الى القلعـة

وافتقاده المرضى من اعيان الدولة * ، يأتى ويجلس فى الايوان الكبير الذى للبيمارستان وجميعه مفروش ، ويحضر الاشتغال . وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية ، وكانت فى الخرستانين (الخزانتين) اللتين فى صدر الايوان ، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون اليه ، ويقعدون بين يديه ثم تجرى مباحث طبية ويقرىء التلاميذ ، ولا يزال معهم فى اشتغال ومباحثة ونظر فى الكتب مقدار ثلاث ساعات ، ثم يركب الى داره » (٨٨) . ولعل ما كان يفعله ابو الحكم يعطى صورة لعمل عضو هيئة التدريس بالبيمارستانات الاسلامية . فهو يمارس الكشف والعلاج وحوله الطلاب ، ثم بعد ذلك ينصرف معهم الى القراءة والمناقشة والبحث الطبى فى الحالات المرضية التى تستدعى ذلك ، ويعجب الدارس لاهتمام المسلمين بالمكتبات الملحقة بتلك البيمارستانات وتزويدها باعداد ضخمة من الكتب والمراجع المختلفة ، حتى ذكر أن عدد الكتب التى وجدت فى مستشفى قلاوون بالقاهرة قد بلغت حوالى مائة الف مجلد ، اخذت أغلبها من دار الحكمة بالقاهرة (٨٩) . مما أتاح للطلاب والأساتذة جوا علميا مناسبا .

وطبيعى فى ظل هذه الظروف العلمية ، أن يشعر طلاب الطب فى البيمارستانات بعد تخرجهم بالثقة العلمية والعملية فى أنفسهم ، اذ كان العمل كطبيب ممارس بالبيمارستان دليلا كافيا على حذق الطبيب وكفاءته ، ويروى ابن أصيبعة قصة تعكس ذلك ، ذلك أن الفضل اخبر جبرائيل طبيب الرشيد ذات مرة ، أن ماسويه يزعم انه اعرف الناس بالكحل مما اثار الغيرة فى نفس جبرائيل — وكان بينه وبين ماسويه منافسة — فقال للفضل : ومن هذا ؟ لعله الذى يجلس بالباب ؟ فقال له : نعم . قال جبرائيل : هذا كان أكارا (فلاحا) لى فلم يصلح للكروث (للزراعة)

---

* لاحظ كيف بدأ ابو الحكم يتفقد الأقسام الداخلية للجمهور العادى ، ثم بعد ذلك توجه الى افتقاد المرضى من أعيان الدولة ، ثم بعد ذلك انتقل الى التدريس . وقارن ذلك بما يحدث بكليات الطب من انصراف الأساتذة بعياداتهم الخاصة عن واجبهم التعليمى والأكاديمى .

فطردته ، وقد صار الآن طبيبا ! وما عالج الطب قط ! فان شئت فاحضره وانا حاضر . وتوهم جبرائيل — لانه طبيب الخليفة ورئيس اطباء عصره — انه يدخل بين يديه ويتذلل له . فامر الفضل باحضاره ، فدخل وسلم وجلس بحذاء جبرائيل . فقال له جبرائيل : يا ماسويه ، اصرت طبيبا ؟ فقال له : لم ازل طبيبا ، انا اخدم البيمارستان منذ ثلاثين سنة ، تقول لى هذا القول ! ففزع جبرائيل ان يزيد فى المعنى ، فبادر وانصرف فى الحال وهو خجل ، كذلك عندما دخل ماسويه على الخليفة هارون الرشيد وساله : تحسن شيئا من الطب سوى الكحل ؟ فقال : نعم يا امير المؤمنين، وكيف لا احسن وانا قد خدمت المرضى بالبيمارستان منذ ثلاثين سنة ؟ فادناه منه (٩٠) مما يدل على ان الخدمة فى البيمارستان (الطبيب الممارس)، كان دليلا كافيا على كفاءة الطبيب .

٤ — منازل الاطباء :

لم يكتف الأطباء المسلمون بتدريسهم فى المساجد ، والمدارس ، والبيمارستانات بل نجد لأكثرهم « مجالس طبية » كانت تعقد فى منازلهم ويحضرها الطلاب . ويبدو أن تلك المجالس كانت اقرب الى « السيمينارات العلمية » المتخصصة التى تمتاز « بالتعمق العلمى » من ناحية وشيوع روح « الزمالة العلمية » من ناحية أخرى . ويصف لنا ابن أصيبعة تلك الجلسات العلمية ، وكيف كانت تدار ، من ذلك الجلسة التى كان يحضرها ابن أصيبعة لكى يقرأ على موفق الدين يعقوب بن سقلاب شيئا من كلام أبقراط . يقول : « فكنت أرى من حسن تأنيه فى الشرح وشدة استقصائه للمعانى بأحسن عبارة وأوجزها وأتمها معنى ، ما لا يتيسر احد على مثل ذلك ولا يقدر عليه . ثم يذكر خلاصة ما ذكره ، وحاصل ما قاله ، حتى لا يبقى فى كلام ابقراط موضع الا وقد شرحه شرحا لا مزيد عليه فى الجودة ، ثم انه يورد نص ما قاله جالينوس فى شرحه لذلك الفصل على التوالى الى آخر قوله : ولقد كنت اراجع شرح جالينوس فى ذلك فاجده قد حكى جملة ما قاله جالينوس باسره فى ذلك المعنى ، وربما الفاظ كثيرة من الفاظ جالينوس يوردها باعيانها من غير أن يزيد فيها ولا ينقص . وهذا

شيء تفرد به فى زمانه » (٩١) . أما جلسة مهذب الدين عبد الرحيم بن على فكانت تأخذ صورة أخرى ، وذلك انه كان رحمه الله ، اذا تفرغ من البيمارستان وافتقد المرضى من أعيان الدولة وأكابرهم وغيرهم ، يأتى الى داره ثم يشرع فى القراءة والدرس والمطالعة ، ولابد له مع ذلك من نسخ ، فاذا فرغ منه أذن للجماعة فيدخلون اليه ، ويأتى قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين . وكان يقرأ كل واحد منهم درسه ، ويبحث معه فيه ، ويفهمه اياه بقدر طاقته ، ويبحث فى ذلك مع المتميزين منهم ، ان كان الموضع يحتاج الى فضل بحث ، أو فيه بحث يحتاج الى تحرير . وكان لا يقرىء أحدا الا وبيده نسخة من ذلك الكتاب يقراه ذلك التلميذ ، ينظر فيه ويقابل به ، فان كان فى النسخة الذى يقرأ غلط أمر باصلاحه . وكانت نسخ الشيخ مهذب الدين التى تقرأ عليه فى غاية الصحة ، وكان اكثرها بخطه . وكان أبدا لا يفارقه الى جانبه مع ما يحتاج اليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة كتاب الصحاح للجوهرى ، والمجمل لابن فارس وكتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى . فكان اذا فرغت الجماعة من القراءة يعود هو الى نفسه ، فيأكل شيئا ثم يشرع بقية نهاره فى الحفظ والدرس والمطالعة ويسهر أكثر ليله فى الاشتغال (٩٢) . أما فى منزل الشيخ الرئيس ابن سينا فقد كان يجتمع كل ليلة فى داره طلبة العلم ، وتلميذه أبو عبيد يقرأ من كتاب الشفاء نوبة ، ويقرأ المعصومى من القانون نوبة ، وابن زيلة يقرأ من الاشارات نوبة ، وبهمن يار يقرأ من الحاصل والمحصول نوبة ، فاذا فرغوا حضر المغنون واشتغلوا بالشراب ؟ وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار (٩٣) . وهكذا تتعدد صور تلك الجلسات العلمية من الشرح والتفسير ، لمراجعة المؤلفات الطبية وتصحيح الترجمات والطبعات ، للمناقشة والبحث وتحرير الرسائل (٩٤) . ولا شك أن تلك الجلسات العلمية الخاصة كانت فرصة لمزيد من الاحتكاك العلمى ، وتبادل الآراء والأفكار الطبية المختلفة .

٥ — المكتبات المتخصصة للدراسات العليا : (Further Education)

يعجب الدارس للعناية التى وجهها المسلمون لاقامة الكثير من المكتبات ، وهذا العدد الهائل من دور الكتب ودور العلم المنتشرة فى انحاء

العالم الاسلامى . لقد كان عددها يزداد باستمرار كما وكيفا . وتنوعت اغراضها حتى شملت جميع الأغراض التى تؤسس المكتبات من أجلهـــا لذلك « نجد فى دنيا الاسلام جميع انواع المكتبات : المكتبات العامة المفتحة للجمهور على اختلاف انواعه وأجناسه وثقافاته ، والمكتبات الخاصة التى يمتلكها أفراد معينون لخدمة أغراضهم الشـــخصية ، والمكتبات الملحقة بالمســاجد والجوامع والربط والخانقاة ، ومكتبات الدولة التى ينشـئها الخليفـــة أو الأمير أو حاكم الولاية ، والمكتبات المخصصـــة للدراسات العليا ، والمكتبات التابعة للمدارس والجامعات على اختلاف أنواعهـا ؛ والمكتبات الموجودة فى المشافى والمارستانات ، وما شابه » (٩٥) . ولقـد تعودت كثير من الدراســات أن تنسب فضــل ظهور « دار الحكمـة » ـــ المكتبات المتخصصة للدراسات العليا ـــ الى عصر المأمون العباسى ، اذ شاهد عصره أكبر حركة للترجمـــة وجمع الكتب وتيســيرها ، للباحثين والدارسين . ولكن بالعودة الى المصادر الاسلامية وجدت شواهد كثيرة تدل على أن فكرة جمع الكتب وترجمتها وتيسيرها للدارســين والباحثين يمكن أن ترجـع الى زمن الخليفـة معـاوية ، أو الأمير خالد بن يزيد . ولقد اوضح يوسف العش فى دراســـته القيمة حول المكتبات العربيـة "Les Bibliothéques Arabs, P. 17" ، أن خالد بن يزيد احتفظ بمكتبة جده معاوية (بيت الحكمة) واغناها بمجموعات الحديث وكتب الكيمياء والفلك والطب والفلسفة ، وانه انشا حركة لترجمة الكتب الأجنبية الى اللغـة العربية وجمع حوله العلماء فى كل مجال . وهـــذه الأعمال تجعل منـه الرجل الذى اعطى لمؤســـة بيت الحكمة طابعها الخاص الذى تطور فى عصر المــأمون » (٩٦) . كذلك ورد فى ترجمـــة ماسرجويه الطبيب المصرى الذى كان معاصرا للخليفة مروان بن الحكم (٦٤ ـــ ٦٥ هـ) أن ماسرجويه « كان فى أيام بنى امية ، وانه تولى فى الدولة المروانية تفســير كتاب اهرن بن اعين الى العربية الذى وجده عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله فى خزائن الكتب ، فأمر باخراجه ووضعه فى مصلاه ، واستخار الله فى اخراجه الى المســلمين للانتفاع به ، فلما تم له فى ذلك أربعون صباحا أخرجه الى الناس وبثه فى ايديهم » (٩٧) . كذلك يذكر المؤرخــون أن أبا

جعفر المنصور طلب من ملك الروم أن يرسل اليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث له بكتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات (٩٨) . أى أن فكره نقل الكتب من اللغات الأجنبية الى العربية وتيسيرها لطلاب الدراسات العليا فكرة سابقة لعصر المأمون ، الا أن المأمون قد أعطى تلك البدايات الأولية دفعة قوية بحبه للعلوم العقلية وشغفه بنشر العلم ، ولم تقتصر مهمة دار الحكمة فى عصره على الترجمة ، وجمع الكتب بل ألحقت بها مكتبة واسعة للمخطوطات وعدد كبير من الاختصاصيين الأكفاء بترجمتها وأنشىء الى جانبها مرصد فلكى ، والى جانب المرصد مدرسة لتدريس الفلك (٩٩) . وبذلك صارت مثوى العلماء للدراسة والمناقشة والبحث العلمى المتخصص ، حتى لقد اعتبرها هانز « أول جامعة اسلامية » تمارس التعليم العالى والبحث العلمى بالمعنى المعاصر (١٠٠) . وصارت دار الحكمة بصورتها الأخيرة فى عصر المأمون هى المثال الذى احتذاه كثير من الملوك والسلاطين والأمراء فى القاهرة وقرطبة وبلاد ما وراء النهر وغيرها (١٠١) .

وسيقرأ الباحث كيف أن الكتب الأجنبية لم تكن تترجم مرة واحدة ، بل كانت تترجم أكثر من مرة ، يترجمها أكثر من مترجم ، وأن الباحثين فى ذلك العصر كانوا يقارنون بين الترجمات الجيدة والرديئة . فكتب جالينوس فى الطب على سبيل المثال ترجمها حنين بن اسحاق ، وكان فصيحا بليغا عالما بآراء جالينوس ، وترجمها غير ابن اسحاق ، ولذلك يقول ابن أصيبعة : « وجدت بعض الكتب الستة عشر لجالينوس ، وقد نقلها من الرومية الى السريانية سرجس المتطبب ، ونقلها من السريانية الى العربية موسى بن خالد الترجمان ، فلما طالعتها وتأملت ألفاظها تبين لى بين نقلها وبين الستة عشر التى هى نقل حنين تباين كثير وتفاوت بين . وأين الألكن من البليغ والثرى من الثريا » (١٠٢) . وسيقرأ الباحث كيف أن المأمون كان يعطى حنينا من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربى مثلا بمثل ، ولذلك كان حنين يتعمد أن تأتى الترجمة فى أكبر عدد من الصفحات ، وفى أثقل نوع من الأوراق فكان يكتب حروفا كبيرة فى أسطر متفرقة ، وورقها كل ورقة بغلظ ما يكون من هذه الأوراق المصنوعة يومئذ ثلاث ورقات أو أربع . « وكان قصد حنين بذلك تعظيم حجم الكتاب

وتكثير وزنه ، لأجل ما يقابل به من وزنه دراهم ، وكان ذلك الورق يستعمله بالقصد ، ولا جرم أنه لغلظه بقى هذه السنين المتطاولة من الزمان »(١٠٣).
وسيقرا الباحث الشيء الكثير عن حرص الملوك والأمراء والسلاطين على تزويد تلك المكتبات بالجديد من المؤلفات ، وارسالهم البعوث بحثا عن الكتب الجديدة لشرائها واستجلابها الى تلك المكتبات ، وحرصهم الا تخرج الكتب من بلادهم بالبيع .. من ذلك ان الأفضل بن أمير الجيوش سمع أن رجلا من العراق كان قد اتى الى الديار المصرية ليشترى كتبا ويتوجه بها ، وأنه اجتمع مع افرائيم بن الزفان الطبيب المصرى المشهور ، واتفق معه على ان يشترى منه عشرة آلاف مجلد من الكتب التى بمكتبته الخاصة — وكان بها اكثر من ثلاثين الف مجلد — ولكن الأفضل حرصا منه على أن تظل الكتب بالديار المصرية ولا تنقل الى موضع آخر ، بعث الى افرائيم بثمن الكتب ونقلها الى دار الكتب (١٠٤) . ولما سمع الصاحب امين الدولة وزير الملك الصالح اسماعيل بكتاب « طبقات الأطباء لابن اصيبعة من جماعة من الأطباء ، وكان فى دار كتبه عشرين الف مجلد ، حرص على شراء الكتاب الجديد وارسل فى طلبه وكافأ مؤلفه على ذلك بان أرسل اليه « المال الجزيل ، والخلع الفاخرة وتشكر ، وقال أشتهى منك كلما تضمه من الكتب تعرفنى به » (١٠٥) .وعندما يطالع الباحث مجرد اسماء المؤلفات الطبية الواردة فى كتاب واحد مثل كتاب « طبقات الأطباء » لابن اصيبعة فانه سيدرك ضخامة هذا الكم الهائل من الكتب الطبية المترجمة والمؤلفة ، ما بين مختصرات ومراجع موسعة ورسائل صغيرة * ،

* حاول الباحث أن يضم هذا البحث ثبتا باسماء الكتب الطبية الواردة فى كتاب ابن أصيبعة كأحد ملاحق البحث ، وأن يرتبها ترتيبا أبجديا بحسب الأقطار الاسلامية : العراق والجزيرة ، بلاد ما وراء النهر ، بلاد المغرب ، مصر ، الشام ، وشرع فى ذلك فعلا ، ولما وصل الى صفحة ٥٦ من الكتاب وهو حوالى ثمانمائة صفحة كان قد جمع اسماء حوالى أربعمائة مؤلف مما جعل اعداد هذا الثبت يأخذ وقتا وجهدا طويلا ، ويغطى صفحات عديدة لا تتحملها الدراسة الحالية .

ويشعر بهذا الجو العلمي الغني الذى أتيح للنمو الأكاديمى للطبيب . وهى ظروف قلما تتوافر لكثير من مكتباتنا الطبيـة وغـير الطبيـة فى عصرنا الحديث (١٠٦) . يضاف الى ذلك التسهيلات والخدمات المكتبية التى كانت تقدمها تلك المكتبات المتخصصة (١٠٧) ؛ مما وفر للطلاب والأساتذة ظروفا بحثية مساعدة على البحث والدراسة فى شتى المجالات ومنها الطب .

رابعا — مناهج التعليم الطبى النظرى :

من الطبيعى أن تتأثر مناهج اعداد الطبيب عند المسـلمين فى بداية الأمر بآخر المدارس اليونانية واشهرها وهى مدرسة الاطباء الاسكندرانيين ولقد ظهر هذا الأثر اليونانى فى امرين : الأمر الأول : هو الاعداد الثقافى العام اللازم لكى يصبح المتعلم طبيبا حكيما . والأمر الثانى : الاعداد المهنى المتخصص لتلك المهنة . اما عن الاعداد الثقافى العام فان حنين بن اسحاق بعد أن يسرد بعضا من حكم وآداب أرسطو — طاليس يقول : « وهـذا الصنف من الآداب أول ما يعلمه الحكيم للتلميذ فى أول سـنة مع الخط اليونانى ، ثم يرفعه من ذلك الى الشعر والنحو ثم الى الحساب ثم الى الهندسة ، ثم الى النجوم ثم الى الطب ثم الى الموسيقى ثم بعد ذلك يرتقى الى المنطق ، ثم الى الفلسفة ، وهى علوم الآثار العلوية ، فهذه عشرة علوم يتعلمها المتعلم فى عشر سنين » (١٠٨) . وتتكرر هذه العلوم فى منهج اعداد جالينوس الطبيب فهو يقـول : « ان أبى لم يزل يؤدبنى بما كان يحسنه من علم الهندسة والحساب والرياضيات التى تؤدب بها الأحداث حتى انتهيت من السن الى خمس عشرة سـنة ، ثم أنه سـلمنى فى تعليم المنطق ، وقصد بى حينئذ فى تعليم الفلسفة وحدها ، فرأى رؤيا دعته الى تعليمى الطب فاسلمنى فى تعليم الطب ، وقد أتت على من السنين سبع عشرة سنة » (١٠٩) . ويشير هذان النصان الى أن دراسـة الطب كانت احدى الدراسات العقلية اللازمة لاعداد الفيلسوف ، وانه كان يسـبق دراسة الطب : دراسة الشعر والنحو والحساب والنجوم . وسنجد أن هذه الدراسات السابقة لتعلم الطب تتكرر دراستها عند الأطباء المسلمين مما يوحى أنها أصبحت متطلبا تعليميا سابقا لدراسة الطب . فابن سينا قبل أن يدرس الطب يتعلم حساب الهندسـة والجبر والمقابلة على يد

استاذه محمود المساح ، ويتعلم المنطق وشيئا من الفلسفة الطبيعية على يد الحكيم ابى عبد الله الناتلى (١١٠) . والكندرى قبل أن يدرس الفلسفة يدرس الحساب والمنطق وتأليف اللحون وطبائع الاعداد وعلم النجوم والطب (١١١) . ويبدو أن دراسة المنطق كأحد المباحث العقلية ، اكتسبت اهمية كبيرة فى اعداد الطبيب لأنها تمكن الطبيب من دقة النظر وسلامة القياس (١١٢) . وسنجد أن احمد بن الاشعث يؤلف كتابه « الأدوية المفردة » لمن تجاوز درجة تعلم الطب الى درجة الفقه فى الطب ، وهو الذى يستطيع أن يفرع ويقيس ويستخرج منه ما هو فيه بالقوة مما لم يذكره المؤلف (١١٣) . ومنذ أن ألف جالينوس كتابه باسم « أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفا » ، وجدنا أن كبار الأطباء المسلمين هم أيضاً من الفلاسفة المشهورين . ويقول الرازى فى تسمية الطبيب الناجح : « ان من يريد أن يصل الى مرتبة عالية فى الطب فيجب أن يكون قادرا على فهم ما يقرأ ، وان يكثر القراءة فى الكتب ، ودائم الاتصال بالفلاسفة والمفكرين ، وان يدرس الهندسة والنجوم ، والا فانه لا يعرف الأزمنة وحال البلدان ، كما يجب أن يعرف المنطق والا فلن يحسن تقسيم اجناس الأمراض الى أنواعها ، ولا يعرف صواب من أصاب وخطأ من أخطأ ، وكان ابن رضوان الطبيب المصرى يرى أيضا أن لقب الطبيب يجب ألا يطلق الا على من يتعاطى الفلسفة والطب معا ، والا فليس طبيبا بل متطببا » ، ولكن هذا الاتجاه الذى ربط الطب بالفلسفة سرعان ما واجهه اتجاه معارض راى أن ابقاء الطب مرتبطا بالفلسفة قد يعوق تقدمه وتطوره الى الأحسن ، وكان أول دعاة هذا الاتجاه عبد الله بن جبرائيل (ت ٤٥٠ هـ) « الذى دعا الى قطع العلاقة بين الطب والفلسفة وتدريس الطب كموضوع مستقل بنوعية معارفه ، وأن يكون تعليمه بالتطبيق أكثر من اعتماده على الجانب النظرى » (١١٤) . ولقد تدعم هذا الاتجاه الأخير بكثرة المؤلفات الطبية التى تعتمد على الملاحظات السريرية وتجارب الأطباء العملية ، وكثرة البيمارستانات التى كانت مجالا خصبا لتقديم أمثلة عملية للفحص والعلاج والممارسة الاكلينيكية .

كذلك فان منهج الاعداد المهنى للطبيب عند المسلمين قد تأثر أيضا

فى البداية بمدرسة الأطباء الاسكندرانيين من حيث تقديم كتب جالينوس الستة عشر على سبع مراحل ، تشمل كل مرحلة مجموعة معينة من الكتب . اما المرحلة الأولى ، فقد جعلوها بمثابة المدخل الى صناعة الطب ، فان كان الطالب متفرغا للدراسة وله استعداد عقلى لمواصلة التعليم انتقل الى المرحلة الثانية ، وهكذا يزال الطالب يتقدم فى دراسته حتى المرحلة السابقة حيث يصبح طبيبا « لا يخفى عليه شىء من صناعة الطب » . أما الطالب الذى يظهر عدم استعداده للدراسة ، فانه يتوقف عند المرحلة الأولى التى يستفيد بها ، بأن يستطيع تعاطى اعمال الطب الجزئية السهلة (١١٥) . ولكن هذا المنهج الاسكندرى فى دراسة الطب سرعان ما وجه اليه النقد من حيث عدم كفاية المحتوى الدراسى ، وعدم سلامة تنظيم الموضوعات . فقد رأى الأطباء المسلمون ان هذه الكتب الستة عشر ليست كافية ، وأن هناك كتبا لجالينوس وغير جالينوس لابد أن تضاف وتدرس . كذلك فان ترتيب تقديم هذه الكتب للطالب لابد أن يعاد النظر اليه ، بحيث يؤخر التشريح مثلا وتقدم دراسة وظائف الأعضاء، يقول « أبو الفرج بن هندو فى كتاب « مفتاح الطب » : ان هذه الكتب التى اتخذها الاسكندرانيون من كتب جالينوس وعملوا لها جوامع وزعموا انها تغنى عن متون كتب جالينوس ، وتكفى كلفة ما فيها من التوابع والفصول، قال أبو الخير الخمار ، وهو استاذ أبى الفرج بن هندو : « انا أظن انهم قد قصروا فيما جمعوه من ذلك ، لأنهم يعوزهم الكلام فى الأغذية والأهوية والأدوية » . قال : والترتيب أيضا قصروا فيه ، لأن جالينوس بدأ من التشريح ثم صار الى القوى والأفعال ثم الاسطقسات » . ورغم ذلك حاول بعض الأطباء المسلمين ان يدافع عن هذا المنهج من حيث المحتوى والترتيب . يقول أبو الحسن على بن رضوان فى « كتاب المنافع » : انما اقتصر الاسكندرانيون على الكتب الستة عشر من سائر كتب جالينوس فى التعليم ليكون المشتغل بها اذا كانت له قريحة جيدة وهمة حسنة وحرص على التعليم ، فانه اذا نظر فى هذه الكتب اشتاقت نفسه بما يرى فيها من عجيب حكمة جالينوس فى الطب الى ان ينظر فى باقى ما يجد من كتبه » . ولعل دفاع أبى الفرج بن هندو امام هجمات أستاذه ابى الخير الخمار هو

أوفى دفاع وأشمله ، فهو يذكر أن الاقتصار على تلك الكتب الستة عشر انما جاء لأنها كتب دراسات تحتاج الى معلم يدرسها مع الطالب ، أما ما سوى ذلك ، فيستطيع الطالب ان يحصله بنفسه دون مراجعة أو مذاكرة أو مطارحة . كذلك فان الموضوعات أو الكتب التى يريد أبو الخير ان يضيفها الى الدراسة كتب ستأتى حتما لأن الطبيب مضطر الى معرفتها بنفسه واضافتها الى الموضوعات التى درسها مع أساتذته فيما قبل ، وسيمكنه أن يفعل ذلك بسهولة ما دام قد درس الكتب الستة عشر وفهمها واستوعبها . أما الهجوم على ترتيب الموضوعات الدراسية ، فان الترتيب المنطقى لها غير مهم فى نظر ابن هندو ، والمهم عنده أن تدرس تلك الموضوعات على اى حال . ورغم أنه يعترف أن ترتيب أبى الخير المقترح هو أكثر منطقية الا انه يفضل أن يحافظ على ترتيب الاسكندرانيين « لأن العلم حاصل على كل حال ، وخرق اجماع الحكماء معدود من الخرق » (١١٦) .

واذا كان للمنهج الاسكندرى فى تعليم الطب ان يستمر مع هذا النقد ، فقد كان استمرارا الى حين . اذ بظهور أعلام الطب الاسلامى وظهور ألوان متعددة من التاليف الطبى ، بدأ واضحا أن المؤلفات العربية تمثل مرحلة أعلى فى تطور التعليم الطبى ، اذ استفادت بكل المؤلفات السابقة وزادت عليها وتجنبت ما فيها من قصور . وهذه هى سنة تطور العلوم . يقول الرازى : « فان الصناعات لا تزال تزداد وتقرب من الكمال على الأيام وتجعل ما استخرجه الرجل القديم فى الزمان الطويل (فى متناول) الذى جاء من بعده فى الزمان القصير حتى يحكمه ، ويصير سببا يسهل له استخراج غيره به ، فيكون مثل القدماء فى هذا الموضع مثل المكتسبين ، ومثل من يجىء من بعد مثل المورثين ، المسهل لهم ، ما ورثوا اكتسابا اكثر واكثر » (١١٧) . وهذا اعتراف من الرازى بفضل القدماء مع التأكيد على تطور الطب بتقدم العصور . ولقد تعددت أنواع المؤلفات الطبية فى العصر الاسلامى بحيث يمكن تقسيمها الى اربعة انواع :

(أ) **النوع الأول** : كتب ابتدائية على صفة مدخل لعلم الطب ، وهى كتب مختصرة وسهلة المنال والحفظ مثل كتاب : « ما الفارق » للرازى

وهو مؤلف من أسئلة وأجوبة دقيقة على كل سؤال للتشخيص التفريقى بين الأمراض المتشابهة . وكتاب تقويم الأبدان لابن جزلة ، وهو تقويم مؤلف من مربعات ومستطيلات ليس على الطالب الا أن ينظر فى الكلمة التى يبحث عنها حتى يجد الجواب مقسما كما يريده (١١٨) . وكتاب الأسباب والعلامات لنجيب الدين السمرقندى ، وما لا يسع الطبيب جهله لجمال الدين الكتبى وغيرها من المختصرات (١١٩) .

(ب) **النوع الثانى** : الكتب المطولة المستقصى فيها كل فروع الطب واقسامه ولعل كتاب القانون لابن سينا ، وكتاب « الحاوى » فى الطب للرازى يمثلان هذا النوع من الكتب المطولة ، التى تعتبر موسوعات طبية * .

فقانون ابن سينا على سبيل المثال شمل افعال البدن Physiology وتشريح البدن Anatomy وعلم الأحوال Pathology وعلم الأسباب Aetiology وعلم العلامات Symptomatology وعلم التشخيص Diagnosis ، والنبض Sphygmology والقارورة Urinology ، والبراز Stool
وعلم حفظ الصحة Hygiene, (Preservation of Health)
وتدبير الأطفال Pediatrics, (Regimen for infants)
وتدبين البالغين Regimen for Aduits
وتدبير المشايخ Geriatrics (Regimen for old ages)
والرياضة Exercise, Gymanastice
وتدبير المسافرين Regimen for Travellers
وطرق العلاج المختلفة Various Methods of treatment سواء العلاج بالضد Heteropathy أو العلاج بالمثل Homeopathy والعلاج بالتدبير

---

* كان الباحث يود أن يضمن بحثة فهرست كتابى القانون لابن سينا ، والحاوى للرازى كملاحق للدراسة ، حتى يأخذ القارىء فكرة عن موسوعية مثل هذه المؤلفات ، ولكن اتضح أن ذلك سوف يأخذ صفحات كثيرة (ثمنية وعشرون صفحة على الأقل) فاكتفى بما ذكره هنا .

Regiminal Treatment والعـــلاج بالغـــذاء Treatment by Nutrition
والعـــــلاج بالدواء Treatment by Medicine ، والعـــــلاج باليـــد
Manipulation (surgery) (١٢٠) .

أما كتاب الحاوى للرازى فربما كان أشمل مؤلف كتبه رجل طب ، اذ يحتوى على المعلومات الطبية الكاملة التى وردت فى اللغـــة اليونانية والسريانية والعربيـــة بالاضافة الى تجاربه وخبرته الطبيـــة الخاصة . والكتاب يتناول جميع أمراض البدن من الرأس وحتى القدم : فالجزء الأول : يتناول أمراض الرأس ، والثانى : أمراض العين ، والثالث : أمراض الأذن والأنف والأسنان ، والرابع : أمراض الرئة ، والخامس : أمراض المرىء ، والمعدة ، والسادس : الاستفراغات والتسمين والهزال ، والسابع : أمراض الثدى والقلب والكبد والطحال ، والثامن : فى قروح الأمعاء وأورامهـــا والمغص ، والتاسع : فى أمراض الرحم والحمل ، والعاشر : فى أمراض الكلى ومجارى البول وغيرها ، والحادى عشر : فى أمراض الحيـــات والديدان فى البطن والبواسير والحدب والنقرس والدوالى وداء الفيـــل وغيرها ، والثانى عشر : فى السرطان والأورام والدمامل وغيرها (١٢١) . ونرى الرازى عند مناقشته لأى مرض من هذه الأمراض يبدأ بذكر كل ما أورده الاغريق والسريان والعرب والفرس والهنود عن هذا المرض ثم ينتهى بعرض آرائه وتجاربه الخاصة (١٢٢) .

(جـ) **النوع الثالث** : الكتب المعدة للأطباء الممارسين يرجعون اليها عند ممارسة المهنة ، وهى كتب مجردة فى الأغلب من ذكر أقوال السابقين فى كل حالة ، وتكتفى بعرض الحالة والعلاج الشائع لها ، وكانت تسمى فى الغالب « كناشات » . و « الكناش » كتاب طبى يضمه أحد الأطبـــاء المشهورين لنفسه أو طلابه أو لغيره من الأطباء الممارسين يودعه خلاصة تجاربه الطبية مثل : « التذكرة المفيدة والذخيرة الحميـــدة » لعز الدين ابن السويدى (١٢٣) ، وفردوس الحكمة فى الطب لأبى الحسن على بن سهل الطبرى (١٢٤) ، أو مجرد كناش « فلان » ، اذ كثيرا ما يورد ابن أصيبعة عند ترجمته لأطبائه عبارة : وله من الكتب كناشه ، وهو الذى يعرف به

وينسب اليه ، وهو ما استخرجه وجربه فى أيام حياته ، أو وله « كناش لطيف » ... الخ (١٢٥) . وفى الغالب فان الأطباء لم يؤلفوا هذه الكناشات الا فى أواخر أيام حياتهم ، بعد أن تكون لهم خبرات واسعة فى ميدان الممارسة العملية تستحق التسجيل . يقول على بن رضوان : « وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين الى يومى هذا أعمل تذكرة لى واغيرها فى كل سنة الى أن قررتها على هذا التقدير الذى استقبل به السنة الستين من ذلك » (١٢٦) . والذى يقرأ ابن أصيبعة سوف يلاحظ الكثرة الهائلة لهذا النوع من المؤلفات .

(د) **النوع الرابع** : كتب ورسائل وضعت فى موضوعات طبية خصوصية واقتصرت على معالجة هذا الموضوع الخاص مثل : كتاب منافع الأغذية ودفع مضارها ، للرازى (١٢٧) ، وكتاب فى الفالج ، وكتاب فى هيئة العين له أيضا ، وكتاب فى القولنج ، وآخر فى النبض لابن سينا ، والجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ، وتذكرة الكحالين لعلى بن عيسى الكحال ، والعشر مقالات فى العين المنسوب لحنين بن اسحاق ، ومنهاج الدكان ودستور الأعيان فى أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان لابن أبى نصر العطار (١٢٨) الى غير ذلك من المؤلفات العديدة التى تتناول موضوعا واحدا مثل أمراض المفاصل ، والمولودين لسبعة أشهر ، وأمراض القلب ... الخ (١٢٩) .

والدارس لكتاب واحد مثل عيون الأنباء فى طبقات الأطباء يستطيع أن يجد اثباتا طويلة من أسماء الكتب والمؤلفات الطبية . ولقد حاول الباحث بالفعل أن يحصى تلك المؤلفات وأن يصنفها على تلك الأقسام الأربعة السابقة ، أو يصنفها حسب بلدان المؤلفين ، ولكن وجد أنه عمل يحتاج الى وقت وجهد كبير ، يرجو أن يتفرغ له فيما بعد ، ولكن المهم هنا أن نلفت الانتباه الى أن « التعليم الطبى » تحول بالتدريج من التركيز على المنهج السكندرى فى « تعليم الطب » الى التركيز على تلك المؤلفات الاسلامية . ولذلك فان السمرقندى (٥٠٠ — ٥٥٢ هـ) عندما يعرض لمناهج اعداد الطبيب ، فان المؤلفات الاسلامية فى الطب تحتل أهمية بارزة

فى هذا المنهج ، يقول السمرقندى : « وعلى الطبيب أن يحصل فى علم الطب .. فصول بقراط ، ومسائل حنين بن اسحاق ومرشد محمد بن زكريا الرازى وشرح النيلى الذى اجمل هذه المؤلفات . وعليه أن يطالعها بعد قراءتها على استاذ مخلص . ثم ان عليه أن يستقصى استقصاء تاما الكتب المتوسطة وهى : ذخيرة ثابت بن قرة ، أو المنصورى لمحمد ابن زكريا الرازى ، أو الهداية لأبى بكر الأجوينى أو الكفاية لأحمد بن فرج ، او الأغراض لسيد بن اسماعيل الجرجانى وذلك على استاذ مخلص . ثم عليه بعد ذلك ان يحصل على احد الكتب المفصلة مثل : « الست عشرة رسالة » لجالينوس ، أو الحاوى لمحمد بن زكريا الرازى ، أو كامل الصناعة أو صدباب (مائة باب) لأبى سهل المسيحى أو القانون لأبى على ابن سينا ، أو الذخيرة للخوارزمى . وأن يقرأ هذا الكتاب فى وقت الفراغ . فاذا اراد ان يستغنى عن هذه الكتب كلها ، فقد يكتفى بالقانون ، فان سيد الكونين وامام الثقلين يقول : « كل الصيد فى جوف الفرا » . فكل ما ذكرت موجود فى القانون مع زيادات كثيرة . وكل من يحيط علما بما فى المجلد الأول من القانون لا يخفى عليه شىء من اصول علم الطب وكلياته . ولو بعث بقراط وجالينوس الى الحياة لحق لهما ان يسجدا لهذا الكتاب (١٣٠) » .

ولقد كان طالب الطب يتتلمذ فى الغالب لأستاذ مشهور ، يقرأ عليه تلك الكتب ، ويتدرج معه من المختصرات الى المتوسطات ، ثم الى الكتب المفصلة . وكانت التلمذة ضرورية لحسن تخرج الطالب . لأن « المعلم » يعطى فكرة عن الكتاب ، وصاحبه ، وأسلوبه فى التأليف ويشرح الغامض منه ويناقش المحتوى ويتأكد من حسن فهم الطالب . وبعد مرحلة « القراءة على المعلم » ، تأتى مرحلة « الاطلاع الذاتى » والتبحر فى الدراسات الطبية . ويبدو انه بازدياد التآليف الطبى وكثرة الشروح والمبسوطات ظهر « اتجاه تعليمى » محدود يرى أن تعليم الطب ليس محتاجا الى وجود المعلم ، وأن الطب أصبح من العلوم السهلة التى يستطيع أن يحصلها الطالب بنفسه ويقرأ فيها منفردا . وكان ابن سينا وابن رضوان خير مثلين لهذا الاتجاه ، اذ تعلما الطب بدون معلم ، ولابن رضوان كتاب

يعرض فيه رايه فى هذا الموضوع ، ويوضح فيه أن تحصيل الطب من الكتب أوفق فى تحصيله على يد معلمين . وقد رد ابن بطلان على هذا الكتاب فى مؤلف افرده لذلك واورد فيه العلل التى لأجلها صار المتعلم من افواه الرجال افضل من التعلم من الكتب . اذ لا شك أن التعلم من انسان ناطق أدعى لصحة الفهم من التعلم من جماد ، وهو الكتاب — كذلك فان الكتب قد تكون صعبة الأسلوب ، أو مشتملة على مصطلحات علمية لا يدركها الطالب منفردا ، وقد توجد بها من الأخطاء ما يصد عن العلم أو يفسد المعنى المراد « مثل التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ ، والغلط بزوغان البصر وقلة الخبرة بالاعراب ، أو عدم وجوده مع الخبرة به ، أو فساد الموجود منه . واصطلاح الكتاب ما لا يقرأ وقراءة ما لا يكتب ، ونحو التعليم ونمط الكلام ومذهب صاحب الكتاب ، وسقم النسخ ورداءة النقل ، وادماج القارىء مواضع المقاطع وخلط مبادىء التعليم ، وذكر الفاظ مصطلح عليها فى تلك الصناعة ، والفاظ يونانية لم يخرجها الناقل من اللغة كالثوروس ، وهذه كلها معوقة عن العلم وقد استراح المتعلم عن تكلفها عند قراءته على المعلم ، واذا كان الأمر على هذا فالقراءة على العلماء أفضل وأجدى من قراءة الانسان لنفسه » (١٣١) . واذا تتبعنا سيرة حياة اكثر الأطباء المسلمين الذين ترجم لهم ابن أصيبعة لوجدنا ان الغالبية العظمى تعلمت على يد أستاذ أولا ، ثم تابعت القراءة ولازمت الاطلاع الذاتى فيما بعد ، مما يؤكد على غلبة هذا الاتجاه فى التعليم الطبى النظرى .

ويلاحظ اننا نستخدم هنا مصطلح « التعليم الطبى النظرى » وفق التعريف السينوى الذى يشمل دراسات الطب سواء ما اتصل بأصول الطب وعلومه الأساسية ، أو ما يتصل بكيفية مباشرته . اما الممارسة الطبية الفعلية ، أو التعليم السريرى فسوف نعالجه فيما بعد عند حديثنا عن أساليب الاعداد التربوى والمهنى للطبيب . ويعرف ابن سينا ميدان هذا التعليم النظرى فيقول : « الطب علم تتعرف منه احوال بدن الانسان من جهة ما يصح وتزول عنه الصحة ؛ ليحفظ الصحة حاصلة ويستردها زائلة » ويرى ابن سينا ، أن من الطب ما هو نظرى ، ومنه ما هو عملى ،

لكن لا يصح الظن « أن أحد قسمى الطب هو تعلم العلم ، والقسم الآخر هو المباشرة للعمل » لأن كلا من القسمين « علم ، لكن أحدهما علم أصول الطب والآخر علم كيفية مباشرته » . والقسم الأول يفيد التصور بالفكر من غير بيان كيفية عمل ، مثل القول : « بأن أصناف الحميات ثلاثة » . والقسم الثانى يفيد رأيا يبين كيفية عمل ، وان لم يصاحبه مزاولة حركة بدنية مثل القول : « بأن الأورام الحارة يجب أن يقرب اليهـــا فى الابتداء ما يردع ويبرد » (١٣٢) . فالتعليم الطبى النظرى بهذا المعنى يقابل التعليم بالممارسة ، والتعليم بالملاحظة السريرية ، ومن ثم فقد شمل هذا التعليم خبرات الأطباء السابقين فى الميدان . ولقد أدرك المسلمون أهمية هـــذا التعليم النظرى للنجاح فى ميدان الممارسة العملية ، يوضح ذلك ما ذكره الرازى فى كتابه المنصورى فى الطب : « هـــذه صناعة لا تمكن الانسان الواحد اذ لم يحتذ فيها على مثال من تقدمه ، أن يلحق فيهـــا كثير شىء ولو أفنى جميع عمره فيها ، لأن مقدارها أطول من مقدار عمر الانسان بكثير ، وليست هذه الصناعة فقط ، بل كل الصناعات كذلك . وانما أدرك من أدرك من هـــذه الصناعة الى هذه الغاية فى الوف من السنين الوف من الرجال . فاذا اقتدى المقتدى أثرهم صار أدركهم ، فكم عساه يمكنه أن يشاهده فى عمره ، وكم مقدار ما تبلغ تجربته واستخراجه ولو كان أذكى الناس وأشدهم عناية بهذا الباب ، على أن من ينظر الى الكتب ولم يفهم صورة العلل فى نفسه قبل مشاهدتها ، فهو وان شاهدها مرات كثيرة أغفلها ومر بها صفحا ولم يعرفها البتة » (١٣٣) . واذا كان الرازى يؤكد هنـــا على أهميـــة التعليم النظرى فى اعداد الطبيب فانه لم يقلل من أهمية الممارسة ومزاولة المهنة ، بل هو يوضح هذه العلاقة المتبادلة بين الاعـــداد النظرى الجيـــد ، والممارسة العملية والملاحظة السريرية المستمرة عندما يقول فى كتابه المرشد أو الفصول : « ليس يكفى فى أحكام صناعة الطب قراءة كتبها ، بل يحتـــاج مـــع ذلك الى مزاولة المرضى ، الا أن من قرأ الكتب ثم زاول المرضى يستفيد من قبـــل التجربة كثيرا . ومن زاول المرضى من غير أن يقرأ الكتب يفوته ويذهب عنه دلائل كثيرة

ولا يشعر بها البتة ، ولا يمكن ان يلحق بها فى مقدار عمره ولو كان اكثر الناس مزاولة للمرضى ، ما يلحقه قارىء الكتب مع أدنى مزاولة ، فيكون كما قال الله عز وجل : ((**وكاين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون**)) (١٢٤) (سورة يوسف : الآية ١٠٥) .

خامسا : طرق الاعداد التربوى والمهنى :

لقد تعددت طرق التدريس وأساليب الاعداد التربوى والمهنى عند المسلمين ، تعددا ساعد على جودة « التعليم الطبى » ، وزاد من كفاءته الداخلية والخارجية ، ويمكن ان نلمس جودة هذا التعليم الطبى بما انتجه لنا من حضارة طبية زاهرة ، وبما وصل اليه من مستحدثات فى ميدان الوقاية والعلاج . ولعلنا نستطيع ان نوجز الطرق المستخدمة فى تربية الطبيب واعداده وتدريبه على النحو التالى :

١ — الملاحظة السريرية والممارسة :

ادرك المسلمون ان التعليم الطبى النظرى لا يمكن أن يغنى عن الملاحظة السريرية ، والممارسة العملية ، فالطبيب لا يصبح طبيبا الا اذا جمع بين التعليم الطبى والنظرى والملاحظة السريرية والممارسة العملية . وفى ذلك يقول الفارابى : « فان الطبيب انما يصير معالجا كاملا بقوتين : احداهما القوة على الكليات والقوانين التى استفادها من كتب الطب والأخرى القوة التى تحصل له بطول المزاولة لأعمال الطب فى المرضى ، والحنكة فيها بطول التجربة والمشاهدة لأبدان الأشخاص . وبهذه القوة يمكن الطبيب أن يقدر الأدوية والعلاج بحسب بدن بدن فى حال حال » (١٣٥) . فقراءة الكتب الطبية لا تكفى فى احكام صناعة الطب كما يقول الرازى « بل يحتاج مع ذلك الى مزاولة المرضى » (١٣٦) . ولقد كان لانتشار البيمارستانات فى العالم الاسلامى أثره فى ازدهار التعليم الطبى عن طريق الملاحظة السريرية والممارسة . ويحفل كتاب ابن اصيبعة بالحديث عن مشاهدات الطلاب لكبار الأطباء وهم يجرون فحوصاتهم المختلفة بدقة وعناية (١٣٧) . فهذا موفق الدين يعقوب بن سقلاب « وكان شديد البحث واستقراء الأعراض بحيث أنه كان اذا افتقد مريضا لا يزال يستقصى منه

عرضا عرضا ، وما يشكوه وما يجده من مرضه حالا حالا ، الى أن لا يترك عرضا يستدل به على تحقيق المرض الا ويعتبره ، فكانت معالجاته لا مزيد عليها فى الجودة » (١٣٨) . وعلى بن رضوان يوضح لطلابه طريقة التشخيص الكاملة بقوله : « تعرف العيوب هو أن تنظر الى هيئة الأعضاء والسحنة والمزاج وملمس البشرة ، وتتفقد أفعال الأعضاء الباطنة والظاهرة ، مثل أن تنادى من بعيد فتعتبر بذلك حال سمعه ، وأن تعتبر بصره بنظر الأشياء البعيدة والقريبة ، ولسانه بجودة الكلام ، وقوته بشيل الثقل والمسك والضبط والمشى وأنحاء ذلك ؛ مثل أن تنظر مشيه مقبلا ومدبرا ، ويؤمر بالاستلقاء على ظهره ممدود اليدين قد نصب رجليه وصفهما ، وتعتبر بذلك حال أحشائه ، وتتعرف حال مزاج قلبه بالنبض وبالأخلاق ، ومزاج كبده بالبول وحال الأخلاط ، وتعتبر عقله بأن يسأل عن أشياء ، وفهمه وطاعته بأن يؤمر بأشياء ، وأخلاقه الى ما تميل بأن تعتبر كل واحد منها بما يحركه أو يسكنه ، وعلى هذا المثال أجر الحال فى تفقد كل واحد من الأعضاء والأخلاق . أما فيما يمكن ظهوره للحس فلا تقنع فيه حتى تشاهده بالحس ؛ وأما فيما يتعرف بالاستدلال فاستدل عليه بالعلامات الخاصة . وأما فيما يتعرف بالمسألة فابحث عنه بالمسألة . حتى تعتبر كل واحد من العيوب فتعرف هل هو عيب ، حاضر ، أو كان أو متوقع ، أم الحال حال صحة وسلامة » (١٣٩) . وهى طريقة كما ترى شاملة فى الفحص السريرى لا تكاد تترك عرضا من الأعراض الا وتوقفت عنده ولا وسيلة من وسائل التشخيص الا أوصت به . ولما كان التشخيص عن طريق النبض يحتاج الى مهارة فائقة خصوصا فى غياب « الأجهزة الطبية الخاصة بقياسه » فقد لفت الأطباء المسلمون نظر الطلاب الى ضرورة التدريب عليه لاكتساب المهارة الخاصة بالتشخيص عن طريقه . يقول المجوسى : « ان العلم بأمر النبض صعب ومعرفته عسرة المأخذ ، وذلك من ثلاثة أشياء : أحدها أنه لا يسهل على الانسان أن يتدرب فى مجسة العروق دربة يصير بها الى معرفة التغير اليسير الحادث فى النبض . والثانى : أنه يحتاج (الطبيب) عند جس الشريان أن يعرف أجناس النبض كلها فى زمان يسير وهى عشرة أجناس ، والثالث : أن نبضات العروق ليس لها شبيه ولا مقياس يقاس به ويتعلم

عليه ، ولذلك قد يجب على الطبيب أن يرتاض فى جس العروق زمانا طويلا رياضة تامة بعناية وفهم » (١٤٠) .

ولقد أعطى كبار الأطباء أمثلة جيدة لممارسة مثل هـذه الفحوصات الدقيقة عمليا أمام الطـلاب . ويحدثنا ابن أصيبعة عن مشاهدة وتجربة أن الحكيم عمران « كان يظهر أمام طلابه من حسـن المعالجـة وتحققه للأمراض ما يتعجب منه ، حتى أنه عالج أمراضا كثيرة مزمنة كان أصحابها قد سئموا الحياة ويئس الأطباء من برئهم فبرئوا على يديه بأدوية غريبة يصفها ، ومعالجات بديعة عرفها » (١٤١) . ولعل أسلوب التعليم السريرى الذى مارسـه الرازى أن يعطى فكرة عما كان عليـه أسلوب التعليم السريرى عند المسلمين . فقد كانت تعرض الحالات السريرية ، فيتصدى لها الطلاب بمناقشة الحالة ، فاذا صعب عليهم تشخيص الحالة ووصف العـلاج دخل بينهم الرازى ليوضـح لهم ما عسر عليهم فهمه (١٤٢) . أما الطبيب أبو المجد بن أبى الحكم ، فكان يمر على المرضى فى البيمارستان ومن ورائه عدد من التلاميذ فيستجوب المريض عن شكواه ، ثم يفحص بدنه ، ثم ينظر الى قارورته وبصاقه ونبضـه وما الى ذلك من شواهد المرض وعلاماته . ثم ينسحب أبو المجد ، بعـد ذلك الى ايوان خاص بالبيمارستان فيقعد على دكة فيـه ويقعـد التلاميذ من حوله على بسط مفروشة . ويبدأ المعلم فى استعراض ما يشكو منه المريض امام التلاميذ والأعراض المرضية التى لاحظها عليه ويربط بين هـذه وبين شكواه ، ويصـل بالاستنتاج الى تشخيص المرض ثم يذكر طريقـة معالجتـه . فاذ صعب على المعـلم تشخيص المرض أو طريقـة علاجه التقط كتابا من مكتبة البيمارستان وقرأ به عن ذلك المرض . ويطول هـذا الدرس التطبيقى أو يقصر بحسب عدد المرضى وغرابة الحالات المرضية التى تحتاج الى كثير من التدارس وتعليم الطلاب عليهـا (١٤٣) . وأما فى العمليـات الجراحية ، فان استيعاب دروسها يعتمد فى الدرجة الأولى على نباهة التلميذ ومتابعة خطواتها العملية ، ولابد ان الدروس الجراحية كانت قليلة بسبب قلة العمليات الجراحية التى يمارسها الأطبـاء . بعكس عمليات

الفصد التى كانت شائعة ، وكان المعلمون يدربون تلاميذهم على هـذه العمليات باستعمال أوراق النباتات التى تبرز فيهـا عروق الماء كالخس والسلق ، فيتمرن التلميذ على العثور على هذه العروق بالنظر والتلمس وقطعها بالموس الى أن تستقيم ضربات يده قبل تطبيقها على عروق جسم الانسان (١٤٤) . ولقد كان أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى (٥٠٠ هـ) اكبر من برع فى الجراحة واجرى العمليات الجراحيـة واستعان بالآلات والأدوات فى ذلك (١٤٥) . ويعطينا كتابا « آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب » و « دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة » (١٤٦) ، صورة مجملة لآلات الجراحة المستخدمة فى ذلك العصر ، والتى تدرب الطـلاب على استخدامها تحت اشراف أساتذتهم .

٢ — القراءة الذاتيـة :

تعددت المؤلفات الطبيـة تعـددا كبيرا من مبسوطة ومختصرة . وكان لكل مؤلف مميزاته وخصائصه واضافاته التى يضيفها الى ميـدان الطب ، بحيث بدا من المحال أن يدرس الطالب هـذه الموضوعات كلها على يد أستاذ ويقرأها تحت اشراف معـلم . يقول الحكيم أبو سـعيد : « كثرت التصانيف فى الصناعات الطبية مبسوطة ومختصرة ، ولكل جامع نظم وترتيب مفرد ، وكل مجموع لا يخلو عن فوائد غريبة ونكت عجيبة ، ولكل واحد غرض صحيح ليس لسواه » (١٤٧) . ولذلك فان تعليم الطب النظرى كان يستلزم بجوار القراءة على يد أسـتاذ ضرورة اللجوء الى القراءة الذاتية والاطلاع الخارجى . ولقد أظهر الأطباء المسلمون ادراكا كبيرا لأهمية القراءة وأبدوا حرصا فائقا على الاطلاع . ورغم عدم توافر الطباعة فقد أقبلوا على استنساخ الكتب واقتنائها بخطوطهم ، أو خطوط النساخ والكتبة . ويعجب الدارس كيف استطاع الأطباء فى ظل هـذه الظروف أن يجمعوا هذا العدد الهائل من الكتب فى مكتباتهم الخاصة . فابن أصيبعة يروى لنا على سبيل المثال أن أبا كثير افرائيم بن الحسن ، كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها ، وكان ابدا عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفايتهم منه . ولقد باع أبو كثير عشرة آلاف مجلد من مكتبته الخاصة قبل وفاته ، وخلف من الكتب ما يزيد على عشرين الف

مجلد (١٤٨) . وموفق الدين أبو النصر مات وفى خزائنه من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجا عما استنسخه . وكان فى خدمته ثلاثة نســاخ يكتبون له أبدا ، ولهم منه الجماكية والجراية . كما كتب موفق الدين أيضا بخطه كتبا كثيرة « وقد رأيت عدة منها ، وهى فى نهاية حسن الخط والصحة والاعراب ، وكان كثير المطالعــة للكتب لا يفتر عن ذلك فى أكثر أوقاته ، وأكثر الكتب التى كانت عنده توجد وقد صححها وأتقن تحريرها وعليها خطه بذلك » (١٤٩) . فهو لا يكتفى بالقراءة ولكنه يصحح ما يقرأ ويحرره ويعلق عليــه بخط يده . وعلى بن رضــوان بعد الستين من عمره يرى أن حاجته الى القراءة قد قلت بعد هذا العمر الطويل من الدراسة ، ويريد أن يقتصر مكتبته ويستغنى عن غير الضرورى فى مثل هذه السن ، فيرى أن يقتصر منها على : « خمسة كتب من كتب الأدب ، وعشرة كتب من كتب الشرع ، وكتب ابقراط وجالينوس فى صناعة الطب وما جانسها مثل كتاب الحشائش لديسقوريدس ، وكتب روفس ، واريباسيوس ، وبولس ، وكتاب الحاوى للرازى . ومن كتب الفلاحــة والصيد أربعة كتب ، ومن كتب التعاليم المجسطى ومداخله ، وما انتفع به فيه ، والمربعة لبطليموس ، ومن كتب العارفين كتب افلاطون ، وارسطو طاليس ، والاسكندر ، وثامطيوس ، ومحمد الفارابى ، وما انتفع به فيها ، وما سوى ذلك اما أبيعــه بأى ثمن اتفق ، واما أن اخزنه فى صناديق ، وبيعه أجود من خزنه » (١٥٠) . فحتى هذه السن المتأخرة ، وبعــد هذه الشهرة الذائعة التى حققها ابن رضوان ، يذكر لنا هذا الثبت من المؤلفات الأمهات التى يرى أنه لا يجوز الاستغناء عنها لطبيب . وقل أن يترجم ابن أصيبعة لطبيب دون أن يذكر عبارات مثل : « وكان أبدا سائر أوقاته لا يوجد الا معه كتاب ينظر فيه » أو « وكان كثير المطالعة للكتب لا يفتر عن ذلك فى أكثر أوقاته » أو « فكان أبدا لا يفارق فى كمه مجلدا يطالعــه أين توجه » الى غير ذلك من العبارات التى تدل على مقدار شيوع القراءة الذاتية كأسلوب من أساليب الاعداد الجيد للطبيب .

فالطالب ينتقل من القراءة على يد أستاذ (١٥١) ، الى القراءة الدقيقة المتأنية التى يعلق فيها الطالب على ما يقرأ ، ويحقق ويقارن ويستخرج

مختارات لنفسه ، ثم الى القراءة السريعة الخاطفـــة التى يتجه فيهـــا من الكتاب الى الموضع المحدد الذى يريده ، حيث الاضافات الجـــديدة التى يضيفها الكتاب . ويصف لنا البيهقى هــذا النوع الأخير من القراءة من خـــلال صحبة أبى عبيد الجوزجانى ومعاشرته لابن ســـينا بقوله : « ومن عجائب أحوال الشيخ ، أن أبا عبيـــد صحبه ثلاثين سنة ، قال : انه ما رآه ينظر فى كتاب جديد على الولاء ، بل يقصد المواضع الصعبة والمسائل المشكلة منه فينظر ما قاله المصنف فيها ، فيتبين عنده مرتبته من العلم (١٥٢) . ولا شك أن هذا النوع من القراءة كان فى مرحلة متأخرة من حياة ابن سينا ، أما طريقة قراءات ابن سينا فى مدة الاعداد الحقيقى فنجدها أيضا عند البيهقى وغيره حيث يذكر عن ابن سينا « وفى هذه المدة ما نام ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغل بشىء سوى المطالعـــة ، وجمع بين يديه ظهورا من القراطيس ، وكل حجة ينظر فيهـــا يثبت مقدماتها القياسية ويكتبهـــا فى تلك الظهور ، وراعى شرائط المقـــدمات وفصـــل ما هو منتج مما هو عقيم . واذا تحير فى مسألة ما ، وما ظفر فيها بالحد الأوسط تردد الى الجامع وصلى وابتهل الى الله تعالى حتى يفتح الله له المنغلق منها . وكان يعود كل ليلة الى داره ويضع السراج ويشتغل بالقراءة والكتابة » (١٥٣) . والواقع أن أى قراءة لتراجم الأطباء سوف تظهر الدور الكبير الذى لعبته القراءة الذاتية فى حيـــاة الأطباء ، والأهمية البالغـــة التى منحها الأساتذة والطلاب للاطلاع الذاتى كاحدى الأدوات الضرورية للتمكن فى العلم والتبريز فيـــه .

٣ — الملازمة :

يستخدم ابن أصيبعة كثيرا مصطلح « الملازمة » للدلالة على مصاحبة الطالب للأستاذ لأوقات طويلة ، سواء فى دروســــه النظرية أو حلقاته الخاصة المنزلية ، أو ممارساته العملية فى البيمارستان . و « الطـــالب الملازم » غير « الطالب القارىء » . وكلاهما موجود عند ابن أصيبعة ، فنجد كثيرا ، أن فلانا قرأ على فلان « أو » اشتغل بالطب على يد فلان » . وبجوار ذلك نقرأ مثلا : أن ســـديد الدين محمود بن عمر قرأ الطب على فخر الدين الماردينى ، ولازمه مدة طويلة ولم يكن يفارقه فى ســـــفره

ولا حضره (١٥٤) . وأن ابن جميع قرأ صناعة الطب على الشيخ الموفق أبى نصر عدنان بن العين ولزمه مدة (١٥٥) ، وأن رشيد الدين أبو سعيد اشتغل بعلم الطب على رشيد الدين على بن خليفة » ، ولم يكن فى تلامذته مثله ، فانه لازمه حق الملازمة ، وكان لا يفارقه فى سفره وحضره ، واقام عنده بدمشق وهو دائم الاشتغال عليه » (١٥٦ . وابو عبيد الجوزجانى كان من خواص أبى على بن سينا ، وملازمى مجلســـه ، وظل متصلا به حوالى خمس وعشرين ســـنة الى آخر عمر الشيخ (١٥٧) . وطبيعى أن هذه الملازمة الطويلة لكبار الأطباء قد اتاحت للطلاب مزيدا من الاحتكاك العلمى بالأســـاتذة أكثر بكثير من الذين اكتفوا بمجرد القـراءة على يد أستاذ ، وخصوصا أن الطلاب لم يكونوا يلازمون غالبا الا الأطباء الأعلام ، كما يدل على ذلك أسماء الأطباء الذين ذكر ابن أصيبعة أن لهم « تلاميـذ ملازمين » (١٥٨) .

٤ — الامـــلاء :

فى غيبة الطباعة واعتماد العلم والتعليم على النســخ ، اشـــتدت الحاجة الى أن يملى الأساتذة على طلابهم بعض الأمالى . وكانت الأمالى تشتمل على ذكر آراء السابقين فى المسألة ، ومناقشة الأستاذ لتلك الآراء ثم طرح لآراء الأستاذ أو تجاربه العملية فى الموضــــوع . وكان الطالب يكتب فى أول الدرس : « أملاه شيخنا فلان » ثم يدعو لأستاذه بالخير . فعلى احدى أمالى أبو الفرج بن الطيب الطبيب وجـــدت هذه العبـــارة : « هذه الكراســـة بخط ســـيدنا الأجل أبى النصر محمد بن على بن برزج تلميذ أبى الفرج ، أملاها الشـــيخ أبو الفرج ، أطال الله بقاءه ، ونكب اعداءه عليه ببغداد » (١٥٩) . وعلى أمالى أخرى قد نجد مثل هذه العبارة « مقـــالة أملاها فلان » فى جواب ما ســــئل عنه من أن « كذا » وتذكر المسألة موضوع المحاضرة . ويفتخر الطالب فى الغالب أنه كان من تلاميذ « فلان الطبيب » ، وأنه حضر أماليه الطبية « وكتبها بنفســـــه . فابن الدهمان ، أحـــد تلاميـــذ أبى البركات هبة الله يروى أنه حضر أمالى أبى البركات مع غيره من الطلاب الذين يذكر أسماءهم ، وكان من بينهم عـــلى

يوسف والد الشيخ عبد اللطيف البغدادي الطبيب المشهور (١٦٠) . ولكن الاعتماد على « الإملاء » كطريقة للتعليم الطبى تقل بالتدريج لتحل محلهـا طريقـــة « القراءة من كتاب » وشرحه ، وذلك برواج صناعة الورق ، وانتشار الكتب ، وان لم تختلف طريقة الاملاء تماما من التعليم الطبى أو غيره من العلوم (١٦١) .

٥ — المناقشات والمناظرات والاستشارات الطبية :

كان الفكر التربوى الاسلامى — بعكس ما هو سائد — يؤمن عموما بضرورة توافر عنصر المناقشـــة والمناظرة والمطارحة فى التعليم ، وليس مجرد المذاكرة والحفظ لموضوعات الدراسة . « اذ لابد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة » لأن فائدة المطارحـــة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار ، لأن فيه تكرارا وزيادة ، وقيل مطارحة ساعة خير من تكرار شهر » (١٦٢) .

ولقد انعكس ذلك على « التعليم الطبى » فكانت المناقشـــات بين الأطباء بعضهم بعضا ، وبينهم وبين طلابهم . ونصـــح الطبيب مهما كان حاذقا أن يستشـــير غيره من الأطباء فى الحالات المرضـــية الصـــعبة . فالعمانى الطبيب يقول : « من استبد بمعالجته فى حال مرضـــه وان كان طبيبا حاذقا فقد يعرض للخطأ بجهده ، والاستشارة أداة كاملة » (١٦٣) . ولذلك وجدنا موفق الدين بن سقلاب كثيرا ما كان يجلس مع مهذب الدين ابن على « فى الموضـــع الذى يجلس فيه الأطباء عند دوار الســـــلطان ويتباحثان فى أشياء من الطب .. » (١٦٤) كذلك كان مهذب الدين يتباحث أيضا مع عمران الاسرائيلى ويتناقشان معا فى الحالات المرضية التى كانت تعرض لهما فى البيمارستان الكبير بدمشق . وقد اســـتفاد طلابهما بتلك المناقشات والاستشارات الطبية » (١٦٥) . أما ابن خطيب الرى ، فكان يشرك طلابه فى مناقشة الحالات .« وكان اذا جلس للتدريس يكون قريبا منه جماعة من تلاميـــــذه الكبار ، مثل زين الدين الكشى والقطب المصرى وشهاب الدين النيسابورى ، ثم يليهم بقية التلاميذ وسائر الخلق على قدر مراتبهم ، فكان من يتكلم فى شىء من العلوم يباحثه أولئك التلاميذ الكبار ،

فان جرى بحث مشكل أو معنى غريب شاركهم الشيخ فيما هم فيه ، وتكلم فى ذلك المعنى بما يفوق الوصف » (١٦٦) . وتحرص أدبيات التربية الاسلامية أن تتم المناقشات والمناظرات فى جو علمى يتسم بالبحث عن الحقيقة ، ولا يتدخل فيه الغرور ، أو تقليل شأن الآخرين . اذ « ينبغى أن تكون المناظرة والمطارحة بالانصاف والتانى والتامل ، ويتحرز عن الشغب والغضب ، فان المناظرة مشاورة ، والمشاورة لاستخراج الصواب ، وذلك انما يحصل بالتامل والانصاف » (١٦٧) . واذا كان ابن أصيبعة يسوق لنا فى مواضع مختلفة من كتابه صورا لهذا النقاش العلمى الرصين ، وتلك الاستشارات الطبية التى كان يتبادلها الأطباء ، فقد توقف أحيانا مستنكرا تلك المناقشات التى لم تكن فى خدمة العلم بقدر ما كانت للتشنيع على جهود الآخرين . فهو يقول عند حديثه عن على بن رضوان : « وكان ابن رضوان كثير الرد على من كان يعاصره من الأطباء وغيرهم ، وكذلك على كثير ممن تقدمه . وكانت عنده سفاهة فى بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته . وأكثر ذلك يوجد عندما كان يرد على حنين بن اسحاق وعلى أبى الفرج بن الطيب ، وكذلك أيضا على أبى بكر محمد بن زكريا الرازى » (١٦٨) ولا شك أن هذه المناقشات والمناظرات والاستشارات كانت أداة طيبة لتبادل الآراء والأفكار الطبية بين الأساتذة والطلاب .

٦ — المراسلات الطبية :

سوف يلاحظ الدارس هذا العدد الهائل من « الرسائل الطبية » التى كتبها الأطباء الكبار ، اما ردا على سؤال طالب ، أو زميل فى المهنة ، أو لشرح موضوع من الموضوعات الطبية الخاصة ، ويكفى أن نذكر هنا أن طبيبا واحدا هو « ابن مندويه الأصفهانى » كانت له أربعون رسالة مشهورة فى الطب كتبها الى أصحابه وطلابه وتناول موضوعات طبية مختلفة . فهناك رسالة الى أحمد بن سعد فى تدبير الجسد ، ورسالة الى حمزة بن الحسن فى تركيب طبقات العين ، ورسالة الى أبى جعفر أحمد بن محمد فى القولنج وغيرها » (١٦٩) . وقل أن يوجد طبيب مشهور لم توجد بينه وبين طلابه وزملائه مراسلات طبية مما يبرز أهمية « المراسلات » كاحدى « الوسائل التعليمية » فى هذا العصر . ولم تقتصر تلك المراسلات الطبية على أطباء الاقليم الواحد ، بل كانت هناك أيضا

مراسلات « عبر البحار » — اذا جاز هذا التعبير — فان بطلان الطبيب البغدادى كان معاصرا لعلى بن رضــوان الطبيب المصرى ، وكان بينهما « المراسلات العجيبة والكتب البديعة الغريبة ، ولم يكن احد منهم يؤلف كتابا ولا يبتدع رأيا الا ويرد الآخر عليـــــه » (١٧٠) كذلك كان اليبرودى الدمشقى على مراســـلات طبية مع ابن رضـــوان المصرى ومع غيره من الأطباء المصريين (١٧١) . ولا شك أن هذا « التواصل العلمى » بين الأطباء قد هيأ المناخ العلمى المناســـب لتبادل الآراء والأفكار الجديدة فى ميـــدان الطب . لم يجعل الأطباء يمثلون « دوائر علمية مغلقة » غير منفتحة على ممارسات الأطباء الآخرين . ولقد ثبت أن الباحث الجيد فى أى تخصص ينبغى أن يكون على صلة علمية بثلاثة من الباحثين المهتمين بمجال دراسته على الأقل (١٧٢) ، ولعل تلك المراسلات العلمية التى قامت بين « الأطباء المسلمين » كانت تمثل نوعا من أنواع هذا « الاتصـال العلمى » بين المهتمين بمجال الطب .

٧ — الرحلـــة :

فى عالم اسلامى واحد ، لا يعرف الحدود بين أقاليمه ودوله ، وفى ظل ظروف حياتية وفرتها الأوقاف الاسلامية ، استطاع الطالب أن ينتقل من مكان الى مكان باحثا عن الطبيب المشهور الذى يتتلمذ عليه ، فيلازمه حتى يتخرج ويتقن الصنعة ، ولقد كان الفكر التربوى الاسلامى يحث على الرحلة فى طلب العلم ، لما فى الغربة من تفرغ بالبعد عن الأهل والوطن ، ومن فوائد الاحتكاك بروافد ثقافية جديدة ومختلفة ، ولما فى تحمل مشاق الرحلة من تقوية ارادة الطالب وعظيم الثواب وادراك لذة العلم (١٧٣) . يقول الزرنوجى : « ولابد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقـــدر الوسع ، فلهذا اختاروا الغربة . ولابد من تحمل النصب والمشـــــقة فى سفر التعلم ، كما قال موسى صلوات الله على نبينا وعليه فى سفر التعلم ، ولم ينقل عنه ذلك فى غيره من الأسفار : « لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » (الكهف : آية ٦٢) ، وليعلم أن ســـــفر العلم لا يخلو من التعب ، لأن طلب العلم أمر عظيم وهو افضل من الغزاة عند اكثر العلماء . والأجـــر على قدر التعب والنصـــب ، فمن صبر على ذلك التعب وجد لذة العـــلم تفوق لذات الدنيا . ولهذا كان محمد بن الحسن اذا سهر الليالى وانحلت

له المشكلات يقول : « أين أبناء الملوك من هذه اللذات ؟ » (١٧٤) . ولذلك نجد البيزودى الدمشقى يســــأل عن امام وقته فى معرفة صناعة الطب والمعرفة بها جيـداً فذكروا له أن ببغداد أبا الفرج بن الطيب وله خبرة وفضل فى صناعة الطب وفى غيرها من الصنائع الحكمية ، فنجده يتأهب للسفر الى بغداد ، ويأخذ سواراً كان لأمه لنفقته ويتوجه الى بغداد ، ويشـــتغل على أبى الطيب الى أن مهر فى صناعة الطب (١٧٥) . وكذلك أبو الفضل بن أبى الوقار الدمشقى يرحل الى بغداد ويقرأ على أفاضـــل الأطباء من أهلها ويعود الى دمشـــق وقد أصبح متميزاً فى صناعة الطب علمها وعملها (١٧٦) . ومهذب الدين بن النقاش البغدادى يرحـــل الى دمشق ، ثم يتوجه الى الديار المصرية ويقيم بها مدة لكى يجتمع بأفاضـــل أطبائها ، وأبو زكريا يحيى البياسى الأندلسى يأتى الى ديار مصر متعلماً ثم يتوجه الى دمشق طبيباً حاذقاً ... (١٧٧) الخ ... الخ . وتتعدد رحلات الطلاب والأطباء الممارسين من قطر الى قطر بحثاً عن الأستاذ الحاذق ، وبحثاً عن مزيد من الخبرات والتجارب والممارسات الطبية الجديدة .

وفى الغالب ما تتم تلك الرحلات فى أول مرحلة الشباب . ويحكى لنا ابن أصيبعة كيف أن عمه رشيد الدين بن خليفة ، وهو فى أول شـــبيبته « قصد السفر الى الموصل ليجتمع بالشيخ كمال الدين بن يونس ويشتغل عليه ، لما بلغه من علمه وفضله الذى لم يلحقه فيه أحد وتجهز للسفر ، فلما علمت بذلك والدته ، جدتى ، بكت وتضرعت اليسنه أن لا يفارقهـــا ، وكان يأخذ بقلبها فلم يمكنه مخالفتها ، وأبطل الرواح اليه » (١٧٨) . ولقد لعبت فريضة الحج دوراً مشجعاً على التواصل العلمى بين الأطباء ، اذ جعل طلاب الطب وأساتذته من الهند واسبانيا وآسيا الصغرى وأفريقيا يمرون فى طريقهم الى مكة والمدينة ببلاد عديدة ، حيث يزورون المدارس الطبية والبيمارستانات والمساجد ومعاهد العلم التى تضم الأطباء البارزين فيكون هناك حوار ونقاش وعلم وتعليم (١٧٩) . كذلك يسر على الطـــلاب والأطباء القيـــام بتلك « الرحلات العلمية » ما كان يخصصـــه الأمراء والسلاطين لطالبى العلم الوافدين من منشـــآت تلبى احتياجاتهم المادية والصحية . من ذلك ما يذكره ابن جبير عن زيارته الى مصر : « ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة الى سلطانه : المدارس والمحارس

(جمع محرس ، وهى مأوى مخصص للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء) الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد ، يقدمون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى اليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه واجراء (مرتب) يقوم به فى جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم الأطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رتب أيضا فيه أقواما برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة وينهون للأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم » (١٨٠) . وهذه العناية بالطلاب والعلماء الوافدين يسرت بدون شك أسباب الرحلة فى طلب « التعليم الطبى » لملاقاة كبار الأطباء والاستفادة من علمهم وتجاربهم الطبية .

٨ ـ الحفظ :

لقد مضت مدة طويلة وأغلب الدراسات تؤكد على أن الحفظ ولو بدون فهم هو أكثر الأساليب شيوعا فى التعليم الاسلامى . ولقد أشاع هذا الاعتقاد ما كتبه المستشرقون حول هذا الموضوع . ونقل الدارسون المسلمون هذا الخطأ الشائع بدون تحقيق علمى (١٨١) . حتى أن الباحث الحالى كتب فى دراسته عن ابن سينا لنيل درجة الماجستير عام ١٩٦٩ : « فالعالم فى التصور الاسلامى هو الحافظ ، وبقدر ما يكون الطالب حافظا لشتى الكتب يكون عالما . ويبدو أن الحفظ والاستظهار لم يكن قاصرا على العلوم النقلية التى تستدعى هذا الحفظ والاستظهار بل لجأ اليه طلاب الدراسات العقلية أيضا » (١٨٢) . وبذلك أصبحت الفكرة السائدة فى الأذهان أن الطالب المسلم كان يعكف على الكتب — فى أى موضوع — لكى يحفظها ولو بدون فهم حتى يكون عالما . وأن التعليم فى الاسلام يقوم على الرواية لا الدراية . أى على الحفظ لا الفهم . وسنجد أن باحثا معاصرا بعد أن يعرض لبعض أراجيز ابن سينا فى الطب يصدر هذا الحكم القاطع : « وأهمية هذه الأراجيز من الناحية التربوية أنهما

تؤكد على أهمية كم المعلومات ، اذ أن الغرض الأســـاسى من نظمها هو ولا شك تيســـيرها للحفظ بغض النظر عن الفهم والتطبيق » ، ويدل ذلك على أمرين ، أولهما : تقسيم الألفية للطب تقسيما منطقيا الى نظرى وعلمى ولكل من هذين اجزاؤه . فالنظرى ينقسم الى سبع طبيعيات ، وســت ضروريات ، وثلاثة أمور خارجة عن الطبيعة ، أما الطب العملى فهو من قسمين : الباطنى منه ، وهو ما يدبر بالأغذية والأدوية ، والجراحى وهو ما يعمل باليد .. وهكذا . أما الدليل الثانى : فهو ما حكى عن ابن سينا انه « ما كان يسمح لتلاميذه بالجلوس اليه والتلقى عنه الا بعد أن يحفظوا ارجوزته عن ظهر قلب » (١٨٣) .

والواقع أننا اذا رجعنا الى أدبيات التربية الاسلامية ، والى تراجم أعلامها المختلفة ، لتأكد لنا مقدار ما فى هذه الفـــكرة من مجانبة للواقع العلمى والتعليمى . فقد أكد فلاسفة التربية المسلمون على ضرورة توافر عنصر الفهم قبل الحفظ ، وأن يبدأ الطالب بالكتب الصغيرة السهلة قبـــل الكتب المطـــولة . وفى ذلك يقول الزرنوجى : « وينبغى أن يبتدأ بشىء يكون أقرب الى فهمه ، وكان الشيخ الامام الأستاذ شرف الدين العقيلى رحمه الله يقول : « الصواب عندى فى هذا ما فعله مشايخنا رحمهم الله ، فانهم كانوا يختارون للمبتدىء صغارات المبسوط ، لأنه أقرب الى الفهـــم والضبط ، وأبعد من الملالة وأكثر وقوعا بين الناس » ، ويحذر الزرنوجى : « من أن يكتب المتعلم شيئا لا يفهمه ، فانه يورث كلالة الطبع ، ويذهب الفطنة ويضيع أوقاته » ، ويدعو الى الاجتهاد فى الفهم والتأمل فيما يتعلم لأن « فهم حرفين خير من حفظ سطرين ، وان تهاون فى الفهم ولم يجتهـــد مرة أو مرتين يعتاد ذلك فلا يفهم الكلام اليســـير ، فينبغى الا يتهاون فى الفهم ، بل يجتهـــد ، ويدعـــو الله ويتضرع اليه فانه يجيب من دعـــاه ولا يخيب رجاه » (١٨٤) . ويؤكد طاش كبرى زاده هذا المعنى فيقـــول : « وينبغى لطالب العلم أن يكون متأملا فى جميع الأوقات فى دقائق العلم ، ويعتـــاد ذلك ، فانما يدرك الدقائق بالتأمل . ولذلك قيـــل تأمل تدرك ، خصوصا قبل الكلام ، فان الكلام كالسهم لابد من تقويمه بالتأمل أولا » (١٨٥) . فاذا تركنا مؤلفات رجال التربية ، وطالعنا كتابا مثل عيون الأنباء فى طبقات

الأطباء وذهبنا نقرأ عن أسلوب هؤلاء الأعلام الذين يترجم لهم ابن أصيبعة، وكيف تعلموا بالفعل ؟ وحظهم من الحفظ أثناء حياتهم الدراسية ، وجدنا أن أسلوب الحفظ لا يظهر الا فى المرحلة الأولى لحفظ شىء من الأدب ، وحفظ القرآن الكريم ، أما فى المرحلة التالية فان عناصر الفهم والتأمل والمناقشة تمثل عناصر أساسية من العملية التعليمية على نحو ما ذكرنا فى الصفحات السابقة . مما يؤكد بالفعل على أن إعتماد التعليم الاسلامى على الحفظ والاستظهار انما هو تعميم خاطىء أشاعه المستشرقون تحت وهم أن العرب كانوا أميين لا يقرؤون ولا يكتبون ، أو أنهم لم يعرفوا الورق الا متأخرا ... الخ فاعتمدوا على الذاكرة ، أو أن عدوى الحفظ قد انتقلت اليهم من علوم اللغة وعلوم الدين الى سائر العلوم ، وهى دعوى يكذبها الواقع التربوى الاسلامى على المستوى النظرى ممثلا فى آراء فلاسفة التربية المسلمين ، وعلى المستوى العملى ممثلا فى الممارسات التربوية الفعلية للطلاب والعلماء على نحو ما ذكرنا . واذا كان المسلمون فى عصور الانحطاط العلمى والثقافى ، والكبت الفكرى والسياسى قد اهملوا ملكات الفكر الحر الناقد ، واعتمدوا بصورة أكبر على استرجاع ثقافة العصور السابقة ، فان هذا التردى التربوى لا يمكن ان يتخذ دليلا على أن « التعليم الاسلامى » قد اتخذ من الحفظ ولو بدون فهم وسيلة تربوية شائعة (١٨٦) .

اما الأراجيز الطبية التى استعملها بعض الأطباء المسلمين فى التعليم الطبى سواء كانت لابن سينا أو غيره من الأطباء فلم تكن تحفظ بدون فهم ، بل كان الطالب مطالبا بأن يفهم محتواها ، والا فما الفائدة أصلا من حفظها ؟ واستخدام الشعر لأغراض تعليمية له تاريخه عند اليونان والرومان ، ثم استخدمه المسلمون فيما بعد ، ونظموا شعرا تعليميا فى شتى المجالات ومنها الطب (١٨٧) . ولابن سينا سبع أراجيز طبية مشهورة هى (١٨٨) :

١ — ارجوزة التشريح مطلعها :

الحمد لله على تهذيبى

وعاصمى من أمم تهذى بى

٢ — أرجوزة فى تدبير الصحة مطلعها :

الحمـــد لله اللطيف الـــكافى

الواحد الفرد الحكيم الشـــافى

٣ — ارجوزة فى الوصايا الطبية فى ٧١ بيتـــا مطلعها :

اول يوم تنزل الشمس الحمـــل

تشرب مـــاء فاترا على عجـــل

٤ — ارجوزة فى المجربات الطبية فى خمسة وثلاثين بيتا مطلعها :

بدأت باسم الله فى النظم الحسن

أذكر ما جربتـــه طـــول الزمن

٥ — ارجوزة فى الفصول التى فيها تناول الطعام مطلعها :

يقول راجى ربه ابن ســـينا

ولـــم يزل بالله مســـتعينا

٦ — ارجوزة فى حجر الذخيرة وتسمى أيضا ارجوزة فى الباه مطلعها :

يا ســـائلى من وجـــع فى الوسط

ونقطـــة تاتى له لـــم تخطى

٧ — أما الأرجوزة السابعة اشهر الأراجيز وأطولها والمسماة بالفية ابن سينا فى الطب، ولو انها تحتوى على الف وثلاثمائة وعشرين بيتا وموضوعها حفظ الصحة ومطلعها :

الطب حفظ صـــحة برء مرض

ومن سبب فى بدن عنـــه عـــرض

وشعر العنترى الطبى كثير نذكر منه قطعة مختارة هنا كنموذج لهـــذا الشعر ولدوره التعليمى ، فى تقديمه المعلومات الطبية على شكل اشـــعار يسهل تذكرها . يقول العنترى (١٨٩) :

احفظ بنى وصيتى واعمل بهـا
فالطب مجموع بنص كلامى

قدم على طب المريض عناية
فى حفظ قوته مع الأيام

بالشبه تحفظ صحة موجودة
والضد فيه شفاء كل سقام

أقلل نكاحك ما استطعت فانه
ماء الحياة يراق فى الأرحام

واجعل طعامك كل يوم مرة
واحذر طعاما قبل هضم طعام

لا تحقر المرض اليسير فانه
كالنار يصبح وهى ضرام

واذا تغير منك حال خارج
فاحتل لرجعه حل عقد نظام

لا تهجرن القىء واهجر كل ما
كيموسه سبب إلى الاسقام

ان الحمى عون الطبيعة مسعد
شاف من الأمراض والآلام

لا تشربن بعقب أكل عاجلا
او تأكلن بعقب شرب مدام

والقىء يقطع والقيام كلاهما
بهما وليس بنوع كل قيام

وخذ الدواء اذا الطبيعة كررت
بالاحتلام وكثرة الأحلام

واذا الطبيعـــة منك نقت باطنا
فــدواء ما فى الجســلد بالحمام
اياك تلزم اكل شىء واحـــد
فتقــود طبعــك للأذى بزمام
وتزيد فى الأخــلاط ان نقعت به
زادت فنقص فضلهــا بقــوام
والطب جملتــه اذا حققتــه
حــل وعقــد طبيعة الأجسام
ولعقــل تدبير المــزاج فضيلة
يشفى المريض بهــا وبالأوهام

ومن الذين الفوا الشعر الطبى سعيد بن عبد ربه (١٩٠) ، وسديد الدين ابن رقيقة الذى يقول عنــه ابن أصيبعة : « وأما الرجز فاننى ما رأيت فى وقته من الأطباء احد أسرع عملا له منه ، حتى انه كان يأخذ أى كتاب شاء من الكتب الطبية وينظمه رجزا فى اسرع وقت مع استيفائه للمعانى ومراعاته لحسن اللفظ » (٩١١) . ولا شك أن ذلك يدل على تمكن ابن رقيقة فى الطب والشعر معا . وقس على هؤلاء غيرهم من الأطباء الأدباء الذين الفوا الشعر الطبى ، كاحدى الوسائل التعليمية المعينة للطالب على تذكر بعض المعلومات الطبية الهامة .

وفى النهاية ، نحب أن نؤكد هنا على امرين : الأمر الأول : انه اذا كان قد ورد عن بعض الأطباء مثل ابن سينا ضرورة حفظ بعض « المتون الطبية » أو تذكر بعض الحقائق المتعلقة بالطب ، فان هــذا الأمر لم يكن خاصــا بالعرب المسلمين ، بل سيوجد دائما بين المعلمين على مر العصور من يؤكد على أهمية تذكر الطالب لبعض حقائق العلم ، وأن تكون حاضرة فى ذهنه عند الطلب ، ويروى ابن أصيبعة أن ســقراط لم يصنف كتابا ولا أملى على احــد من تلاميذه ما اثبته فى قرطاس ، وانما كان يلقنهم علمه تلقينا لا غير ، وانه تعلم ذلك من أســتاذه طيماثاوس فانه قال له فى صــباه :

لم لا تدعنى أدون ما أسمع منـــك من الحكمة ؟ فقال له : ما أوثقك بجلود البهائم الميتة ، وازهدك فى الخواطر الحية ، هب أن انسانا لقيك فى طريق فسألك عن شيء من العـــلم ، هـــل كان يحسن ان تحيله على الرجوع الى منزلك والنظر فى كتبـــك ؟ فاذا كان لا يحسن فالزم الحفظ ، فلزمها سقراط » (١٩٢) . الأمر الثـــانى : انه فى كل علم وتعليم فان هناك قدرا معينا من حقائق العلم لابد أن تستظهر ، وليس ذلك بقادح فى عملية العلم والتعليم ، ما كان هذا الاستظهار مصاحبا للفهم والتأمل وحسن استخدام المعلومة المحفوظة . وفى هذه الحـــدود يمكن أن نفهم الدور الذى لعبـــه الحفظ فى التعليم الطبى عنـــد المسلمين دون اى تضخيم لهـــذا الدور ، أو الغاء لأثره القوى فى نجاح هـــذا التعليم عند المسلمين .

سادسا — عدد سنوات التعليم الطبى :

سبق أن ذكرنا عند حديثنا عن « مرحلة التعليم الأولى » أن المسلمين لم يتقيدوا بتحـــديد سن معينـــة لبداية التعلم أو نهايتـــه ، وتركوا ذلك لاستعداد الطالب وتقدير الأستاذ ومتابعة الوالدين . وسنرى هنا أيضا أن « التعليم الطبى » لم يخضع لعدد سنوات دراسية معينة ، فابن سينا على سبيل المثال عندما وصل الى الثامنة عشر من عمره كان قد قرأ شيئا من الطب ، واشتهر به حتى أن الأمير نوح بن منصور السامانى قد طلب مشاركته فى علاجه (١٩٣) . وعلى بن رضوان كان يتكسب فى مثل هـــذه السن أيضا من الطب (١٩٤) . ولكن يبدو أن المقصود بالاشـــتغال بالطب فى مثل هذه السن هو ممارسة بعض الأمور الطبية البسيطة غير المعقدة ، خصوصا اذا عرفنا أنه كان من رأى ابن سينا أن الطالب فى تلك المرحلة الدراسية بعد أن يختار العلم الذى سيتخصص فيه ، وبعد أن يقطع فيه شوطا فمن الأفضل أن يمارس هـــذا العـــلم عمليا . فاذا كان قد اختار الطب حاول أن يزاول عمليا هذه المهنة ، وان كان يدرس الأدب أو الكتابة والانشاء حاول التكسب بهذا العلم ، وفى ذلك كما يرى ابن سينا منفعتان : احداهما : اذا ذاق حلاوة الكســـب بضاعته وعرف غناها وجدها عظيمة فلم يضجع (يقصر) فى احكامها وبلوغ اقصاها . والثانية : أن يعتـــاد طلب المعيشة » (١٩٥) . وابن رضوان أيضا الذى مارس شيئا من الطب

انبسيط فى سن مبكرة من أجل التكسب ، يذكر أنه بجوار ذلك واصل الاجتهاد فى التعليم كما يذكر « الى السنة الثانية والثلاثين ، فانى اشتهرت فيها بالطب ، وكفانى ما كنت أكسبه بالطب ، بل وكان يفضل عنى انى وقتى هذا ، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين ، وكنسبت مما فضل عن نفقتى أملاكا فى هذه المدينة أن كتب الله عليها السلامة وبلغنى بسن الشيخوخة كفانى فى النفقة عليها » (١٩٦) . فكان ابن سينا وابن رضوان قد درسا الطب لمدة ثلاث سنوات لممارسة بعض الاستشارات الطبية البسيطة ثم درسا الطب بعد ذلك مدة أطول لينالوا الشهرة ويكتسبوا الحذق بالصنعة . أما ابن جلجل صاحب طبقات الأطباء والحكماء فقد بدأ طلبه للطب فى الرابعة عشرة ، وأفتى فيه فى الرابعة والعشرين ، وغلب عليه هذا الفن وبه عرف ، وفى رجاله كانت مؤلفاته (١٩٧) ، أى أنه ظل يدرس الطب حوالى عشر سنوات . وهناك اشارات كثيرة تدل على أن بعض الطلاب كان سريع التحصيل . فرشيد الدين خليفة يقول له أستاذه فى حضور ابن أصيبعة : « والله يا رشيد الدين ، هذا الذى علمته فى نحو شهر دأب غيرك فى خمس سنين حتى يعلمه » (١٩٨) . ولذلك فمن الطبيعى أن يخضع عدد سنوات التعليم الى عوامل مثل : استعداد الطالب العلمى ، ودوافعه للتعلم : وهل يريد أن يكون ممارسا لفرع واحد من الطب للتكسب به ، أم يريد أن يكون « حكيما » ويصل الى درجة الفقه فى الطب « الذى يفرع ويقيس ويستخرج » (١٩٩) . كذلك فان الدارس للكثير من تراجم الأطباء يلاحظ ظاهرة تكاد أن تكون عامة وهى أن المشهورين من الأطباء كانوا دائمى التعلم والقراءة والاطلاع مدى حياتهم الطبية تقريبا (٢٠٠) . وهؤلاء بلا شك هم فقهاء الطب وحكماؤه كما يصفهم أحمد بن الأشعث فى صدر كتابه : « الأدوية المفردة » .

سابعا — نظام الامتحانات :

يبدو أن الأطباء فى بداية الأمر كانوا يمارسون المهنة بعد أن يقرأوا بعض كتبها على أحد الأطباء البارزين ويجدوا فى أنفسهم القدرة على مزاولتها دون أن يكون عليهم شروط علمية بامتحان أو حكومية باجازة (٢٠١) . ولكن البعض قد تعجل مزاولة المهنة ، والحق الأذى

بأرواح الآخرين ، وأدعى آخرون المعرفة بالطب ، لابتزاز أموال المرضى ، وأطلق على معرفة هؤلاء بالطب أنه « طب الطرقات » كناية عن جهلهم بالطب الحقيقى ، وابتذالهم المهنـــة (٢٠٢) ، كما أطلق عليهم أيضـــا لفظ « المتطببين » أى الذين يمارسون الطب وهم ليسوا أطباء على الحقيقة (٢٠٣) . ولذلك كان لابد أن تنظم ممارسة المهنة بحيث لا يتصدى لها الا من لديه الكفاءة العلميـــة والمهنية . ونستطيع أن نميز بين نوعين من الامتحانات ظهرا لقياس تلك الكفاءة . أحدهما للأطبـــاء الأحـــداث عند التخرج ، والثانى للأطبـــاء الممارسين . أما امتحان التخرج فقـــد شـــمل النظرى والعملى ، وطبيعى أن نجد كل عضو هيئة تدريس يركز أكثر فى امتحانه على أحد الجوانب أكثر من الأخرى . فالرازى على سبيل المثال لم يكن يعترف بالطبيب ما لم يكن ملما بتشريح جسم الانســـان ويجعـــل هـــذا الموضوع فى مقدمة ما يسأل عنه الطالب ، فاذا فشل فى معرفة التشريح فان ذلك يكفى لرسوبه دون حاجة الى اختبـــاره فى العلوم السريرية . يقول الرازى : « فأول ما تسأله عنـــه التشريح ومنافع الأعضاء ، وهل عنده علم بالقياس وحسن فهم ودراية فى معرفة كتب القدماء . فان لم يكن عنده ذلك فليس بك حاجة الى امتحانه فى المرضى . وان كان عالما بهـــذه الأشياء فأكمل امتحانه حينئذ فى المرضى ، فان رأيته يدرى ففى الأدوية » . أى أن الرازى كان يبدأ بالجانب النظرى ويؤكد عليه أما على بن رضوان فقد كان له رأى مخالف ، اذ كان يركز على الجانب العملى اعتقادا منـــه أن القسم النظرى يستطيع الطالب أن يتعلمـــه فيما بعـــد دون الحاجة الى أستاذ مشرف . أما القسم العملى فهو الذى يجب التأكد فى الامتحان من أن الطالب قد أتقنه ومارسه على يد أستاذ قبل تخرجه (٢٠٤) .

أما امتحان الممارسين للمهنة ، فقد وضع امتحان الصيادلة فى عهد المأمون ، ويروى ابن أصيبعة قصة بداية هذا الامتحان وكيف أن يوسف ابن ابراهيم قد أخبر المأمون « أن الصيدلانى لا يطلب منه انسان شـــيئا من الأشياء كان عنده أو لم يكن الا أخبره بأنه عنده ، ودفع اليه شـــيئا من الأشياء التى عنده ، وقال هذا الذى طلبت . فان رأى أمير المؤمنين

أن يضـع اسما لا يعرف ، ويوجه جماعة الى الصيادلة فى طلبه لابتاعه فليفعل ، فقال له المأمون : قد وضعت الاسم وهو سقطيثا — وسقطيثا ضيعة تقرب من مدينة السلام . ووجه المأمون جماعة من الرسل يسألهم عن سقطيثا ، فكلهم ذكر أنه عنده وأخذ الثمن من الرسـل ودفع اليهم شيئا من حانوته ، فساروا الى المأمون باشـياء مختلفة ، فمنهم من أتى ببعض البذور ، ومنهم من أتى بقطعة من حجر ، ومنهم من أتى بوبر » ، وكانت هذه الحادثة سببا فى امتحان الصيادلة والا يتصدى لتلك المهنة أحد الا بعد امتحانه للتأكد من علمه وأمانته (٢٠٥) . أما امتحان ممارسة الطب فقد بدأ فى عهد المقتدر . ويروى لنا ابن أصيبعة أيضا قصة بداية هذا الامتحان فيقول نقلا عن ثابت بن سنان : « لما كان فى سنة تسع عشرة وثلاثمائة اتصل بالمقتـدر أن غلطا جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل — فأمر ابراهيم بن محمـد بن بطحا بمنع سـائر المتطببين من التصرف الا من امتحنه والدى سـنان بن ثابت . وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له من الصناعة ، فساروا الى والدى وامتحنهم ، وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه . وبلغ عددهم فى جانبى بغداد ثمانمائة رجل ونيفا وستين رجلا ، سوى من استغنى عن محنته باشتهاره بالتقدم فى صناعته ، وسوى من كان فى خدمة السلطان » (٢٠٦) . وبذلك أصبحت مهنة الطب والصيدلة لا تمارس الا بعـد اجتياز امتحان تديره رئاسة الأطباء بمعونة هيئة الحسبة ، التى مارست وظيفة التفتيش والرقابة على الأطباء والصيادلة فى تلك العصور (٢٠٧) . واذا كان رئيس الأطباء هو الذى يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم فى ممارسة المهنـة فقد كان رئيس الكحالين يمارس نفس الدور مع طائفة الكحالين ، ورئيس الجرائحية بالنسبة للجرائحية والمجبرين (٢٠٨) .

ولقد تطور هذا الامتحان شيئا فشيئا بحكم الزمن وتقدم الصنعة ، حتى اذا حل القرن العاشر الهجرى صار على كل من يكمل تعلم المهنـة ويرغب فى ممارستها ، أن يقدم طلبا الى رئيس الأطباء مشفوعا بما يشبه الأطروحة تتضمن شيئا من أعماله الشخصية فى الطب ، أو تعليقا على أحد الكتب البارزة فيه . ويمتحنه رئيس الأطباء فى بحث هـذه الأطروحة ،

وفى كل ما له علاقة بها من علوم الطب ، ويجيزه على ممارسة الصنعة بحسب معلوماته بذلك (٢٠٩) .

ثامنـا — اساتذة الطب :

كان اختيار الأستاذ مهما فى التعليم الطبى الاسلامى ، ولذا حرص الطلاب على أن يختاروا الأطباء المشهود لهم بالكفاءة ليتلقوا عليهم العلم النظرى والتدريب العملى سواء كان هذا الأستاذ داخل الاقليم او رحلوا اليه أينما وجد . وتؤكد أدبيات التربية الاسلامية على أهمية حسن اختيار الأستاذ ، وأن يتريث الطالب فى ذلك ، وان يشاور وان يسال عن الأستاذ الأعلم والأروع والأسن ، « اذ ان أول ما يذكر من المرء أستاذه ، فان كان جليلا جل قدره » فاذا وجد الطالب استاذا جليل القدر لازمه واخذ عنه (٢١٠) . وبحثا عن الأستاذ الحاذق رحل طلاب الطب من مكان الى آخر (٢١١) . فرضى الدين الرحبى على سبيل المثال يرحل اليه الطلاب لذيوع شهرته ، ولذلك « اشتغل عليه بصناعة الطب خلق كثير ، ونبغ منهم جماعة عدة ، واقرأوا لغيرهم وصاروا من المشايخ المذكورين فى صناعة الطب » (٢١٢) . ولقد كان الطالب ينسب دائما الى أستاذه الذى تخرج على يده ، ولذا فكثيرا ما يذكر ابن اصيبعة فى تراجمه أن فلانا اخذ الطب عن فلان ، وكان من تلامذته فلان وفلان . . . الخ (٢١٣) . فعلى سبيل المثال عند الترجمة لأبى الفرج بن الطيب يقول : « أخذ عن ابن الخمار وخلف من التلاميذ أبا الحسن بن بطلان ، وابن بدرج ، والهروى ، وبنى حيون ، وأبا الفضل كتيفات ، وابن أثردى ، وعبدان ، وابن مصوصا ، وابن العليق » (٢١٤) . وعند امتحان ممارسة الطب كان أول ما يسأل عنه الطبيب الممارس : على من تلقى الصنعة ؟ (٢١٥) اذ كان تلقيه الصنعة على يد أستاذ حاذق يرفع من شأنه بعكس ما اذا لم يعرف له أستاذ جليل القدر .

ويرسم لنا ابن اصيبعة فى أكثر من موضع صورة مشرفة لأساتذة الطب سواء فى تطويرهم للتعليم الطبى ، بعد نقله وترجمته واستيعابه ، او فى تدريبهم للطلاب على ممارسة المهنة عمليا ، أو فى اعطائهم المثل الجيد لطلابهم من حيث اخلاق المهنة ، ومواصلة العلم والدراسة حتى آخر لحظة فى حياتهم لقد كان أساتذة الطب فى البداية يعرفون اللغات الأجنبية

مثل السريانية أو اليونانية أو الرومية أو الفارسية (٢١٦) . ولكنهم بجوار ذلك كانوا يتقنون العربية ويهتمون بها الى ابعد الحدود ، حتى تأتى ترجماتهم جيدة . وبلغ حرصهم على اللغة العربية واحترامهم لها ، أنهم لم يكونوا يسمحون لطلابهم باللحن فى قراءة الكتب الطبية ، فمهذب الدين عبد الرحيم على سبيل المثال كان « أبدا لا يفارقه الى جانبه مع ما يحتاج اليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة ، كتاب الصحاح للجوهرى والمجمل لابن فارس » (٢١٧). وأمين الدولة بن التلميذ « كان يحضر مجلسه فى صناعة الطب خلق كثير يقراون عليه ، وكان اثنان من النحاة يلازمان مجلسه ولهما منه الانعام والافتقاد ، وكان من يجده من المشتغلين عليه يلحن كثيرا فى قراءته أو هو الكن يترك احد ذينك النحويين يقرأ عنه وهو يسمع » (٢١٨) . ولعل هذا الاهتمام باللغة العربية هو الذى مكنهم من اجتياز مرحلة الترجمة الى مرحلة الابداع والتأليف الطبى باللغة العربية ، وبذلك ازدهر التعليم الطبى وأصبح ميسرا للطلاب ، كما شاعت « الثقافة الطبية » بين المثقفين وطبقات العامة .

كذلك سنرى الأساتذة فى البيمارستانات يقدمون لطلابهم المثل الجيد للممارسة الطبية وللحكم السريرى الجيد ، ويتيحون لهؤلاء الطلاب فرص التعليم النظرى والتعليم السريرى على نحو ما يصف لنا ابن أصيبعة فى أكثر من موضع (٢١٩) . اذ قل أن يتحدث عن أستاذ ، الا ويذكر طلابه من حوله يدرسون ، أو يطالعون ويناقشون أو يشاهدون ملاحظات سريرية . . ولقد بلغ من حرص الطلاب على الاستفادة بأساتذتهم أن الطلبة والمشتغلين على أبى الفضل بن الناقد كانوا يقرأون علية حتى وهو راكب وقت مسيره وافتقاده للمرضى (٢٢٠) . وهكذا قام أساتذة الطب الاسلامى بدورهم كأفضل ما يكون دور الأستاذ الجامعى من حيث تطوير المعرفة الطبية ، وتدريب الأطباء ، واعطاء المثل الجيد للممارسة العلمية والمهنية (٢٢١) .

تاســعا — المرأة والتعليم الطبى :

لقــد ترجم ابن أصيبعة فى طبقاته لأكثر من أربعمائة وخمسة عشر طبيبــا فى العصر الاسلامى (انظر الملحق رقم ٢) ، ومع ذلك لم يخص المرأة من هذا العدد ، الا ترجمة واحدة لزينب طبيبة بنى أود . ويقول ابن أصيبعة فى ترجمتها انها « كانت عارفة بالأعمال الطبية ، خبيرة بالعلاج ومداواة العين مشهورة بين العرب بذلك » . ويحكى لنــا عنهــا قصة رواها أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب الأغانى ملخصها « انها كحلت مريضا من رمد أصابه ، ثم قالت له : اضطجع قليلا حتى يدور الدواء فى عينيك ، فاضطجع المريض ثم تمثل قول الشاعر :

أمخترمى ريب المنــون ولم أزر

طبيب بنى أود على النأى زينبــا

فضحكت ثم قالت : أتدرى فيمن قيل هذا الشعر ؟ قلت : لا ، قالت : فىّ والله قيــل ، وأنا زينب التى عناها وأنا طبيبة بنى أود . أفتــدرى من الشاعر ؟ قلت : لا ، قلت : عمك أبو سماك الأسدى » (٢٢٣) .

ويقف الدارس أمام هــذه الظاهرة ، عــدم وجود تراجم للطبيبات المسلمات ويحاول أن يسأل : لماذا لم يترجم ابن أصيبعة لطبيبات سوى زينب ؟ وهل يعقل أنه لم تكن هناك طبيبات سواها ؟ وأن المرأة المسلمة لم تتعلم الطب ؟ وأن هناك ظروفا خاصة كانت تحول بينهــا وبين تعلم الطب ؟ ولكن لقد مرت بنا قصة الجارية التى كانت تعلم الطب ، وأجابت على أسئلة الأطبــاء فى مجلس الرشيد ، وكان ذلك سببا فى أن يشتريها المأمون بثمن باهظ ، فهــل يعقــل أن تتعلم الجوارى والاماء ولا تتعلم الحــرائر ؟؟.

لقد وقف أحمــد شلبى وقفة سريعة أمام ما سماه قلة نسبة عدد المتعلمات بين النســاء كثيرا عن نسبتها بين عــدد المتعلمين من الرجال فى العصر الاسلامى ، وأرجــع ذلك الى أن تعليم المرأة كان بواســطة أحد ذويها أو يقوم به معلم خاص . وكلا هذين لا يتيسر للجمهرة العظمى

من النساء فى حين ان الوسيلة لتعليم الولد سهلة ، فهو يلتحق بالكتاب صبيا ، وينضم الى حلقات العلم فى المؤسسات التعليمية المختلفة اذا شب ونمت ثقافته (٢٢٣) . فهل كان هذا هو سبب قلة عدد الطبيبات المسلمات ؟ ام أن هناك أسبابا أخرى مثل تعذر الرحلة فى طلب الأستاذ ؟ وصعوبة الممارسة والملاحظة السريرية فى البيمارستانات ، وانشغال المرأة بأمورها المنزلية ؟ ... الخ ، واذا كان ابن أصيبعة لم يذكر لنا أسماء الطبيبات المسلمات ، فاننا نجد باحثين آخرين يذكرون لنا أسماء طبيبات منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . كرفيدة وام عطية وأمية بنت قيس الغفارية والربيع بنت معوذ ، وام الحسن بنت القاضى أبو جعفر الطنجالى وأخت الحفيد بن زهر وابنتها « وكانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة ، ولهما خبرة جيدة فيما يتعلق بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان الى نساء المنصور ولا يقبل لمداواة أهل المنصور سواهما » (٢٢٥) . كذلك فان الفقهاء المسلمين كانوا لا يرون ان يداوى الرجل المراة الا لضرورة ولا ينظرون من جسدها الا ما لابد منه (٢٢٦) ، مما يؤكد لنا أنه كان بجوار الأطباء المسلمين وجدت طبيبات مسلمات ، وان كن أقل عددا من الأطباء . فلماذا لم يترجم لهن ابن اصيبعة ؟.

يبدو أن ابن أصيبعة لم يترجم الا لمن اشتغل بوظيفة الطب ، وتخصص فيه ، وكانت له فاعليات فى هذا المجال ، كأن يكون له طلاب ، أو تكون له مؤلفات طبية ، أو تكون له ممارسات أودعها فى كناش ، ويبدو أيضا ان أغلب من مارس الطب من النساء لم تمارسنه كمهنة أو تخصص ، أو مصدر رزق ، ولم تكن لهن فاعليات فى مجال الطب وتعليمه وممارسته . وانما كن فى الغالب متطوعات يقمن بالدور الذى تقوم به فى العهد الحاضر منظمات الصليب الأحمر كما ترى Mugannam (٢٢٧) ، أو بالدور الذى يقوم به الطبيب العام الممارس General praction القادر على مواجهة مشاكل الجراحة الصغيرة والتوليد وأمراض الأطفال والكحل ... الخ من الأعمال الطبية البسيطة التى تحدث كثيرا ويمكن أن تقوم بها الطبيبات المسلمات دون أن يستلزم ذلك تخصصا دقيقا فى الطب ، ودون أن يكون لهن كتب أو مؤلفات أو خبرات طبية خاصة

تستحق ان توضع للدراسة والاحتذاء لغيرهن من الأطباء . ولهذا لم يترجم لهن ابن اصيبعة لأنه كما ذكر فى صدر كتابه ، انما كتب هذا المؤلف ليذكر فيه « جماعة من اكابر أهل هذه الصناعة ، واولى النظر فيها والبراعة ممن قد تواترت الأخبـــار بفضلهم ، ونقلت الآثار بعلو قدرهم ونبلهم ، وشهدت لهم بذلك مصنفاتهم ، ودلت عليهم مؤلفاتهم » (٢٢٨) . ولكن ذلك لا ينفى أن موضوع تعليم المرأة بصفة عامة ، وتعليم الطب بصفة خاصة ما زال موضوعا يتطلب دراسة خاصة على كل حال .

مراجـــع الفصـــــل الثـــالث ومصــــادره

(١) الباحث : « الفكر التربوى والنفسى فى تراثنا العربى الاسلامى » من : **بحوث فى التربية الاسلامية** ، مرجع سابق ، ص ٥ ـــ ص ١٢ .

(٢) و (٣) ابن سينا : **البرهان من الشـــفاء** ، المطبعـــة الأميرية ، القـــاهرة ، ١٣٧٥ هـ ، ص ٥٧ .

(٤) راجع فهرست موضوعات : ((**مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم**)) ، مرجع سابق ، الأجزاء الثلاثة .

(٥) راجع : احمد زكى بك : **موسوعات العلوم العربية** ، المطبعة الأمـــيرية ببولاق ، ١٨٨٩ ، حيث يستعرض الكتاب أهم تلك المؤلفـــات التى اعتبرها جميعا موسوعات Encyclopedia ثم راجع مقدمة عثمان أمين على كتاب : **احصاء العلوم ، للفارابى** ، الأنجلو المصرية ، القـــاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٣ ـــ ص ٢٣ ، ومقدمة كامل كامل بكرى ، وعبد الوهاب ابو النور على كتاب : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة** ، مرجع سابق ، ص ٣٥ ـــ ص ٧٦ ، حيث نجد تفرقة مهمة بين نوعين من هذه المؤلفات : مؤلفات تعتبر موسوعات أو دائرة معارف عربية للعلوم ، ومؤلفات تعتبر مجرد كتب تعريف وتصنيف Classification

(٦) الفارابى : **احصاء العلوم** ، تحقيق عثمان أمين ، مرجع سابق ، ص ٥٣ ـــ ص ٥٥ .

(٧) ابن ســـينا : « كتاب السياســـة » ، نشر لويس معلـــوف ، **مجلة المشرق** ، عام ١٩٠٦ م ، ص ١٠٧٥ .

(٨) **نفس المرجع** والمكان .

(٩) راجع النظرية الاسلامية فى حكمـــة اختـــلاف البشر فى الميول والقدرات كما عرضها ابن سينا ، الباحث : **فلسفة التربية عند ابن سينا** ، مرجع سابق ، ص ٧٣ ـــ ص ٧٤ ، وهذه النظرة نجدها لدى اغلب المفكرين المسلمين ، كالفارابى وابن خلدون واخوان الصفا ... الخ .

(١٠) إبن سينا : كتاب السياسة ، **مرجع سابق** ، ص ١٠٧٥ — ص ١٠٧٦ .

(١١) برهان الاسلام الزرنوجى : **تعليم المتعلم طريق التعلم** ، مرجع سابق ، ص ٦٣ .

(١٢) طاش كبرى زادة : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة** ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(١٣) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٧ .

(١٤) المولوى التهسانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، ج ١ ، ص ٧٣ ، نقلا عن : عبد اللطيف محمد العبد ، محقق **اخلاق الطبيب** ، للرازى ، دار التراث ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٦٥ .

(١٥) برهان الاسلام الزرنوجى : **تعليم المتعلم طريق التعلم** ، مرجع سابق ، ص ١٣٤ ، ص ١٤٠ .

(١٦) خضر بن على الخطاب : « مخطوطة شفاء الأسقام ودواء الآلام » فى سلمان قطاية : **مخطوطات الطب والصيدلة فى المكتبات العامة بحلب** ، معهد التراث العلمى العربى ، حلب ، ١٩٧٦ ، ص ١٠١ ، ص ١٠٢ .

(١٧) مظفر الدين الغيتابى المعروف بابن الأمشاطى : « مخطوطة شرح اللمحة العفيفة المسمى تأسيس الصحة » ، **نفس المرجع** ، ص ١٣٠ .

(١٨) راجع : ابن أصيبعة : **عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ١٨٣ — ص ٢٨٤ ، حيث تبدو تلك الظاهرة : ظاهرة احتكار وتوارث التعليم الطبى بين أسر معينة من أهل الذمة غير العرب .

(١٩) ادوارد ج. براون : **الطب العربى** ، مرجع سابق ، ص ٢٤ .

(٢٠) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٣٥٤ — ص ٢٥٥ .

(٢١) محمد كرد على : مقدمته **لتاريخ حكماء الاسلام** ، للبيهقى ، مطبعة الترقى بدمشق ، ١٩٤٦ ، ص ٧ .

(٢٢) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٢٦١ .

(٢٣) ناجي معروف : **تاريخ علماء المستنصرية** ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٥ ، ص ٥٥ — ص ٥٦ .

(٢٤) سعيد اسماعيل على : **معاهد التعليم الاسلامي** ، مرجع سابق ، ص ٢٢٧ .

(٢٥) داود الانطاكي : **تذكرة اولى الألباب والجامع للعجب العجاب** ، المطبعة الحسينية ، القاهرة ، ١٩٢٦ ، جـ ١ ، ص ٥ .

(٢٦) الحافظ الذهبي : **الطب النبوى** ، البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ .

(٢٧) أحمد حسين القرني : **قصة الطب عند العرب** ، مرجع سابق ، ص ٩٤ ، ص ٩٥ .

(٢٨) ابن بطلان : **دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة** ، المطبعة الخديوية بالاسكندرية ، ١٩٠١ م .

(٢٩) فؤاد سزكين : **محاضرات في تاريخ العلوم** ، مطابع جامعة الامام محمد بن سعود ، الرياض ، ١٩٧٩ ، ص ١٠٥ ، ص ١٠٦ .

(٣٠) انظر مثلا : ص ١٨٦ ، ص ١٨٨ ، ص ١٩٠ ، ص ١٩٢ .. الخ ، وكذا الملحق رقم (١) .

(٣١) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٢١ .

(٣٢) نظامي العروضي السمرقندى : **جهار مقاله (المقالات الأربع)** ترجمة عبد الوهاب يحيى الخشاب ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٢٠ .

(٣٣) الرازى : **اخلاق الطبيب** ، مرجع سابق ، ص ٨٧ ، ص ٨٨ .

(٣٤) ادوارد . ج . براون : **الطب العربى** ، مرجع سابق ، ص ١٤٠ — ص ١٤١ .

(٣٥) انظر : تفاصيل التصور الاسلامى للمعرفة فى :

Zeyyed Hossein Nasr : **Islamic Science,** World of Islam Festival publishing Company LTD, London, 1976

———— : **An Introduction to Islamic Cosmological Doctrines,** Cambridge, London, 1976.

———— : **Scienee and Civilization in Islam,** Cambridge, London, 1970.

(٣٦) John Rowland :**Mysteries of science, Astudy of the Limitations of the scientific Method,** Werner Laurie, London, 1955, p. 182.

(٣٧) قارن التصور الاســلامي للمعرفة بالتصــور المادى للعلم كما يعرضه :

E.A. Burtt : **The Metaphysical Foundation of modern science,** Longman, New York, 1954.

H. Butterfield : **The origins of Modern Science,** Wiley, New York, 1951.

(٣٨) ابن سينا : **النجاة** ، البابى الحلبى ، القــاهرة ، ١٣٥٧ هـ ، ص ٧٣ ، ص ٧٤ ، **البرهان من الشفاء** ، مرجع سابق ، ص ١٦٢ . ولأخذ صورة كاملة عن هذا التصور انظر رسالته : « اقسام العلوم العقلية » مطبوع ضمن مجموعة « **مجموع الرسائل** » ، مطبعة كردستان العلمية — القاهرة ، ١٣٢٨ هـ ، ص ٢٢٥ — ص ٢٤٥ .

(٣٩) عبد المجيد عابدين : تقديم كتاب : **مقدمة فى تاريخ الطب العربى** — التجانى الماحى ، مطبعة مصر ، الخرطوم ، ١٩٥٩ م ، ص ٤ .

(٤٠) طاش كبرى زادة : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة** ، مرجــع سابق ، ص ٢ ، ص ٣ .

(٤١) **نفس المرجع** ، ص ٣ ، ص ٤ .

(٤٢) محمد ماهر حمادة : **الوثائق السياسية والادارية العائدة للعصر العباسي الأول ، دراسة ونصوص** ، مؤسسة الرسالة ، القاهرة — ١٩٧٧ ، ص ٢٥٨ ، ص ٢٥٩ .

(٤٣) ظهير الدين البيهقي : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ص ١٩ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٨٠ ، ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٣٧ ، الـخ .. حيث نرى اشتهار كل عالم بمجال من المجالات العلمية .

(٤٤) آدم متز : **الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع** ، ترجمة عبد الهادى أبو ريده ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ج ١ ، ص ٣٠٩ .

(٤٥) ابن أصيبعة ، **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٦١٠ من ترجمة عيسى الرقى .

(٤٦) ألف ليلة وليلة ، ص ٤٤٩ — ص ٤٥٤ ، نقلا عن : نظير أحمد : « بعض مشكلات البحث والدراسة للطب الاسلامى فى العصور الحديثة » **من ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الثانى للطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٨٩٨ .

(٤٧) ابن هشام : **سيرة ابن هشام** ، مرجع سابق ، ص ٢٩٧ — ص ٣٠٠ ، السهيلى : **الروض الأنف** ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٩ — ج ٤ ، ص ٢٣٢ ، ص٢٣٤ ، و

— **The Encyclopaedia of Islam**, Luzac, London, Vol III, 1936, pp. 317, 318.

(٤٨) التغرى بردى : **النجوم الزاهرة** ، المؤسسة المصرية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ٦٦ — ص ٦٨ ، ص ٣٢٦ — ص ٣٢٧ ، ج ٣ ، ص ٨ ص ١٢ ، ج ٤ ، ص ٣٢ ، المقريزى : **الخطط المقريزية** ، مطبعة النيل ، القاهرة ، ١٣٢٦ هـ ، ج ٤ ، ص ٧٩ — ص ٨٩ .

(٤٩) التغرى بردى : **النجوم الزاهرة** : ج ٤ ، ص ٧٩ — ص ١٠٤ ، المقريزى : **الخطط المقريزية** ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ — ص ٣٩٤ .

(٥٠) لأخذ فكرة عن هذا الدور قديما وحديثا راجع : عبد الفتاح جلال وآخرون : **المسجد وتعليم الكبار ، في المجتمع المعاصر** ، سرس الليان ، المركز الدولى للتعليم الوظيفى للكبار فى العالم العربى ١٩٧٨ ، عبد الله عبد الخالق المشد : « وظيفة المسجد فى المجتمع المعاصر فى التوجيه الاجتماعى فى الاسلام » من **بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الاسلامية** ، القاهرة ، مجمع البحوث الاسلامية ، ج ٣ — ١٩٧٢ ، طلعت بدير الأديب ، « **دور المسجد فى تلبية حاجات جمهوره** » ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية جامعة الأزهر ، ١٩٧٩ .

(٥١) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(٥٢) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٦٨٩ .

(٥٣) محمد عبد الله عنان : « مصر فى فاتحة القرن الثالث عشر كما يصورها عبد اللطيف البغدادى » فى : **مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية** ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٣١ — ص ١٤٠ .

(٥٤) راجع على سبيل المثال ، ما حدث من تطور الدراسة فى الأزهر فى :

A. ElnakiB : **The Educational Reform of Al-Azhar 1872–1972.** op. cit, pp. 29 – 34.

(٥٥) أحمد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها ، فلسفتها ، تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ١١٣ ، ص ١١٤ ، وانظر ايضا :

سعيد اسماعيل على : **معاهد التعليم الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ ، ص ١٣٤ ، عبد الله عبد الدايم : **التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين** ، مرجع سابق ، ص ١٥٤ ، ص ١٥٦ .

(٥٦) عن أهمية الأوقاف فى الحياة الثقافية والتعليمية راجع : محمد محمد أمين على : « **تاريخ الأوقاف فى مصر فى عصر سلاطين المماليك**

١٢٥٠ — ١٥١٧ » ، **دراسة تاريخية وثقافية** ، دار النهضة العربية — القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٣٣ — ص ٢٧٥ .

(٥٧) انظر الطابع الدراسى فى تلك المدارس فى :

George Makdisi : "Muslim Institution of learning In Eleventh eentury Baghdad" **In The Bulletin of The School of Orintal and African Studies,** University of London, Vol XXIV, pp 1–56. & A.L. Tibawi: "Origin and Character of Al-Madrasah", **Ibid,** Vol, XXV, pp 225 – 238.

(٥٨) عبد الله عبد الدايم : **التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين** ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ .

(٥٩) محمد مصطفى زيادة وآخرون : **تاريخ الحضـــارة المصرية : العصر اليونانى والرومانى والعصر الاسلامى** ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢ ، ص ٥٨٨ — ص ٥٩٠ .

(٦٠) حسين امين : **من تاريخ التربية والتعليم فى الاسلام « المدرسة المستنصرية »** ، مطبعة شفيق ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٠ — ص ٤١ ، وراجع محتويات المبنى الدراسى من ص ٣٨ — ص ٤٢ .

(٦١) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٧٣٣ .

(٦٢) حاجى خليفة : **كشف الظنون على أسامى الكتب والفنون** ، وكالة المعارف ، استانبول ، ١٩٤٣ ، جـ ١ ، ص ٥٣ .

(٦٣) ناجى معروف : **تاريخ علماء المستنصرية** ، مطبعة العـــانى ، بغــداد ، ١٩٦٥ ، جـ ١ ، ص ٥٧ — ص ٦٠ .

(٦٤) عبد الله عبد الدايم : **التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين** ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ ، سعيد اسماعيل على : **معاهد التعليم الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ١٥٦ ، ص ١٨٠ .

(٦٥) عبد القـــادر محمـــد النعيمى الدمشقى : **الدارس فى تاريخ المدارس** ، مطبعة الترقى بدمشق ، ١٩٥١ وانظر وصفه لمدارس الطب ،

بالذات : الدخوارية ، الدينسيرية ، اللبودية النجمية ، جـ ٢ ، ص ١٢٧ — ص ١٣٨ .

(٦٦) ناجى معروف : **تاريخ علماء المستنصرية** ، مرجع سابق جـ ١ ، ص ٥٥ — ص ٦٠ .

(٦٧) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٦٧٣ .

(٦٨) **نفس المرجع** ، ص ٦٧٦ .

(٦٩) **نفس المرجع** ، ص ٧٣٤ .

(٧٠) **نفس المرجع** ، ص ٧٣٣ .

(٧١) أحمد شلبى : **التربية الاسلامية ، نظمها ، فلسفتها ، تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ١٢٤ ، وانظر ايضا عماد عبد السلام رءوف : **مدارس بغداد فى العصر العباسى** ، مطبعة دار البصرى ، بغداد ، ١٩٦٦ ، ص ٦ ، ص ٧ .

(٧٢) خوسيه لويس بارسلو : « أثر العلوم الاسلامية فى تطور الطب » من **أبحاث وأعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ١١٨ ، وقارن هذا العدد الهائل من الأطباء والخدمات الطبية التى توفرت للمسلمين ، بما يعانيه عالمنا العربى الاسلامى اليوم من انخفاض المستوى الصحى ، وقلة عدد الأطباء والخدمات الصحية فى :
R.E Nassif, J.D. Thaddeus: (Editors): **Education for Health Man-power in the middle East,** American University of Beirut, 1967.

وبهيج ملاجويش : **نحو دراسة صحية لمستقبل العالم الاسلامى** ، المكتب الاسلامى ، بيروت ، ١٩٧٥ ، د. نبيل صبحى الطويل : « **الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين** » ، كتاب الأمة ، رئاسة المحاكم الشرعية ، والشئون الدينية ، دولة قطر ، ١٩٨٤ .

(٧٣) أحمد عيسى بك : **تاريخ البيمارستانات فى الاسلام** ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٣٩ ، ص ٤ .

(٧٤) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٤٧ .

(٧٥) احمــد عيسى بك : **تاريخ البيمارستانات فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

(٧٦) **نفس المرجع** ، ص ٣ .

(٧٧) بول غليونجي : « اســهام علماء المسلمين فى البحث العلمى فى مجال الطب » **مجلة اتحاد الجامعات العربية** ، العدد السابع عشر ، ١٩٨٠ ، ص ١٩٠ ، مرسى محمد عربى : **لمحات من التراث الطبى العربى** ، مرجع سابق ، ص ٧٠ — ص ٧٥ .

— Seyyed Hossein Nasr: **Islamic Science,** Op. Cit PP. 19, 20.

(٧٨) نور حسين شودرى : « فضائل الطب الاسلامى ، كيفيــة اكتســابها ، واعادة تنظيمها » من **ابحاث وأعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ .

(٧٩) احسان كارجاس : « بيان تمهيــدى عن الأعمال التحضيرية من أجل اقامة نظام للآداب الطبية الاسلامية » **نفس المرجع** ، ص ٦٣٤ .

(٨٠) ابن اصيبعة : **عيون الانباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٤١٥ ، ص ٤١٦ .

(٨١) **نفس المرجع** ، ص ٣٠١ .

(٨٢) ابن جبير : **رحلة ابن جبير** ، تحقيق حسين نصار ، مكتبة مصر ، ١٩٥٥ ، ص ٢٠ ، ص ٢١ .

(٨٣) عبد الهادى التازى : « المنشآت الصحية بالمغرب عبر التاريخ ، بمناسبة السنة الدولية للمعاقين » ، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى** ، العدد المزدوج ١٣ ، ١٤ ، السنة الرابعة ، ١٩٨١ ، ص ٦٩ ، ص ٧٠ .

(٨٤) محمد عبد الرحيم غنيمــة : **مقدمة لتــاريخ التعليم الجامعى فى الاسلام** ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٦٥ — ص ٧١ ، أحمــد عيسى بك : **تاريخ البيمارستانات فى الاســلام** ، مرجع سابق ، ص ٣ ، ص ٤ .

(٨٥) قارن ذلك الجو التعليمى المناسب بمشاكل التعليم الطبى فى سورية ومصر على سبيل المثال : د. كنمان وصفى الجابى : « نظرة الى مشاكل التعليم الطبى فى سورية » فى **مهرجان اسبوع العلم الرابع :** المجلس الأعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، ١٩٦٣ ، ص ٢٤ — ص ٣٤ .

(٨٦) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٧٢٨ ، ص ٧٣١ .

(٨٧) **نفس المرجع** ، ص ٧٣٢ ، ص ٦٩٧ .

(٨٨) **نفس المرجع** ، ص ٦٢٨ .

(٨٩) محمد ماهر حمادة : **المكتبات فى الاسلام نشأتها وتطورها ومصائرها** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٤ — ص ١٤٦ .

(٩٠) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٢٤٣ .

(٩١) **نفس المرجع** ، ص ٦٩٨ .

(٩٢) **نفس المرجع** ، ص ٧٣٢ ، ص ٧٣٣ .

(٩٣) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .

(٩٤) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٤١٦ ، ٤٦٢ ، ٦٣٦ ، ٦٤٧ ، ٦٦٢ ، ٧٠٠ ، ٧٤٠ ، وغيرها .

(٩٥) محمد ماهر حمادة : **المكتبات فى الاسلام نشأتها وتطورها ومصائرها** ، مرجع سابق ، ص ٨٢ ، ثم انظر تفصيل ذلك ص ٨٢ — ص ١٤٧ .

(٩٦) نقلا عن : ملكة ابيض : **التربية والثقافة العربية الاسلامية فى الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة** ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

(٩٧) ابن جلجل : **طبقات الاطباء والحكماء** ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٦١ .

(٩٨) محمد جواد رضا : **الفكر التربوى الاسلامى مقدمة فى أصوله الاجتماعية والعقلانية** ، مرجع سابق ، ص ٢٩ ٠

(٩٩) **نفس المرجع** والمكان ٠

(١٠٠) Hans Nicholas: **Comparative Education, Astudy of Educational Factors and Traditions,** Routledge & Kegan paul, London, 1958, P. 101.

(١٠١) Mehdi Nakosteen: **History of Islamic origns** of westernEdu- **cation:** University of Colorado Press, Colorado, 1964, PP. 65 – 74.

(١٠٢) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٢٦٢ ٠

(١٠٣) **نفس المرجع** ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٧٠ ، ص ٢٧١ ٠

(١٠٤) **نفس المرجع** ، ص ٥٦٨ ٠

(١٠٥) **نفس المرجع** ، ص ٧٢٥ ٠

(١٠٦) Khurshid, A. et-al : **Fact Sheets on Libraries in Islamic Count- ries**, University of Karachi, 1974.

(١٠٧) احمد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها ، فلسفتها ، تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ١٤٧ ، ص ١٨٠ ٠

(١٠٨) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٩٨ ٠

(١٠٩) **نفس المرجع** ، ص ١١٠ ٠

(١١٠) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٥٣ ٠

(١١١) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٢٨٩ ٠

(١١٢) Seyyed Hossein Nasr : **Science and Civilization In Islam**, Op. Cit, PP. 41,42.

(١١٣) ابن اصيبعة : **عيون الانباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٣٣٢ .

(١١٤) كمال السمرائى : « تعليم الطب فى العصور الاسلامية » فى **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول للطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٣١٩ .

(١١٥) ابن اصيبعة : **عيون الانباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ١٥٤ ، وراجع تفاصيل تلك المراحل السبع ، وكتب كل مرحلة من ص ١٥٤ — ص ١٥٧ .

(١١٦) **نفس المرجع** ، ص ١٥٧ ، ص ١٥٨ .

(١١٧) البير زكى اسكندر : « دراسة تحليلية لمؤلفات الرازى وابن سينا مع الاشارة الى اثر كل منهما فى تقدم البحوث الطبية » فى **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٢٤٨ .

(١١٨) سلمان قطاية : « التعليم الطبى عند العرب » فى :

— The Arab Journal of Medicine, Vol. I, No. I, February, 1982, P. 94.

(١١٩) سلمان قطاية : **مخطوطات الطب والصيدلة فى المكتبات العامة بحلب** ، مرجع سابق ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ ، ص ١١٩ — ص ١٢٢ .

(١٢٠) ابن سينا : **القانون** ، مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع ، ١٢٩٤ هـ (ثلاثة مجلدات) ، مقدمة : **قاموس القانون فى الطب لابن سينا المشتمل على الاصطلاحات المستعملة فى الطب** : ادارة تاريخ الطب ، والتحقيق الطبى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن ، الهند ، ١٩٦٧ . والواقع فان الباحث عندما يطالع هذا القاموس الذى يشتمل على الاصطلاحات الطبية التى استعملها ابن سينا فى كتابه القانون والتى غطت شتى المجالات يدرك عظمة هذا الطبيب ، الفارسى الأصل ، والذى اتقن العربية كل هذا الاتقان ، وكان قادرا على خدمتها كعالم فرد كل هذه الخدمة فى مجال تعريب الطب ووضع المصطلحات

العربية اللازمة لذلك . ثم يقارن الباحث بين هذا الجهد الفردى ولجوء معظم أساتذة الطب عندنا الى اللغات الأجنبية كلغة للتعليم والتاليف فيدرك الفارق الكبير بين رجال ورجال .

(١٢١) الرازى : **الحاوى** ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر أباد الدكن ، الهند ، ١٩٥٥ م ، (١٢ مجلدا) .

(١٢٢) نور حسين شودرى : « فضائل الطب الاسلامى ، كيفية اكتسابها ، واعادة تنظيمها » من **أبحاث وأعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ١٢٨ ، ص ١٢٩ .

(١٢٣) سلمان قطاية : **مخطوطات الطب والصيدلة فى المكتبات العامة بحلب** ، مرجع سابق ، ص ١١٢ .

(١٢٤) أبو الحسن على بن سهل الطبرى : **فردوس الحكمة فى الطب** ، مطبعة أفتساب ، برلين ، ١٩٢٨ .

(١٢٥) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٢٧٥ ، ص ٢٧٨ ، ... الخ .

(١٢٦) **نفس المرجع** ، ص ٥٦١ .

(١٢٧) وبهامشه أيضا : « **دفع المضار الكلية عن الأبدان الانسانية بتدارك أنواع خطأ التدبير** » : لابن سينا ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ، ١٣٠٥ هـ .

(١٢٨) ابن البيطار : **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية** ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٢٩١ هـ .

— على بن عيسى الكحال : **تذكرة الكحالين** ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر أباد الدكن ، الهند ، ١٩٦٤ م .

— حنين بن اسحاق : **العشر مقالات فى العين** ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٢٨ ، تقديم ماكس مايرهوف .

— أبو المنى بن أبى النصر العطار : **منهاج الدكان ودستور الأعيان فى أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان** ، دار الطباعة الخديوية ، القاهرة ، ١٢٨٧ هـ .

(١٢٩) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٥٥ ، ص ٥٦ ، ص ٤٢٣ ، ص ٤٥٧ ، ... الخ .

(١٣٠) نظامى العروضى السمرقندي : **جهار مقاله (المقالات الاربع)** ، مرجع سابق ، ص ٧٦ .

(١٣١) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٥٦٤ ، وانظر تفاصيل ذلك ص ٥٦٣ ، ص ٥٦٤ .

(١٣٢) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٥٦٤ ، وانظر تفاصيل ذلك ص ٥٦٣ .

(١٣٣) البير زكى اسكندر : « دراسة تحليلية لمؤلفات الرازى وابن سينا مع الاشارة الى تاثير كل منهما فى تقدم البحوث الطبية » من **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٢٤٣ .

(١٣٤) **نفس المرجع** ، ص ٢٤٦ ، ص ٢٤٧ .

(١٣٥) الفارابى : **احصاء العلوم** ، مرجع سابق ، ص ١٢٦ .

(١٣٦) البير زكى اسكندر : « دراسة تحليلية لمؤلفات الرازى وابن سينا مع الاشارة الى اثر كل منهما فى تقدم البحوث الطبية » من **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٢٤٦ .

(١٣٧) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٢٧٧ ، ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٥٣٧ ، ٦١٤ ، ٦٩٧ ، ٧٣١ وغيرها .

(١٣٨) **نفس المرجع** ، ص ٦٩٨ .

(١٣٩) **نفس المرجع** ، ص ٥٦٥ .

(١٤٠) سلمان قطاية : **مخطوطات الطب والصيدلة فى المكتبات العامة بحلب** ، مرجع سابق ، ص ٢٦ — ٢٧ .

(١٤١) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٦٩٧ .

(١٤٢) **نفس المرجع** ، ص ٤١٦ .

(١٤٣) **نفس المرجع** ، ص ٦٢٨ .

(١٤٤) كمال السمرائى : « تعليم الطب فى العصـــور الاسلامية » من **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٣١٨ ، ص ٣١٩ .

(١٤٥) أحمد عيسى بك : **آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب** ، مطبعة مصر ، بدون تاريخ ، ص ٥ .

(١٤٦) **نفس المرجع** ، أبو الحسن المختار بن بطلان : « **دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة** » ، مرجع سابق ، ص ٣٦ — ٣٨ .

(١٤٧) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٦٩ ، ص ١٧٠ .

(١٤٨) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٥٦٧ ، ص ٥٦٨ .

(١٤٩) **نفس المرجع** ، ص ٦٥٥ .

(١٥٠) **نفس المرجع** ، ص ٥٦٢ .

(١٥١) عن القراءة على يد أستاذ ، **نفس المرجع** ، الصفحات : ٢٧٧ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٣٥٣ ، ٤٠٢ ، ٥٧٦ ، ٥٨٠ ، ٦١٠ وغـــيرها .

(١٥٢) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

(١٥٣) **نفس المرجـــع** ، ص ٥٤٣ ، ابن أصيبعة : **عيون الأنبـــاء فى طبقـــات الأطبـــاء** ، مرجع سابق ، ص ٤٣٨ .

(١٥٤) ابن اصيبعة : **نفس المرجع** ، ص ٤٠٢ .

(١٥٥) **نفس المرجع** ، ص ٥٧٦ .

(١٥٦) **نفس المرجع** ، ص ٥٩٩ .

(١٥٧) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن ســـينا** ، مرجع سابق ، ص ١٥٩ .

(١٥٨) ابن أصيبعة : **عيون الانباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، الصفحات : ٤٠٢ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٦١٣ ، ٦٣٧ ، ٦٥٦ وغيرها .

(١٥٩) **نفس المرجع** ، ص ٣٢٥ .

(١٦٠) **نفس المرجع** ، ص ٣٧٥ .

(١٦١) A.S. Tritton, **Materials of Muslim Education In the Middle Ages**, Op. Cit, P; 32.

(١٦٢) برهان الاسلام الزرنوجى : **كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم** ، مرجع سابق ، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ .

(١٦٣) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .

(١٦٤) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات لأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٦٩٨ .

(١٦٥) **نفس المرجع** ، ص ٦٩٧ .

(١٦٦) **نفس المرجع** ، ص ٤٦٢ .

(١٦٧) طاش كبرى زادة : **مفتاح الســـعادة ومصباح الســـيادة فى موضوعات العلوم** ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣١ .

(١٦٨) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٥٦٣ .

(١٦٩) **نفس المرجع** ، ص ٤٦٠ .

(١٧٠) **نفس المجع** ، **ص** ٣٢٥ ، ص ٣٢٦ .

(١٧١) **نفس المرجع** ، ص ٦١١ .

(١٧٢) Ziauddin Sardar : **Science Technology and Development In The Muslim World**, Croom Helm, London, 1977, PP. 147 - 148.

(١٧٣) A.L. Tibawi : **Arabic And Islamic Themes, Historical, Educational And Literary studies,** op. cit, p. 182.

(١٧٤) برهان الاسلام الزرنوجى : **كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم** ، مرجع سابق ، ص ١١٤ ، ص ١١٥ .

(١٧٥) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الإطباء** ، مرجع سابق ، ص ٦١١ .

(١٧٦) **نفس المرجع** ، ص ٦٣٥ .

(١٧٧) **نفس المرجع** ، ص ٦٣٦ .

(١٧٨) **نفس المرجع** ، ص ٤١٢ .

(١٧٩) نور حسين شودرى : « فضائل الطب الإسلامى كيفية اكتسابها واعادة تنظيمها » من **ابحاث وأعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** مرجع سابق ، ص ١٣٣ .

(١٨٠) ابن جبير : **رحلة ابن جبير** ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

(١٨١) انظر مثلا ما كتبه المستشرقان :

A.S. Tritton : **Materials of Muslim Education In the Middle Ages,** Op. Cit, P. 51 & R. Dodge : **Muslim Education In the Medieval Times,** Op. Cit, PP. 10,11.

(١٨٢) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن سينا** ، مرجع سابق ، ص ١٤٩ . ولقد كان الباحث يريد اعادة النظر فى تلك الرسالة قبل نشرها ، ولكن الظروف لم تمكنه من ذلك ، فاكتفى بالاشارة فى مقدمة الطبع انها تحتاج الى اعادة النظر فى الكثير من مواضعها ، وضرب أمثلة على ذلك . فلتراجع مقدمة النشر .

(١٨٣) محمد عماد الدين فضلى : « الحاوى والقانون فى ضوء نظريات التعليم الطبى الحديثة » من **اعمال وبحوث المؤتمر العالمى الثانى عن الطب الإسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٨٤٩ ، ص ٨٥٠ .

(١٨٤) الزرنوجى : **تعليم المتعلم طريق التعلم** ، مرجع سابق ، ص ١٠١ ، ص ١٠٢ .

(١٨٥) طاشن كبرى زادة : **مفتــاح الســعادة ومصباح الســيادة في موضوعات العلوم** ، مرجع سابق ، ص ٣٢ .

(١٨٦) Ziauddin Sardar : Science, Technology and Development In the Huslim World, Op. Cit., PP. 161,162.

(١٨٧) عصمة عبد الله غوشة : **الشعر التعليمى فى القرون الأربعة الأولى** ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القــاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١ — ص ٣٩ .

(١٨٨) محمد عماد الدين فضلى : « الحاوى والقانون فى ضوء نظريات التعليم الطبى الحديثة » من **اعمال وبحوث المؤتمر العالمى الثانى عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٨٤٩ .

(١٨٩) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٣٩٠ ، ص ٣٩١ .

(١٩٠) **نفس المرجع** ، ص ٤٩٠ .

(١٩١) **نفس المرجع** ، ص ٧٠٣ .

(١٩٢) **نفس المرجع** ، ص ٧٠ ، ص ٧١ .

(١٩٣) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٥٤ — ص ٥٦ .

(١٩٤) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٥٦١ .

(١٩٥) ابن ســينا : السياسة ، **مرجع سابق** ، ص ١٠٧٦ .

(١٩٦) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الاطباء** ، مرجع سابق ، ص ٥٦١ .

(١٩٧) ابن جلجل : **طبقات الأطباء والحكماء** ، مرجع سابق ، مقدمة النــاشر .

(١٩٨) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٧٤٠ .

(١٩٩) **نفس المرجع** ، ص ٣٣٢ .

(٢٠٠) **نفس المرجع** ، الصفحات : ٥٦٢ ، ٥٦٧ ، ٦١٠ ، ٦٢٨ ، ٦٥٥ ، ٧٢٥ وغيرها من الصفحات .

(٢٠١) كمال السامرائى : « تعليم الطب فى العصــور الاسلامية » من **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٣٢٢ .

(٢٠٢) ابن صبيعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٣٠ .

(٢٠٣) **نفس المرجع** ، ص ٣٠٢ .

(٢٠٤) كمال السامرائى : « تعليم الطب فى العصــور الاسلامية » من **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٣٢٣ ، سلمان قطاية : « التعليم الطبى عند العرب » .

— **The Arab Journal of Medicine**, Vol, I, No. 1 February, 1982, **P. 96.**

(٢٠٥) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٢٢٤ .

(٢٠٦) **نفس المرجع** ، ص ٣٠٢ .

(٢٠٧) أحمد عيسى بك : **تاريخ البيمارستانات فى الاســلام** ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

(٢٠٨) **نفس المرجع** ، ص ٢٥ .

(٢٠٩) **نفس المرجع** ، ص ٤٣ .

(٢١٠) برهان الاســلام الزرنوجى : **تعليم المتعلم طريق التعلــم** ، مرجع سابق ، ص ٧٢ — ٧٤ ، طاش كبرى زادة : **مفتاح الســعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم** ، مرجع سابق ، جـ ١ ، ص ٢٠ .

(٢١١) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، الصفحات : ٣٢٦ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٦١١ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ وغيرها من المواضع .

(٢١٢) **نفس المرجع** ، ص ٦٧٣ .

(٢١٣) **نفس المرجع** ، الصفحات : ٢٧٧ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٤٠٢ ، ٥٧٦ ، ٥٩٩ ، ٦١٣ ، ٦٥٦ وغيرها .

(٢١٤) **نفس المرجع** ، ص ٣٢٤ .

(٢١٥) **نفس المرجع** ، ص ٣٥١ .

(٢١٦) **نفس المرجع** ، الصفحات : ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٤٩٣ ، ٤٩٨ وغيرها .

(٢١٧) **نفس المرجع** ، ص ٧٣٢ .

(٢١٨) **نفس المرجع** ، الصفحات : ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٥٣٧ ، ٦١٤ ، ٦٩٨ ، ٧٣١ و ... الخ .

(٢١٩) **نفس المرجع** ، ص ٣٥٣ .

(٢٢٠) **نفس المرجع** ، ص ٥٨٠ .

(٢٢١) راجع واجبات الأستاذ الجامعي الطبيب في : عز الدين شكارة ، « نظرات في تفرغ أساتذة الطب » **أسبوع العلم الثاني عشر** ، المجلس الأعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، دمشق ، ١٩٧١ ، ص ٨١ ، ص ٨٦ .

(٢٢٢) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ١٨١ .

(٢٢٣) احمد شلبي : **التربية الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ٣٣٣ .

(٢٢٤) **نفس المرجع** ، ص ٣٤٧ ، ص ٣٤٨ ، عبد الحي الكتاني : **نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية** ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٥٣ — ص ٤٥٤ ، أحمد شوكت الشطي : **الطب عند العرب** ، مرجع سابق ، ص ٥٦ — ص ٦٠ ، محمود الحاج قاسم محمد : **الموجز لما اضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به** ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ ، ص ١٣٠ .

(٢٢٥) احمد شلبي : **التربية الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ٣٤٨ .

(٢٢٦) عبد الستار أبو غدة : « فقه الطبيب وأدبه » من **ابحاث واعمال المؤتمر العـــالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٥٩٧ ، ص ٥٩٨ .

(٢٢٧) Mugannam : Arab women, London, 1937, P. 25.

نقلا عن احمـــد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ٣٤٧ .

(٢٢٨) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٧ .

الفصل الرابع

صفات الطبيب وحقوقه وواجباته

ادرك المسلمون اهمية مهنة الطبيب فى حياة المجتمع ، ولذلك حرصوا على حسن اختياره واعداده التربوى والمهنى المناسبين ، كذلك حددوا له حقوقه وواجباته بصورة واضحة . وسنحاول هنا أن نرسم صورة موجزة للطبيب المسلم : صفاته ، وحقوقه ، وواجباته ، كما رآها المسلمون .

أولا — صفات الطبيب :

(أ) الصفات الجسمية أو الطبيعية

لقد بلغ اهتمام المسلمين بحسن اختيار الطبيب وانتقائه أن تحدثوا عن الصفات الحسية والطبيعية التى ينبغى أن تتوافر فيه ، أو على الأقل انتى يفضلون توافرها فيه . فنجد الحكيم أبا الخير الحسن يقول فى كتابه « امتحان الأطباء » : « انه يجب ان يكون الطبيب حسن القد ، صحيح الأعضاء ، متناسبة تقاديرها ، حسنة فى شكلها ، قوية فى وضعها ، معتدل المزاج ، ناعم الكف ، وأن تكون الفرج بين اصابعه واسعة ، ولونه مائلا الى البياض ، مشرب الحمرة ، معتدل الشعر فى الكثرة والقلة والبساطة والجعودة ، أشهل العينين ، يخالط نظره دائما سرور وفرح وفيه بشاشة وطلاقة ، فأما فى نفسه فأن يكون ذكيا ذكورا ، حية التصور قوى الحدس والتخمين ، صبورا على التعب والنصب فى درك الحق من الأمور ، كتوما متحملا ما يسمعه من المرضى ، وهذه الأوصاف موجودة فى الأعز بهاء الدين ، ونجيب الدين أبى بكر أبقاهما الله تعالى » (١) . فالحكيم أبو الخير لا يكتفى بذكر صفات الطبيب المعنوية والعقلية ولكن يفضل ان يكون الطبيب أيضا حسن الصورة ، باشا ، صحيح البنية ، ثم يذكر لنا المثل الحى فى عصره وهما الدكتور الأعز بهاء الدين ، والدكتور نجيب الدين أبى بكر ، وكيف أنهما جمعا الصفات الجسمية والطبيعية والعقلية والمعنوية . ويطيل ابن اصيبعة أيضا فى وصفه لاسقليبوس ، وما كان عليه من عفة ووقار ، ونشاط وهمة ، اذا تأملته « وجدته قائما متشمرا مجموع الثياب ، ترى الأعضاء منه التى يستحى من كشفها مستورة والأعضاء التى يحتاج الى استعمال الصناعة بها معراة مكشوفة ، حاد

النظر ، كثير السهر ، فى غاية الذكاء يمكنه تشخيص المرض الحاضر ، وان ينذر بما شأنه ان يحدث » (٢) ، من مضاعفات ويجمع لنا ابن رضوان صفات الطبيب كما يراها ، فلا يتناسى تلك الصفات الجسمية والطبيعية ، ويرى أن الطبيب ينبغى أن تجتمع فيه سبع خصال :

الأولى : ان يكون تام الخلق ، صحيح الأعضاء ، حسن الذكاء ، جيد الرؤية ، عاقلا ، ذكورا ، خير الطبع .

الثانية : أن يكون حسن الملبس ، طيب الرائحة ، نظيف البدن والثياب .

الثالثة : أن يكون كتوما لأسرار المرضى لا يبوح بشىء من أمراضهم .

الرابعة : أن تكون رغبته فى ابراء المرضى اكثر من رغبته فيما يلتمسه من اجرة ، ورغبته فى علاج الفقراء أكثر من رغبته فى علاج الأغنياء .

الخامسة : أن يكون حريصا على التعليم والمبالغة فى منافع الناس .

السادسة : أن يكون سليم القلب ، عفيف النظر ، صادق اللهجة ، لا يخطر بباله شىء من أمور النساء ، والأموال التى شاهدها فى منازل الأعلاء فضلا عن أن يتعرض الى شىء منها .

السابعة : أن يكون مأمونا ثقة على الأمور والأموال ، لا يصف دواء قتالا ولا يعلمه ولا دواء يسقط ، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه .

والمعلم لصناعة الطب هو الذى اجتمعت فيه الخصال بعد استكماله صناعة الطب ، والمتعلم هو الذى فراسته تدل على انه ذو طبع خير ، ونفس ذكية ، وأن يكون حريصا على التعليم ، ذكيا ذكورا لما قد تعلمه (٣) . فابن رضوان يذكر لنا صفات الطبيب الممارس ، والطبيب المعلم ، والطبيب فى مرحلة الاعداد وطلب العلم . وبعد أن يذكر صفات الطبيب الممارس عموما ، يتوقف عند الطبيب المعلم الذى ينبغى أن يحوز صفات الطبيب الممارس ، بجوار استكماله لصناعة الطب ، واتقانه له نظريا وعمليا ،

وطالب الطب لابد أن يختار من بين هؤلاء الذين تبدو عليهم سمات الطبع الخير والنفس الزكية والحرص على التعلم . وهنا يبدو ابن رضوان مهتما بحسن اختيار ابناء المهنة : ممارسين واساتذة وطلابا . ولا شك أننا اذا احسنا اختيار طالب الطب ، واحسنا اعداد معلمه ، لارتقت المهنة علميا وادبيا واجتماعيا . وهذا ما حرص عليه الفكر التربوى الاسلامى فى اختيار الطبيب وتربيته واعداده .

(ب) الصفات العقلية والمهنية :

اذا تركنا الصفات الحسية أو الطبيعية الى الصفات العقلية والمهنية لاحظنا الحرص الشديد على أن يكون الطبيب منصرفا الى متابعة نموه العلمى والمهنى باستمرار ، وذلك بالمواظبة على قراءة الكتب ، والانتفاع بتجارب الآخرين ، وعدم الاعتماد على التجربة والخطأ فى التشخيص والعلاج ، والتفرغ الكامل للمهنة وعدم الاشتغال بسواها . لذلك نجد أن الرازى يرى أن الانسان يجب أن يتأكد من حسن سير وسوابق الطبيب الذى يعهد اليه بصحته وصحة اقاربه التى هى أعز شىء فى الدنيا ، وذلك بأن يتجنب الطبيب الذى يقطع وقته بين الملاهى والملذات ويشتغل كثيرا بالفنون الأجنبية عن مهنته ويشرب الخمر ويتمادى فى الشهوات . وبخلاف ما ذكر يجب ايضا على المرء أن يثق بمن أتم دروس الطب اتماما وافيا ، وشاهد كثيرا من المستشفيات وعاشر كثيرا من الأطباء الماهرين ، وعالج عددا وافرا من المرضى ، وأن يثق بالطبيب الواسع الاطلاع على كتب أعاظم المؤلفين الذى يضم تجارب الآخرين الى مباحثه وملحوظاته الشخصية لأنه يستحيل على الانسان أن يقوى على رؤية كافة الأشياء واختبارها بنفسه (٤) . وعلى بن العباس المجوسى يرى أن الطبيب الناجح ينبغى الا يكون تشاغله الا بقراءة الكتب ، والحرص على النظر فيها ، أعنى كتب الطب ، ولا يمل من ذلك ، ولا يضجر منه فى كل يوم ويلزم نفسه حفظ ما قد قراه واستظهاره وتذكره اياه فى ذهابه ومجيئه ليحفظ جميع ما يحتاج اليه من علم وعمل . ويروض ذهنه فيه حتى لا يحتاج فى كل وقت الى النظر فى كتاب فانه ربما نالت كتبه آفة فيكون رجوعه فيما يحتاجه الى حفظه حيث توجه ، وينبغى أن يكون حفظه لذلك فى حداثته وشبابه

فان الحفظ فى هذا الوقت أسهل منه فى وقت الشيخوخة ، اذ كانت الشيخوخة أم النسيان . ومما ينبغى لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازما للبيمارستانات ، ومواضع المرضى كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم من الأستاذين من الحذاق من الأطباء ، كثير التفقد لأحوالهم والأعراض الظاهرة فيهم ، مستذكرا لما كان قد قرأ من تلك الأحوال وما يدل عليه من الخير والشر ، فانه اذا فعل ذلك بلغ من هذه الصناعة مبلغا حسنا » (٥) فعلى بن العباس يريد من طالب الطب القراءة الواسعة ، والملاحظة السريرية التى يطبق عليها ما يقرأ ، وملازمة حذاق الأطباء ليستفيد من تجاربهم . وسنرى شعور الأطباء المسلمين « بأن العمر قصير ، والصناعة طويلة والزمان جديد » ومن هنا وجب أن يقضى الطبيب وقته فى الدراسة والاطلاع حتى يستطيع أن يمارس مهنته بنجاح . ويجب أن يكون الطبيب « قد أحكم الأصول وقرأ الفروع ، فانه من غير هذين لا يصح له شىء ، ولا يهتدى لأمر من الأمور فى الصناعة فعليهما فاعتمد » (٦) . وسنلاحظ أيضا أن دائرة اطلاع الطبيب ينبغى الا تكون فى حدود التخصص الضيق بل ينبغى أن تشمل بجوار ذلك اطلاعا عاما General knowledge يعين على التبحر فى التخصص وادراك العلاقات الأخرى المتصلة مثل دراسات عن الحشائش الطبية ، وعن تأثير البيئةعن الصحة والمناخ ، والأدوية ... الخ كان يعرف « منابت الحشائش والعقاقير ومواضع المعادن وخواصها ، وقوى أعضاء سائر الحيوان وخواصها ومضارها ومنافعها ، ويعرف سائر الأمراض والبلدان واختلاف أمزجة أهلها مع تفريق ديارهم ، ويعرف القوة التى تنتجها تركيب الأدوية ، وما يضاد قوة من قوى الأدوية ، وما يلائم مزاجا وما يضاده ، مع ما يتبع ذلك من سائر صناعة الطب » (٧) . فالذكاء والاطلاع والاستمرار فى التعلم والبحث ، صفات عقلية ينبغى أن يتحلى بها الطبيب الناجح . وقل أن يترجم ابن أصيبعة لطبيب فى طبقاته دون أن يذكر لنا حظه من تلك الصفات العقلية اللازمة لحسن اعداد الطبيب (٨) .

(جـ) الصفات الأخلاقية وشرف المهنة :

تحتل الأخلاق بصفة عامة مكانة مهمة فى تكوين شخصية المسلم مهما كانت مهنته أو وظيفته . ويكفى أن نذكر هنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وقوله : « لا دين لمن لا خلق له » لندرك لماذا اهتمت ادبيات التربية الاسلامية بالعنصر الأخلاقى فى تكوين المسلم بحيث لا يخلو كتاب منها عن الحديث عن اخلاق الطالب ، والمعلم (٩) . ومن ثم فالطبيب المسلم انما يستمد اخلاقه من اخلاق هذا الدين . غير ان كتب الطب ركزت بجوار ذلك على بعض الجوانب المهمة فى حياة الطبيب اليومية كالرفق بالمرضى ، وحفظ اسرارهم ، وغض البصر عن عوراتهم ، وعدم الانحراف الجنسى ، أو تعاطى المسكرات ، وعدم التكبر او العجب بما احرزه الطبيب من نجاح ، يقول الرازى : « واعلم يا بنى انه ينبغى للطبيب ان يكون رفيقا بالناس حافظا لغيبهم ، كتوما لأسرارهم ، لاسيما اسرار مخدومه ، فانه ربما يكون ببعض الناس من المرض ما يكتمه من اخص الناس به مثل ابيه وامه وولده، وانما يكتمونه خواصهم ويفشونه الى الطبيب ضرورة . واذا عالج من نسائه او جواريه او غلمانه احدا فيجب ان يحفظ طرفه ، ولا يجاوز موضع العلة » فقد قال الحكيم جالينوس فى وصيته للمتعلمين ، ولعمرى لقد صدق فيما قال : « على الطبيب أن يكون مخلصا لله ، وان يغض طرفه عن النسوة ذوات الحسن والجمال ، وأن يتجنب لمس شىء من ابدانهن . اذا أراد علاجهن أن يقصد الموضع الذى فيه معنى علاجه ، ويترك اجالة عينيه الى سائر بدنها » . قال : « ورأيت من يتجنب ما ذكرت ، فكبر فى أعين الناس ، واجتمعت اليه اقاويل الخاصة والعامة . قال : ورأيت من تعاطى النساء فكثرت قالة الناس فيه ، فتجنبوه ورفضوه » (١٠) .

وليحذر الطبيب اذا اشتهر ان يتكبر على العامة أو يترفع عن معالجتهم يقول الرازى : « واعلم يا بنى أن من المتطببين من يتكبر على الناس لا سيما اذا اختصه ملك أو رئيس ، وقد قال الحكيم جالينوس : رايت من المتطببين من اذا داخل الملوك فبسطوه تكبر على العامة وحرمهم العلاج ، وغلظ لهم القول ، وبسر فى وجوههم ، فذلك المحروم المنقوص

فدعا الحكيم الى اضداد هذه الخصال التى ذكرها وحث عليها » (١١) . ومهما نجح الطبيب فى عمله ووفق فى معالجاته فليتواضع ويحمد الله على ذلك حتى لا يأخذه العجب بنفســـه فيصيبه الغرور والتكبر على زملائه ومرضاه . يقول الرازى : « ورايت من المتطببين من اذا عالج مريضـــا شـــديد المرض فبرأ على يديه ، دخله عند ذلك عجب وكان كلامه كلام الجبارين ، فاذا كان كذلك فلا كان ولا وفق ولا ســدد » (١٢) . وكلمــا تواضع الطبيب كلما ازداد علما ونجاحا فى عمله : يقول الرازى : « واعلم ان التواضع فى هذه الصناعة زينة وجمال (دون ضعة النفس)، لــكن يتواضع بحسن اللفظ وجيد الكلام ولينه ، ويترك الفظاظة والغلظة على الناس ، فمتى كان كذلك فهو المسدد والموفق » (١٣) . ثم يجتهد الطبيب فى التشخيص ووصف العلاج ويسأل الله التوفيق والسداد ، دون أن يظن انه وحــده بعلمه ومهارته سبب الشــفاء ، بل يتكل « فى علاجه على الله تعالى ، ويتوقع البرء منه ، ولا يحسب قوته وعمله ويعتمد فى كل اموره عليه . فاذا فعل بضد ذلك ونظر الى نفسه وقوته فى الصناعة وحذقه حرمه الله البرء » (١٤) . وينهى الرازى « أن يتناول الطبيب شــيئا من المسكرات ، حتى يكون عقله حاضرا معه ولا سيما وقت العلاج ، حتى لا يقع فى علاجه من الخطأ ما لا يمكن تداركه ، كذلك فقد يحتاج الى الطبيب فى وقت يكون فيه سكرانا فيسقط ذلك من هيبته » (١٥) . ويجمل بعض المعاصرين أهم تلك الصفات الأخلاقية التى يجب أن يكون عليها الطبيب المسلم فيما يلى :

١ — الذى لا يحتسى الخمر .

٢ — الذى لا يتعاطى المخدرات .

٣ — الذى يصون الأعراض فيغض بصره ويحفظ فرجه .

٤ — الذى يشهد بالصدق فى كل ما يطلب منه أو يشهد به .

٥ — الذى لا يكسب الا مالا حلالا . والذى يخشى الله فيقول لمريضه الكلمة الصادقة والنصيحة الخالصة (١٦) .

ولقد بلغ من اهتمام المســلمين بهذا الجانب الأخــلاقى فى اعداد

الطبيب أنهم نصحوا الا يتعلم الطب اصلا الا ذو اخلاق حسنة ، وتدين قوى . وأن كثيرا من اساتذة الطب رفضوا أن يعلموا الطب الا لمن حاز هذه الصفات الحسنة (١٧) ، وكان الحكيم ابو القاسم يرى ان الطبيب ينبغى علية أن يعالج أخلاقه أولا حتى يصبح محبا للخير ، كارها للرذائل ثم بعد ذلك يمارس المهنة : « فالطبيب الحقيقى من عالج بالفضائل نفسه ورأى مضرته فى الرذائل ، ثم يهبط بعد ذلك الى معالجة الأجسام ، فمن لا يهبط من معالجة النفس الى معالجة الجسد فهو اسفل السافلين » (١٨) .

ثانيا — حقوق الطبيب وواجباته :

حقوق الطبيب :

تمتع الطبيب بمنزلة اجتماعية عالية فى المجتمع الاسلامى مثل منزلة المعلم تماما ، فالمعلم يقدم للمجتمع العلم والمعرفة ، والطبيب يمده بالصحة والعافية ، وكلاهما من القيم الغالية التى حرص المجتمع الاسلامى عليهما ، وعلى أدات تحصيلهما ، يصور لنا ذلك قول الشاعر :

اكرم طبيبك ان اردت دواءه .·. وكذا المعلم ان أردت تعلما

ان المعلم والطبيب كلاهما .·. لا ينصحان اذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك انجفوت طبيبه .·. واقنع بجهلك ان جفوت معلما (١٩)

ولذلك أوصى الرازى ان ينال الطبيب منزلة محترمة فى نفوس العامة والخاصة فيقول : « ينبغى لمن يختص المتطبب لنفسه من الملوك والأكابر والسوقة أن يبالغ فى تطييب قلبه بلطيف الكلام ، وأن يرفعه فوق جميع من فى مجلسه من خدمه وغيرهم ، فان هم الا خدام جسم والمتطبب خادم روح » ، واذا اكرم الناس الطبيب بذل أقصى ما لدية من علم وخبرة فى خدمتهم ، ذلك لأن « المخدوم اذا أحسن الى من يختصه لنفسه من المتطببين جد ذلك المتطبب فى حفظ صحته ، ومداواة علته ، وقد صدق لعمرى الحكيم ابقراط حيث قال : صانع الطبيب قبل أن تحتاج اليه ومما يضرب به المثل : عمله عمل من طب لمن أحب .. ولا شىء أجدى على العليل من كون الطبيب مائلا اليه بقلبه ، محبا له » (٢٠) ويرى الرازى انه على « من استخدم الطبيب أن يقربه من نفسه ويكلمه كما يكلم اخص الناس به » ، والا يكتم عن الطبيب سرا يمكن أن يؤثر على علاجه لأن

« الطبيب لا يهتدي الى علاجه اذا لم يفش اليه سره » (٢١) كذلك ينبغى أن يثق المريض بطبيبه ولا يتنقل من طبيب الى آخــر كما ذكر الرازى : « ينبغى للمريض أن يقتصر على واحد ممن يوثق به من الأطباء فخطؤه فى جنب صوابه يسير جدا « بعكس » من تطبب عند كثيرين من الأطباء يوشك أن يقع فى خطأ كل واحد منهم » (٢٢) . والطبيب يمكن أن يخطىء فى أثنــاء أدائه لعمله أخطاء طبية غير جسيمة وليست نتيجة جهل أو اهمال ، فهذه لا يحاسب عليها الطبيب أو يعاقب عليها . كذلك فمن حق الطبيب أن ينال أجره « من غير عقــد اجارة ، بل يعطيـــه (المريض) أجرة المثل ، أو ما يرضيه » (٢٣) . ولقد نال الأطباء المســلمون أجورا مناسبــة جعلتهم يعيشون فى مستوى معيشى مرتفع اذا قارناه بمستوى معيشة غيرهم من الطبقات المثقفة ، فضلا عن العامة (٢٤) ، مما كان سببا فى الاقبال على ممارسة تلك المهنة ، وعندما نقرأ تراجم الأطباء كما ذكرها ابن أصيبعة يتضح لنا أن بالفعل الأطباء المسلمين قد نالوا حقوقهم الأدبية والمادية ، على صورة تقدير اجتماعى ، وأجور وهدايا مجزية بحيث كانت مهنة الطب محترمة ، ومحبوبة ، ومرغوب فيها . (انظر الملحق رقم ١) .

واجبات الطبيب :

اذا كان الطبيب المسلم قد نال حقوقه الأدبية والمادية فقد كان ذلك تقديرا من المجتمع لدوره ، وما يبذله الطبيب من جهــد فى ســبيل أداء واجباته . ولقد كان من أول هذه الواجبات الا يتصدى للمهنة الا بعد أن يتقنها نظريا وعمليا ، والا تعرض للمســـئولية فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تطبب — ولم يعلم منه الطب قبل ذلك — فهو ضامن » (٢٥) . وكانت عقوبة من يتصــدى للطب بدون كفاءة عقوبة تتناســب مع خطورة تلك الجريمة التى تعرض أرواح الناس للخطر ، وهى جريمة أخطر على المجتمع من اللصوصــية وقطع الطرق . ذلك لأن « اللصـــوص وقطاع الطريق ، خــير من أولئك النفر الذين يدعون الطب وليسوا بأطباء ، لأنهم يذهبون بالمال وربما أبقوا على الأنفس وهؤلاء (المتطببين) كثيرا ما يأتون على الأنفس النفيسة » (٢٦) . ولقد تناول الفقهاء بأســـهاب المبادىء الشرعية التى تحكم عمل الطبيب

ومسئوليته ومتي يكون طبيبا حاذقا ؟ ومتى يقع تحت دائرة العقاب ، اذا اخطأ ؟ ومتى لا يقع .. الخ (٢٧) .

كذلك وضعت مواصفات دقيقة للطبيب الحاذق ، وكيف يمارس المهنة (انظر الملحق رقم ٤) وما ينبغى عليه من تدقيق تشخيص المريض وتتبع حالة المريض ، وتاريخه المرضى حتي يعلم « كل يوم كمية طعامه وكيفية طبعه فى قلته وكثرته ، وهشاشته لذلك أو كراهته ، فان من علم مطعم انسان ومشربه ونومه وسهره وفراغه وشغله وسائر أحواله من البـــاه وغير ذلك ، فما اقل ما يقع فى علاجه من الخطأ » (٢٨) كذلك عليه أن يعطى المريض الوقت الكافى للفحص الشامل وسماع حالته وشكواه ، وأن يقوم بالكشف الدورى على المريض فى الحالات التي تستدعى ذلك ، لأن من « العلل ما لا يمكن الاستغناء فيها عن الطبيب الحاضر المراقب ، لظهور العلامات الدالة على ما تحتاج الطبيعة اليه من معاونته والمبـــادرة الى تدبير ما يحدث بالمريض ساعة فساعة » (٢٩) . وعلى الطبيب الا يقتصر بخدماته الطبية على الاغنياء وذوى الجاه بل يشمل بها الفقراء والمحتاجين وتحفل تراجم الأطباء لابن اصيبعة باســـــماء أطباء رفضوا أن يقصروا خدماتهم الطبية على الأمراء والسلاطين ، واصروا على ان يكونوا أطباء للعامة والخاصة فى نفس الوقت (٣٠) . كذلك ينبغى على الطبيب الا يستغل مهنته استغلالا ماديا جشعا كأن يوهم المرضى بعلل معينة ، أو يبالغ فى تقدير جهده ، أو يحتال لكسب اكبر قدر من المال ، « اذ لا ذنب أعظم من ظلم الناس وأخذ أموالهم بغير حق ، لاسيما من كان ضعيفا أو مسكينا ولا عقل له ولا أمر ولا نهى » (٣١) . والمريض عندما تشرف نفســـه على الهلاك يكون بين يدى الطبيب ضعيفا مسكينا لا عقل له ولا أمر ولا نهى ، فلا يجوز استغلاله فى تلك الحالات الصعبة .

لقد كان الطبيب المســـلم يؤدى واجبه ، وهو يراقب الله فى حرفته لانه يؤمن بقول الله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورســـوله والمؤمنون ، وســـتردون الى عالم الغيب والشـــهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » (التوبة : آية ١٠٥) ونرى أن نختم هذا الجزء من الدراسة

بما سماه « ابراهيم الصياد » اسلاميات ممارسة المهنة ، أو كيفية ممارسة الطبيب لواجبات المهنة والتى ذكر منها مايلى : (٣٢)

(أ) بدء الفحص أو العلاج بذكر اســم الله فان ذلك له عــدة اعتبارات :

- ادعى للتوفيق فى العمل فالرسول يقول « كل عمل ذى بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر » .
- استشعار لدوره كسبب نفاذ ارادة الله فى العلاج وهذا هو موقف العبودية لله .
- توجيه عمله لله حتى يثاب عليه .
- منح المريض دفعة روحية وهو فى موقف حساس : « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » (الذاريات : ٥١ ، ٥٢) .

(ب) قد يشهد وفاة المريض وبصفته مسلما قبل أن يكون طبيبا فعليه أن يلقنه الشهادتين كما يقول : « لقنوا موتاكم لا اله الا الله » .

(جـ) تجنب ما حرم الله فى العلاج تنفيذا لقول الرسول : « ما جعل الله شفاءكم فيما حرم عليكم » . وفى الطب الحديث لكل علاج محرم بديله الحلال .

(د) تجنب الممارســات التى نهى الاســلام عنها كالاجهاض والوشم .. الخ فقد قال الرسول : « لعن الله الواشمات والمستوشمات والواشرات والمستوشرات » .

(هـ) الا يقدم على ممارسة الا اذا كان مطمئنا الى كفايته لتنفيذها فالرسول يقول « لا حكيم الا ذو تجربة » ، ويحترم التخصص المهنى تنفيذا لقول الرسول : « من تطبب ولم يعلم عنه طب فهو ضامن » .

(و) أن يحافظ على كفاءته العلمية بالتعليم المستمر فان مهنته تتعداه الى غيره ، وعلمه من النوع التطبيقى والرسول يقول : « الحكمة ضالة المؤمن انى وجدها ينشدها » .

(ز) أن يتعامل مع زملائه الأطباء على أسس من تعاليم الاسلام فيتجنب الغيبة والتجريح واحترام الكبير : « لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا » ولا يتعالى على الصغير : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا » ويقدم النصح لمن يحتاجه « الدين النصيحة » ، وأن يسعى لتعليم زملائه الأقل خبرة « من دل على خير فله مثل اجر فاعله » ، « يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون ، فاذا جاؤكم فاستوصوا بهم خيرا » .

(ح) أن يفيد بعلمه كل مريض يمكن مساعدته فالرسول يقول : « اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع » ، « من كتم علمه عن أهله ألجم يوم القيامة لجاما من نار » .

(ط) أن يذيع ما يكشفه من جديد فى العلاج تعميما للفائدة ولا يحتكر طريقة فى العلاج يقصد الكسب منها فالرسول يقول : « لا يحتكر الا خاطىء » .

(ى) أن يراعى حرمة الميت كما يراعى حرمة الحى ، فالرسول يخاطب الكعبة قائلا : « والمؤمن اعظم حرمة عند الله منك » ، ويقول : « كسر عظم الميت ككسر عظم الحى فى الاثم » .

مراجع الفصل الرابع ومصادره

(١) ظهير الدين البيهقى : « **تاريخ حكماء الاسلام** » ، مرجع سابق ، ص ١٥٨ ، ص ١٥٩ .

(٢) ابن أصيبعة : **عين الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٣٤ — ص ٣٧ .

(٣) **نفس المرجع** ، ص ٥٦٥ .

(٤) محمود صدقى : **رسالة عن الطب فى أيام العرب وقوانين الصحة عند المسلمين** ، مرجع سابق ، ص ٤٠ ، ص ٤١ .

(٥) على بن العباس المجوسى : **كامل الصناعة الطبية** — مطبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٩٤ هـ ، ج ١ ، ص ٨ و ص ٩ .

(٦) الرازى : **اخلاق الطبيب** ، مرجع سابق ، ص ٧٦ ، ص ٧٨ .

(٧) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

(٨) **نفس المرجع** ، الصفحات ٢٧٧ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٥٨٠ ، ٦٠١ ، ٦٦٢ ، ٧٢٥ ... الخ .

(٩) راجع مثلا : **احياء علوم الدين** للغزالى ، **وتعليم المتعلم طريقة التعلم** للزرنوجى ، **ومفتاح السعادة ومصباح السيادة** لطاش كبرى زاده ، وغيرها من المراجع التى سبق ذكرها .

(١٠) الرازى : **اخلاق الطبيب** ، مرجع سابق ، ص ٢٧ ، ص ٣١ .

(١١) **نفس المرجع** ، ص ٣٥ ، ص ٣٧ .

(١٢) **نفس المرجع** ، ص ٣٨ .

(١٣) **نفس المرجع** ، ص ٨٤ ، ص ٨٥ .

(١٤) **نفس المرجع** ، ص ٣٨ ، ص ٣٩ .

(١٥) **نفس المرجع** ، ص ٦٥ ، ص ٦٦ .

(١٦) محمود احمد نجيب : **الطب الاسلامى شفاء بالهدى القرآنى** ، مرجع سابق ، ص ٧٣ .

(١٧) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٦٧٣ .

(١٨) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١١٦ .

(١٩) برهان الاسلام الزرنوجى : **تعليم المتعلم طريق التعلم** ، مرجع سابق ، ص ٨٢ .

(٢٠) الرازى : **اخلاق الطبيب** ، مرجع سابق ، ص ٣١ — ص ٣٥ .

(٢١) **نفس المرجع** ، ص ٤٧ ، ص ٦٨ .

(٢٢) بن اصيبعة : **عيون الأطباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٤٢١ .

(٢٣) ابن قيم الجوزية : **الطب النبوى** ، مرجع سابق ، ص ٤٨ .

(٢٤) فرات فائق خطاب : **الكهانة عند العرب** ، منشورات وزارة الاعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٧٥ ، ص ١٦ ، رحمة الله مليحسة ، **الحالة الاجتماعية فى العراق فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجـــرة** ، مطبعة الزهراء ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ٧٥ .

(٢٥) ابن قيم الجوزية : **الطب النبوى** ، مرجع سابق ، ص ١٠٧ .

(٢٦) الرازى : **اخلاق الطبيب** ، مرجع سابق ، ص ٨١ .

(٢٧) محمد فؤاد توفيق : المسئولية القانونية فى الشريعة الاسلامية **من ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاســـلامى** ، مرجع سابق ، ص ٥٤٤ — ص ٥٤٩ ، عبد الستار ابو غدة : « المبادىء الشرعية للتطبيب والعلاج » **من ابحاث واعمال المؤتمـــر العالمى الثانى عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٥٩٠ — ص ٦٠٢ .

(٢٨) الرازى : **اخلاق الطبيب** ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

(٢٩) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٧٠ .

(٣٠) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، ١٢٩ ، ٦٩٦ ، ٦٩٩ وغيرها .

(٣١) ابن أبى نصر العطار : **كتاب منهاج الدكان ودستور الأعيان فى أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان** ، مرجع سابق ، ص ٥ .

(٣٢) ابراهيم الصياد : « نظرة الاســــلام للطب » **ابحاث وأعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاســــلامى** ، مرجع سابق ، ص ٦٤ ، ص ٦٥ .

خاتمة البحث : أو دروس مستفادة

حاولنا فى الصفحات السابقة أن نعرض للاعداد التربوى والمهنى للطبيب ، هذا الاعداد الذى نرى أنه كان من وراء تلك النهضة الطبية التى حققها المسلمون فى فترة قصيرة من الزمان . ومن خلال الفصل الأول رأينا أننا لا نستطيع أن نفهم ازدهار الطب الاسلامى الا اذا عرضنا لتعاليم الاسلام التى تحث على طلب العلم بصفة عامة ، والتعليم الطبى بصفة خاصة . ان الأمة العربية ما كان لها أن تنتقل من البداوة الحضارية الى هذا الازدهار العلمى والتعليمى فى شتى المجالات ، دون تلك الدفعة الهائلة التى جاءت بها تعاليم الاسلام ، ولقد كان نصيب التعليم الطبى من تلك التعاليم نصيبا كافيا لازدهار الطب الوقائى ، والطب العلاجي معا ، والانتقال بسرعة من مرحلة الترجمة والاقتباس الى مرحلة الأصالة والتأليف والابداع ، ولعل هذا يوضح لنا قوة استخدام الدافع الديني العقائدى فى بناء الحضارات . لقد كان الدافع الاسلامي قويا وهائلا بحيث استطاع أن يدفع المسلمين الى شتي ميادين العلم والمعرفة ومنها الطب ، اذ وجد المسلمون أن كل المعارف تزيدهم قربا الى الله ، وفهما لآياته ومعرفة به . ولذلك فعندما كان أبو الحسن الانبارى الحكيم يدرس بعض الأشكال الهندسية من كتاب المجسطي وسأله بعض الفقهاء يوما ما تدرس ؟ رد بكل ثقة واطمئنان « أفسر آية من كتاب الله تعالى . فقال الفقيه : وما تلك الآية ؟ فقال الانبارى : قول الله تعالى : « أولم يروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها » فأنا أفسر كيفية بنائها » (١) . والواقع أن العلماء المسلمين قد اتخذوا من القرآن وتعاليمه نقطة انطلاق لهم لارتياد شتى ميادين العلوم والمعارف وكانوا يرون أن آيات القرآن تحثهم على ذلك . (انظر الملحق رقم ٣) ولقد كان ثمرة هذا الربط المحكم بين « القرآن » والعلم ، ومنه الطب أن نمت العلوم الاسلامية فى ظلال الايمان ، فلم تعرف الالحاد ، وفساد الأخلاق ، واستغلال العلم من أجل تدمير الانسان والطبيعة واشباع الشهوات الشخصية والقومية (٢) .

ثانيا : ان التعليم المتخصص — ومنه التعليم الطبى لا يتم الا بعد ان ينال الطفل المسلم الجرعة الثقافية الاسلامية الكافية لتشكيل شخصيته الاسلامية . ويمثل « التعليم الابتدائى » الاسلامى مرحلة كافية لاتمام هذه العملية التربوية الهامة : « عملية التطبيع الاسلامى » . ولقد كان المسلمون على مر العصور ، وعلى اختلاف اقاليمهم يركزون على اهمية تلك المرحلة . وكان ثمرة ذلك انتاج اجيال مسلمة من المثقفين ، وعلى اختلاف تخصصاتهم فيما بعد — تجمعهم ثقافة واحدة ، هى الثقافة الاسلامية ، وتوحدهم قيم واحدة ، هى القيم الاسلامية . ومن هنا لم يعان المثقفون المسلمون على اختلاف تخصصاتهم الشعور « بالغربة الثقافية » وانعزالهم عن العامة كما يشعر المثقفون المعاصرون ، كذلك لم يعان المثقفون من أى نوع من انواع الازدواج الثقافى بين المتخصصين فى علوم الدين ، والمتخصصين فى علوم الدنيا كما نعانى اليوم فى ظل غياب عملية التطبيع الاسلامى الشامل (٣) ، بل أن المثقف المسلم لم يشعر بوحدة الثقافة فى داخل اقليمه الجغرافى ، بل أحس بها حيثما تنقل فى أنحاء العالم الاسلامى كما تدلنا على ذلك أعمال الرحالة المسلمين وآثارهم الأدبية التى دونوا فيها وقائع تلك الرحلات (٤) . وهذه النقطة بالذات تحتاج الى مزيد من الدراسة والمناقشة .

ثالثا : ان التعليم الطبى الاسلامى قد توافرت له عوامل النجاح ، من حيث اقبال الطلاب على العلم والتعليم ، وتفرغ الأساتذة لحسن اعدادهم نظريا وعمليا ، والعلاقة القوية التى كانت تربط الأستاذ بطلابه والتسهيلات العملية والحياتية التى كان يحظى بها الطلاب والأساتذة والحرية العلمية والأكاديمية التى تمتعوا بها ، وهى جميعا عوامل يفتقر اليها التعليم الطبى فى أغلب الدول الاسلامية المعاصرة . ان كثيرا من طلابنا لا تتوافر لهم عناصر الحياة الضرورية فضلا عن متطلبات الدراسة الأكاديمية من معامل ومراجع وتسهيلات مكتبية ودراسية ، وكثير من أساتذة الطب عندنا لا يجدون الوقت الكافى الذى يعطونه لطلابهم تعليما وتدريبا بسبب انشغالهم بعياداتهم الخاصة ، وسعيهم وراء الرزق حتى برزت الحاجة الى ضرورة تفرغ بعضهم لمزاولة « التعليم الطبى » (٥) .

رابعا : لقد كان الأطباء المسلمون على مستوى المسئولية الحضارية عندما نجحوا فى تعريب التعليم الطبى ، وعندما أثروا اللغـــة العربيـــة بالمصطلحات الطبية الجديدة ، والذى يطالع المؤلفات الطبية الاســـلامية لا يمكن الا أن يشعر بالاحترام لهؤلاء الأســـاتذة الأجلاء . لقد احترموا لغتهم العربية واتقنوها ، وقدموا تعلمهم للعربية على ســـائر العلوم ، وبذلك كانوا قادرين على الترجمة والاقتباس والنحت والاشتقاق . وكانت من ورائهم حكومات مســلمة قد اتخذت « قرار التعريب » بدون تردد ، وبذلت فى ســـبيله المال ، وأعدت من أجلـه العـدة من مترجمين ودور حكمة .. الخ . وشـــجعت العلماء على التعريب والتأليف بالعربية . ويقارن الباحث بين هذا العزم وتلك الارادة القوية وبين ما يبديه الجيـل المعاصر : علماؤه وحكوماته من تردد فى تعريب التعليم الطبى ، واعتماد على اللغـــات الأجنبية فى التدريس والتأليف ، فيدرك الفارق الهائل بين علماء يحترمون لغتهم ولا يرضون باللحن فيها فى مجالسهم العلمية ، وبين آخرين لا يكادون يحسنون النطق بها فى محاضراتهم » (٦) فأنى لهم القدرة بعد ذلك على التدريس أو التأليف بها ؟ . نعم ان قضية تعريب العلـوم ومنها الطب ، من القضـــايا الهامة التى يثيرها المفكرون العرب كثيرا ، ويعقدون لها الندوات والحلقات على المستوى المحلى والقومى ، وتتعدد فيها الآراء . ولكن من الواضح أن تلك القضية لن تحسم الا بقرار سياسى على أعلى المستويات التشريعية فى البلدان العربية ، مع انشـــاء مراكز رئيســية للتعريب والترجمة والنشر ، واصـــدار مجلات ومؤلفات علمية بالعربية لمتابعة حركة التطور العلمى العالمى ، ورصد الميزانيات الكافيـــة لذلك (٧) . وما زالت تجربة المسلمين فى هذا الموضوع تجربة تســـتحق الدراسة والتأمل .

خامسا : لقد استمد الأطباء المســـلمون أخلاق مهنتهم من أخلاقيات الاسلام العامة ، وبذلك نجا الطب الاسلامى من كثير من مظاهر انحراف الطب الحديث . فقد نشرت ريدرز دايجست على سبيل المثال فى عددها الصـــادر فى فبراير عام ١٩٨٢ : « أنه يمارس الطب فى امريكا ٤٥٤٠٠٠ طبيب وانه من بين هؤلاء يوجـــد من ٢٠٫٠٠٠ الى ٥٠٫٠٠٠ طبيب يجب

الا يسمح لهم بمزاولة المهنــة ، وذلك بسبب ادمانهم الخمر أو المخدرات ، او لاصــابتهم بانحرافات جنســية أو اختــلال فى تفــكيرهم وقــواهم العقلية . كذلك نشر الجراح جن كريل كتابا ســجل فيه خبرته على مدى أكثر من اربعين عاما فى ميــدان الطب ، سرد فيــه سلسلة من الفضائح والمخازى التى ارتكبها الأطباء مع المرضى ، وكلها أمثلة لفســـاد الذمة وانعدام الضــمير حتى أن بعض هؤلاء الأطبــاء كانوا يجرون كثيرا من الجراحات ومنها جراحات استئصال اللوز والزائدة الدودية وأكياس الثدى والأورام الليفيــة من الرحم من أجــل ابتزاز أموال المرضى . وفى معظم الحالات يدخل الجراح فى روع المريض أنه يعانى من مرض خطــير وأنه لابد من الجراحة لانقاذ حياته . وينقاد المريض تحت تأثير الخوف من حدوث المضاعفات والأورام السرطانية فيقبل اجراء جراحة هى فى الواقع لا مبرر لها . وقد يحدث من هذه الجراحة مضاعفات تودى بحياته » (٨) .

سادسا : فى موجة حماسنا للتعليم الاسلامى قد يظن البعض أنه يكفى أن ندرس مادة « الطب الاسلامى » فى كليات الطب نتناول فيهــــا تعاليم الاســلام فى ميدان الطب والتراث الطبى الاســــلامى ، والعلاج الاســــلامى .. الخ (٩) ، أو أن نصوغ دســـتورا لمهنة الطب مستمدا من تراثنا التربوى الاســــلامى ، يتناول صفة الطبيب ، وعلاقته بالمريض وواجباته ومسئولياته ... الخ (١٠) . ورغم أهمية مثل هذه الأمور ، الا أنها تعيد لنا « الروح الاسلامية » فى مؤسسات تعليمنا الطبى ، وفى مناهجــه وممارساته . ان ما يحتاجه « التعليم الطبى » فى عالمنا الاسلامى أكثر من ذلك بكثير : أكثر من اضافة بعض الموضوعات الطبية الى مناهجه ، أو وضع دستور اسلامى لممارسته . انه يحتاج قبــل ذلك كله ومعه الى الطالب المسلم الذى أحســنا اعداده اســلاميا من البداية ، ويحتاج الى الأستاذ المسلم العارف بربه ، ويحتاج الى روح اسلامية جديدة تسرى فى تعليمنا الطبى أفرادا ومناهج ومؤسسات فتعربه أولا بالكامل ، ثم تسير به السيرة المتميزة ، ان ابداع « طبيب اسلامى معاصر » ، تظلله آداب الاسلام وتعاليمه هى مســــئولية هذا الجيل بدون شك ، وهذا الطب الاسلامى المعاصر هو القادر على أن يقدم للانسان المعاصر راحته النفسية

والفكرية ، وطبه الجسمانى والروحانى فى نفس الوقت . وفى ذلك يقول احد الباحثين : « ان الطب المعاصر مهما بلغ من التقدم العلمى والعملى ، ومهما انجز من وسائل هائلة فى ميادين البحث والوقاية والعلاج ، ومهما احرز من نتائج باهرة فى ميدان الرعاية الصحية فانه لم يضمن للانسان الراحة النفسية والفكرية التى لا زال يبحث عنها بين موجات الاثير وامواج البشر . وان الطب المعاصر يشكو من نقائض خطيرة فى المفاهيم وفى السياسة وفى المناهج كما تحكم عنه شهادات اكبر الاختصاصيين فى الطب والاجتماع ، بينما نجد الاسلام طبقا لمبادئه العقيدية يعطى للانسان ولصحة الانسان معنى اشمل وأوسع وأعمق من المفاهيم التى سادت او تسود فى المجتمعات السالفة والمعاصرة . ويضىء للعلوم الطبية ولسياسة الصحة آفاقا خلقية وعملية على قدر ما يطمح اليه الانسان فى هذا العصر » (١١) . وقديما أكد ابن قيم الجوزية هذا المعنى عندما قارن بين « الطب الاسلامى » وغيره من انواع الطب فى عصره ، ورأى أن « الطب الاسلامى » اكمل الطب واصحه وانفعه ووضح ذلك بقوله : « ولا يعرف هذا الا من عرف طب الناس سواهم وطبهم ثم قارن بينهما ، فحينئذ يظهر له التفاوت . وهم اصح الأمم عقولا وفطرا ، واعظمهم علما ، واقربهم فى كل شىء الى الحق ، لأنهم خيرة الله فى الامم كما أن رسولهم خيرته من الرسل ، والعلم الذى وهبهم اياه ، والحلم والحكمة أمر لا يدانيهم فيه غيرهم . وقد روى أحمد فى مسنده من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله ، » فظهر أثر كرامتها على الله سبحانه : فى علومهم وعقولهم وأحلامهم وفطرهم ، وهم الذين عرضت عليهم علوم الأمم قبلهم وعقولهم ، وأعمالهم ، ودرجاتهم ، فازدادوا بذلك علما وحلما ، وعقولا ، الى ما افاض الله سبحانه وتعالى عليهم من علمه وحلمه (١٢) .

مراجـــع خاتمـــة البحث

(١) ظهير الدين البيهقى : ((**تاريخ حكماء الاسلام**)) ، مرجع سابق، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ .

(٢) قارن ذلك بآثار العلم عندما يكون مشبعا بالدافع المادى العلمانى فى :

— Seyyed Hossein Nasr : **Man And Nature, The Spiritual Crisis of Modern Man,** Amandala Books, Unwin LTD, 1976.

— J. Bronowski : **Science and Human Values,** Harper Torch Books, New York, 1965.

(٣) راجع أسباب تلك الغربة وجذورها وأهم مظاهرها فى :

— Kalim Siddiqui : **Functions of International Conflict, Asocio- Economic study of Pakistan,** Royal Books Company, Karachi, 1975, PP. 7–37.

(٤) انظر مثلا : **رحلة ابن بطوطة** ، **ورحلة ابن جبير** ، ودراسة زكى محمد حسن ، **الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى** ، دار المعـــارف ، مصر ، ١٩٤٥ م .

(٥) عز الدين شكاره ((نظرات فى تفرغ أساتذة الطب)) ((**مهرجان اسبوع العلم الثانى عشر** ، الكتاب الثالث ، المجلس الأعلى للعلـــوم ، الجمهورية العربية السورية ، ١٩٧١ ، ص ٨٨ — ص ٩٣ .

(٦) عبد الكريم خليفـــة : ((تأهيل أعضاء هيئة التدريس للتدريس بالعربية)) **مجلة مجمع اللغة العربيـــة الأردنى** ، العدد المزدوج ٧ ، ٨ ، السنة الثالثة ، ١٩٨٠ ، ص ٥ — ص ٣١ .

(٧) انظر فى ذلك :

مجمع اللغة العربية الأردنى ، العدد الأول ، السنة الأولى ، ١٩٧٨ ، والثالث والرابع ، السنة الثانية ، ١٩٧٩ ، والسابع والثامن ، السنة

الثالثة ، ١٩٨٠ ، **مهرجان اسبوع العسلم السابع عشر** ، المجلس الأعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، ١٩٧٧ ، وعزة مريدن : **تعليم الطب باللغة العربية** ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٨ .

(٨) محمود أحمد نجيب : **الطب الاسلامى شفاء بالهدى القرآنى** ، مرجع سابق ، ص ٧٠ ، ص ٧١ .

(٩) انظر تفصيل هـذا المنهج المقترح فى :

أحمد شوقى الفنجرى : « الطبيب الاسلامى منهج دراسته فى كليات الطب ؛ مشروع تدريس مادة الطب فى كليات الطب ، **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الثانى عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٨٠٣ — ص ٨٠٧ .

(١٠) انظر فى ذلك :

وثيقة الكويت : « الدستور الاسلامى للمهنة الطبية » ، اعداد المنظمة العالمية للطب الاسلامى ، ص ٦٨١ ، ص ٧٠٠ ، محمود ناظم النسيمى : « قواعد وآداب مزاولة الطب الاسلامى فى التراث الاسلامى » ص ٦١٨ — ص ٦٢٢ ، محمد الطيب بسيسى : قواعد وآداب مزاولة مهنسة الطب الاسلامى ، كما وردت فى التراث الطبى الاسلامى ، ص ٦٢٣ — ص ٦٢٧ ، **اعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق .

(١١) أحمد عروة : « آفاق اسلامية لفلسفة وسياسة الصحة » ، **اعمال المؤتمر العالمى الثانى عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٩١٦ .

(١٢) ابن قيم الجوزية : **الطب النبوى** ، مرجع سابق ، ص ٣٢٥ .

ملحق رقــــم (١) *

الدخل العــام للطبيب جبرائيل بن يختيشوع طبيب الرشيد

أقول : وكانت مدة خدمة جبرائيل بن بختيشوع للرشيد منذ خدمه والى أن توفى الرشـــيد ثلاثا وعشرين سنة . ووجد فى خزانة بختيشوع ابن جبرائيل مدرج فيه عمـــل بخط كاتب جبرائيل بن يختيشوع الكبير ، واصطلاحات بخط جبرائيل لما صار اليه فى خدمته الرشيد يذكر أن رزقه كان من رسم العامة : فى كل شهر من الورق عشرة آلاف درهم ، يكون فى السنة مائة وعشرين الف درهم ، فى مدة ثلاث وعشرين سنة الف الف وستمائة وستين الفـــا ، ونزله فى الشـــهر خمسة آلاف درهم ، يكون فى السنة ستين الف درهم ، فى مدة ثلاث وعشرين سنة الف الف وثلاثمائة وثمانين الف درهم . ومن رسم الخاصة فى المحرم من كل سنة : من الورق خمســـون الف درهم يكون فى مدة ثلاث وعشرين ســنة الف الف ومائة وخمسين الف درهم . ومن الثابت : خمسون الف درهم ، يكون فى مدة ثلاث وعشرين سنة الف الف ومائة وخمسين الف درهم .

تفصيل ذلك : القصب الخاص الطرازى عشرون شــقة . الملحم الطرازى عشرون شقة . الخز المنصورى عشر شقاق . الخز المبسوط عشر شقاق . الوشى اليمانى ثلاثة أثواب . الوشى النصيبى ثلاثة أثواب . الطيالسة ثلاثة طيالس . ومن الســـمور (١) والفنـــك (٢) والقماقم (٣) والدلق (٤) والسنجاب (٥) للقبطين (٦) .

وكان يدفع اليـــه فى مدخل صوم النصارى فى كل سنة من الورق خمسون الف درهم ، يكون فى مدة ثلاثة وعشرين الف الف ومائة وخمسين الف درهم . وفى يوم الشعانين من كل سنة ثياب من وشى وقصب وملحم

---

* نقلا عن ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ١٩٨ — ص ٢٠٠ ، الملحق يعطى صورة عن المستوى المعيشى المرتفع الذى عاشه الأطباء ، وخصوصا المشاهير منهم .

وغيره بقيمة عشرة آلاف درهم ، يكون فى مدة ثلاث وعشرين سنة ، مائتى الف وثلاثين الفا ، وفى يوم الفطر فى كل سنة من الورق : خمسون الف درهم ، يكون فى مدة ثلاث وعشرين سنة : الف الف ومائة وخمسين الف درهم ، وثيــاب بقيمة عشرة آلاف درهم ، على الحكاية ، يكون فى مدة ثلاث وعشرين سنة : مائتى الف وثلاثين الف درهم .

ولفصد الرشيد : دفعتان فى السنة كل دفعة خمسون الف درهم من الورق ، مائة الف درهم يكون فى مدة ثلاث وعشرين سنة ، الف الف وثلاثمائة الف درهم .

ولشراب الدواء دفعتان فى السنة ، كل دفعة خمسون الف درهم ويكون فى مدة ثلاث وعشرين سنة الف الف وثلاثمائة الف درهم .

ومن اصحاب الرشيد ، على ما فصل منه مع ما فيه من قيمة الكسوة وثمن الطيب والدواب ، وهو : مائة الف درهم من الورق ، فيكون اربعمائة الف درهم ، يكون فى مدة ثلاث وعشرين ســنة تسعة آلاف ومائتى الف درهم ، تفصيل ذلك : عيسى بن جعفر خمسون الف درهم ، زبيدة ام جعفر خمسون الف درهم ، العباسة (٧) خمسون الف درهم ، ابراهيم بن عثمان ثلاثون الف درهم ، الفضل بن الربيع (٨) خمسون الف درهم ، فاطمــة ام محمد سبعون الف درهم ، كسوة وطيب ودواب : مائة الف درهم .

ومن غلة ضياعه بجنــد يســابور والسوس والبصرة والســواد فى كل سنة قيمته ، بعد المقاطعة ، ورقا ثمانى مائة الف درهم ، يكون فى مدة ثلاث وعشرين سنة ثمانية عشر الف الف ومائة الف درهم .

وكان يصير اليه من البرامكة فى كل سنة من الورق الفا الف وأربعمائة الف درهم ، وتفصــيل ذلك : يحيى (٩) بن خالد ستمائة الف درهم ، جعفر بن يحيى الوزير الف الف ومائتا الف درهم ، الفضل (١٠) بن يحيى ستمائة الف درهم ، يكون فى مدة ثلاث عشرة سنة : احدا وثلاثين الف الف ومائتى الف درهم .

يكون جميع ذلك مدة أيام خدمته للرشيد ، وهى ثلاث وعشرون سنة ، وخدمته للبرامكة وهى ثلاث عشرة سنة ، سوى الصلات الجسام فانها لم تذكر فى هذا المدرج من الورق ثمانية وثمانين الف درهم ، وثمانمائة الف درهم : ثلاثة آلاف الف وأربعمائة الف درهم .

التذكرة : الخراج من ذلك ومن الصلات التى لم تذكر فى النفقات وغيرها على ما تضمنه المدرج المعمول من العين : تسعمائة الف دينار ومن الورق : تسعون الف الف وستمائة الف درهم .

تفصيل ذلك ، ما صرفه فى نفقاته وكانت فى السنة : الفى الف ومائتى الف درهم على التقريب . وجملتها فى السنين المذكورة سبعة وعشرون الف الف درهم وستمائة الف درهم . ثمن دور وبساتين ومنتزهات ورقيق ودواب والجمازات سبعون الف الف درهم ، ثمن آلات وأجر وصناعات وما يجرى هذا المجرى ثمانية آلاف الف درهم . ما صار فى ثمن ضياع ابتاعها لخاصته اثنا عشر الف الف درهم . ثمن جواهر وما اعده للذخائر عن قيمة خمسمائة الف دينار خمسون الف الف درهم . ما صرفه فى البر والصلات والمعروف والصدقات ، وما بذل به حظه فى الكفالات لأصحاب المصادرات ، فى هذه السنين المقدم ذكرها ثلاثة آلاف الف درهم . ما كابره (١١) عليه أصحاب الودائع وجحدوه ثلاثة آلاف الف درهم . ثم وصى بعد ذلك كله عند وفاته الى المامون لابنه بختيشوع ، وجعل المامون الوصى فيها فسلمها اليه ، ولم يعترض فى شىء منها عليه بتسعمائة الف دينار .

حواشى الملحق رقم (١) :

(١) نوع من الفراء يتخذ من جلد السمور وهو حيوان يرى لونه أحمر مائل الى السواد . وقد أطلق على جلده اسمه .

(٢) فراء أيضا من جلد الحيوان المسمى الفنك وهو من جنس الثعالب وفروته من أحسن الفراء .

(٣) صغار القردان . ويقصد هنا بجلودها .

(٤) حيوان يقرب من السمور وهو أصفر اللون وبطنة وعنقه مائلان الى البياض ، ويراد هنا فراؤه .

(٥) فراء حيوان أكبر من الجرذ له ذنب طويل كثيف الشعر ، لونه أزرق رمادى ومن اللون السنجابى .

(٦) أظن أنها أم جعفر البرمكى زوجة يحيى بن خالد .

(٧) بنت المهدى وأخت هارون الرشيد . وذهب المؤرخون والشعراء مذاهبهم فى الكلام عن علاقتها بجعفر البرمكى وأنها كانت سبب نكبتهم .

(٨) وزير الأمين فيما بعد ، حسد البرامكة ودس الدسائس عليهم ورمى البغضاء بين الأمين والمامون . (ن . ر) .

(٩) والد جعفر البرمكى ومؤدب هارون الرشيد ومستشاره .

(١٠) تولى الحكم من قبل هارون الرشيد على جرجان وطبرستان والرى وخراسان . ومات سجينا ، فى الرقة بعد نكبة البرامكة . (ن . ر) .

(١١) عانده وغالبه .

ملحق رقـــم (٢) *

ثبت باعداد الأطبـــاء الذين ترجم لهم ابن أصيبعة منذ أول ظهور الاسلام واختلاف اقاليمهم

العصر والاقاليم والجنس	العدد
١ ــ طبقات الأطباء الذين كانوا فى أول ظهور الاســلام	١٥
٢ ــ طبقات الأطباء السريانيين الذين كانوا ابتــداء ظهور دولة بنى العبـــاس	٣٨
٣ ــ طبقات الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب من اللســان اليونانى الى اللســان العــربى	٤٧
٤ ــ طبقات الأطباء العراقيين واطباء الجزيرة وديار بكر	٨٣
٥ ــ طبقات الأطباء الذين ظهروا فى بلاد العجم	٢٤
٦ ــ طبقات الأطباء الذين ظهروا فى بلاد المغرب واقاموا بها	٨٥
٧ ــ طبقات الأطباء المشهورين من أطباء ديار مصر	٥٨
٨ ــ طبقات الأطباء المشهورين من أطباء الشام	٥٩
٩ ــ طبقات الأطباء الذين كانوا من الهنــد	٦

* عيون الانباء فى طبقات الأطباء ، مرجع سابق ص ١٦١ ــ ص ٧٦٨ ، وسنلاحظ هنا تعدد مراكز التعليم الطبى فى انحاء العالم الاسلامى ، وكثرة عدد الأطباء المشهورين ، حيث لم يترجم ابن أصيبعة الا لذوى الفعاليات الطبية ، والدليل على ذلك أن عضد الدولة بعد انشاء البيمارستان فى بغداد طلب مشاهير أطباء بغداد فذكروا له أسماء مائة طبيب فى بغداد وحدها ، ص ٤١٥ ، والمقتدر عندما أمر بامتحان الأطباء الممارسين تقدم للامتحان أكثر من ثمانمائة وستين طبيبا سوى من اشــتهر بالطب ولم يمتحن ، ص ٣٠٢ ، نفس المرجع .

ملحق رقم (٢) *

التصور الاسلامي للمعرفة

وقد احتوى القرآن ايضا على علوم الأوائل : من الطب والجدل والهيئة والهنسة والجبر والمقلبلة والنجامة وغير ذلك .

اما الطب ، فمداره على حفظ الصحة واستحكام القوة واعتدالها ، اورد الصحة بعد اختلالها ، وحدوث الشفاء بعد اعتلالها ، واشار الى الأول بقوله تعالى : ((**وكان بين ذلك قواما**)) (سورة الفرقان : الآية ٦٧) ، وبقوله تعالى : ((**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا**)) (سورة الاعراف : الآية ٣١) ، والى الثانى بقوله تعالى : ((**شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس**)) (سورة النحل : الآية ٦٩) .

واما الهيئة ففى آيات ذكر فيها ملكوت السموات والأرض ، وما بث فى العالم العلوى والسفلى من مخلوقات ، واحوال الشمس والقمر ، مثل قوله تعالى : ((**فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة**)) (سورة الاسراء : الآية ١٢) ، وقوله تعالى : ((**لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر**)) (سورة يس : الآية ٤٠) ، وقوله تعالى : ((**برب المشارق والمغارب**)) (سورة المعارج : الآية ٤٠) ، الى غير ذلك ، بحيث لو احصى لوجد جميع اصول الهيئة وزيادة عليها .

واما الهندسة ، ففى قوله تعالى : ((**انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب**)) (سورة المرسلات : الآية ٣٠) .

واما الجدل ، فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج

---

* نقلا عن طاش كبرى زادة : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم** ، مرجع سابق ، ص ٥٣٣ — ص ٥٣٦ ، فبعد أن تحدث عن علوم اللغة وعلوم القرآن ، بدأ الحديث عن علوم الأوائل التى هى أيضا مذكورة فى القرآن .

والقول بالموجب والمعارضة ، وغير ذلك ، شيئا كثيرا . ومناظرة ابراهيم نمرود ، ومحاجة قومه ، أصل فى ذلك .

وأما الجبر والمقابلة ، فقد قيل ان أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة وان فيها بقاء هذه الأمة ، وتاريخ مدة الدنيا ، وما مضى وما بقى ، مضروب بعضها فى بعض .

وأما النجامة ، ففى قوله تعالى : ((**أو اثارة من علم**)) (سورة الأحقاف : الآية ٤) ، فقد فسره بذلك ابن عباس . وفيه أيضا أصول الصنائع وأسماء الآلات التى تدعو الضرورة اليها ، كالخياطة فى قوله تعالى : ((**وطفقا يخصفان**)) (سورة الأعراف : الآية ٢٢) .

والحدادة : ((**آتونى زبر الحديد**)) (سورة الكهف : الآية ٩٦) ((**وألنا له الحديد ..**)) الآية .

والبناء فى عدة آيات .

والنجارة : ((**واصنع الفلك بأعيننا**)) (سورة هود : الآية ٧٣) .

والغزل : ((**نقضت غزلها**)) (سورة النحل : الآية ٩٢) .

والنسيج : ((**كمثل العنكبوت اتخذت بيتا**)) (سورة العنكبوت : الآية ٤١) .

والفلاحة : ((**أفرأيتم ما تحرثون ..**)) (سورة الواقعة : الآية ٦٣) .

والصيد : فى عدة آيات .

والغوص : ((**كل بناء وغواص**)) (سورة ص : الآية ٣٧) ، و ((**تستخرجوا منه حلية**)) (سورة النحل : الآية ١٤) .

والصياغة : ((**واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا**)) (سورة الأعراف : الآية ١٤٨) .

الزجاجة : ((**صرح ممرد من قوارير**)) (سورة النمل : الآية ٤٤) ، ((**المصباح فى زجاجة**)) (سورة النور : الآية ٣٥) .

والفخارة : ((**فاوقد لى يا هامان على الطين**)) (سورة القصص : الآية ٣٨) .

والملاحة : ((**اما السفينة ..**)) (سورة الكهف : الآية ٧٩) .

والكتابة : ((**علم بالقلم**)) (سورة العلق : الآية ٤) .

والخبز : ((**احمل فوق رأسى خبزا**)) (سورة يوسف : الآية ٣٦) .

والطبخ : ((**بعجل حنيذ**)) (سورة هود : الآية ٦٩) .

والغسل والقصارة : ((**وثيابك فطهر**)) (سورة المدثر : الآية ٤) . قال الحواريون وهم القصارون .

والجزارة : ((**الا ما ذكيتم**)) (سورة المائدة : الآية ٣) .

والبيع والشراء فى آيات .

والصبغ : ((**صبغة الله**)) (سورة البقرة : الآية ١٣٨) ، ((**جدد بيض وحمر**)) (سورة فاطر : الآية ٢٧) .

والحجارة : ((**وتنحتون من الجبال بيوتا**)) (سورة الشعراء : الآية ١٤٩) .

والكيالة والوزن فى آيات .

والرمى : ((**وما رميت اذ رميت**)) (سورة الأنفال : الآية ١٧) ، ((**واعدوا لهم ما استطعتم من قوة**)) (سورة الأنفال : الآية ٦٠) .

وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع أو يقع فى الكائنات ، وما يحقق معنى قوله تعالى : ((**ما فرطنا فى الكتاب من شيء**)) (سورة الأنعام : الآية ٣٨) .

ملحق رقـــم (٤) *

الطبيب الحاذق صفاته وكيفية ممارسته للمهنة

(فصل) والطبيب الحاذق هو : الذى يراعى فى علاجه عشرين أمرا :

أحدها : النظر فى نوع المرض : من أى الأمراض هو ؟.

الثـــانى : النظر فى سببه : من أى شىء حدث ؟ والعـــلة الفاعلة التى كانت سبب حدوثه ، ما هى ؟.

الثالث : قوة المريض ، وهل هى مقاومة للمرض ، أو أضعف منه ؟ فان كانت مقاومة المرض مستظهرة عليـــه : تركها والمرض ، ولم يحرك بالدواء ساكنا .

الرابع : مزاج البدن الطبيعى ما هو ؟.

الخامس : المزاج الحادث على غير المجرى الطبيعى .

السادس : سن المـــريض .

السابع : عادته .

الثـــامن : الوقت الحاضر من فصول السنة ، وما يليق به .

التاسع : بلد المريض وتربتـــه .

العاشر : حال الهواء فى وقت المرض .

الحادى عشر : النظر فى الدواء المضاد لتلك العـــلة .

الثانى عشر : النظر فى قوة الدواء ودرجته ، والموازنة بينها وبين قوة المـــريض .

الثالث عشر : أن لا يكون كل قصده ازالة تلك العلة فقط ، بل ازالتها على وجه يأمن معه حدوث أصعب منها . فمتى كان ازالتها لا يؤمن معها حدوث علة أخرى أصعب منها : أبقاها على حالها ، وتلطيفها هو الواجب .

---

* نقلا عن : ابن قيم الجوزية : **الطب النبوى** ، مرجع سابق ، ص ١١٢ – ص ١١٥ .

وهذا كمرض أفواه العروق ، فانه متى عولج بقطعة وحبسه ، خيف حدوث ما هو أصعب منـــه .

الرابع عشر : أن يعالج بالأسهل فالأسهل ، فلا ينتقل من العـــلاج بالغـــذاء الى الدواء ، الا عند تعـــذره ، ولا ينتقل الى الدواء المركب ، الا عند تعـــذر الدواء البسيط ، فمن سعادة الطبيب : علاجه بالأغذية بدل الأدوية ، وبالأدوية البسيطة بدل المركبة .

الخامس عشر : أن ينظر فى العلة : هل هى مما يمكن علاجهـــا ، أولا ؟ فان لم يمكن علاجهـــا : حفظ صناعته وحرمته ، ولا يحمله الطمع على علاج لا يفيد شيئا .

وان أمكن علاجهـــا : نظر : هل يمكن زوالهـــا ، أم لا ؟ فان علم أنه لا يمكن زوالها ، فهـــل يمكن تخفيفها وتقليلها ، أم لا ؟ فان لم يمكن تقليلها ، ورأى أن غاية الامكان قطع زيادتها — قصد بالعـــلاج ذلك ، وأعان القوة ، وأضعف المـــادة .

السادس عشر : أن لا يتعرض للخلط قبـــل نضـــجه باستفراغ ، بل يقصد انضاجه ، فاذا تم نضجه ، بادر الى استفراغه .

السابع عشر : أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها وذلك أصل عظيم فى علاج الأبدان ، فان انفعال البدن وطبيعته عن النفس والقلب أمر مشـــهود . والطبيب اذا كان عارفا بأمراض القلب والروح وعلاجهما ، كان هو الطبيب الكامل ، والذى لا خبرة له بذلك — وان كان حاذقا فى عـــلاج الطبيعة وأحوال البـــدن — نصف طبيب . وكل طبيب لا يداوى العليل : بتفقد قلبه وصلاحه ، وتقوية أرواحه وقواه بالصدقة وفعل الخير والاحسان ، والاقبـــال على الله ، والدار الآخرة — فليس بطبيب ، بل متطبب ، قاصر ، ومن أعظم علاجات المرض ، فعـــل الخير والاحسان ، والذكر والدعاء ، والتضرع بالابتهال الى الله ، والتوبة . ولهـــذه الأمور تأثير فى دفع العلل وحصول الشفاء ، أعظم من الأدوية الطبيعية ، ولكن : بحسب استعداد النفس وقبولها ، وعقيدتها فى ذلك .

الثامن عشر : التلطف بالمريض والرفق به ، كالتلطف بالصبى .

التاسع عشر : أن يستعمل أنواع العلاجات الطبيعيــة والإلهيــة والعلاج بالتخييل . فان لحذاق الأطباء فى التخييل أمورا عجيبة لا يصل اليها الدواء . فالطبيب الحاذق يستعين على المرض بكل معين .

العشرون : وهو ملاك أمر الطبيب — أن يجعــل علاجه وتدبيره دائرا من ستة أركان : حفظ الصحة الموجودة ، ورد الصحة المفقودة ، بحسب الامكان ، وازالة العلة وتقليلها بحسب الامكان ، واحتمال أدنى المفسدتين لازالة أعظمهما ، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعظمهما ، فعلى هذه الأصول الستة مدار العلاج . وكل طبيب لا تكون هذه أخيته (١) التى يرجع اليها فليس بطبيب . والله أعلم .

(**فصــل**) ولما كان للمرض اربعة احوال : ابتداء وصعود وانتهاء وانحطاط . تعين على الطبيب مراعاة كل حال من احوال المرض بما يناسبها ويليق بها . ويستعمل فى كل حال ما يجب استعماله فيها فاذا رأى فى ابتداء المرض أن الطبيعة محتاجة الى ما يحرك الفضلات ويستفرغها لنضجها ، بادر اليه . فان فاته تحريك الطبيعة فى ابتداء المرض — لعائق منع من ذلك ، أو لضعف القوة وعدم احتمالها للاستفراغ ، أو لبرودة الفصل ، أو لتفريط وقع — فينبغى ان يحذر كل الحــذر أن يفعــل ذلك فى صعود المرض ، لأنه ان فعله : تحيرت الطبيعة لاشتغالها بالدواء ، وتخلت عن تدبير المرض ومقاومته بالكلية ومثاله : أن يجىء الى فارس مشغول بمواقعة عدوه ، فيشغله عنه بأمر آخر . ولكن الواجب فى هذه الحال : أن يعين الطبيعة على حفظ القوة ما أمكنه .

فاذا انتهى المرض ووقف وسكن ، أخــذ فى استفراغه واستئصال اسبابه ، فاذا أخذ فى الانحطاط كان أولى بذلك . ومثال هذا مثل العدو اذا انتهت قوته ، وفرغ سلاحه ، كان أخذه سهلا ، فاذا ولى وأخــذ

(١) الأخية بزنة أبية : الحرمة والذمة . وهى أيضا مشهورة فيما تربط فيه الدابة . وارادة الأول أظهر . بل هو المتعين .

فى الهرب ، كان اسهل اخذا ، وحدته وشوكته انما هى فى ابتدائه ، وحال استفراغه ، وسعة قوته . فهكذا الداء والدواء سواء .

(فصـــل) ومن حـــذق الطبيب : أنه حيث امكن التدبير بالأســـهل فلا يعدل الى الأصعب ، ويتدرج من الأضعف الى الأقوى . الا أن يخاف فوت القوة حينئـــذ : فيجب أن يبتدىء بالأقوى . ولا يقيم فى المعالجـــة على حال واحدة : فتألفها الطبيعة ويقل انفعالها عنه ، فلا تجسر على الأدوية القوية فى الفصول القوية . وقد تقـــدم أنه اذا أمكنه العـــلاج بالغذاء ، فلا يعالج بالدواء . واذا أشكل عليه المرض : أحار هو ؟ أم بارد ؟ فلا يقدم حتى يتبين له ، ولا يجربه بما يخاف عاقبته . ولا بأس بتجربته بما لا يضر أثره .

واذا اجتمعت امراض : بدأ بما تخصه واحدة من ثلاث خصال :

احداها : ان يكون برء الآخر ، موقوفا على برئه ، كالورم والقرحة ، فانه يبدأ بالورم .

الثانيـــة : ان يكون أحدهما سببا للآخر ، كالسدة والحمى العفنة ، فانه يبدأ بازالة السبب .

الثالثـــة : ان يكون أحدهما اهم من الآخر ، كالحاد والمزمن ، فيبدأ بالحاد ، ومع هذا فلا يغفل عن الآخر .

واذا اجتمع المرض والعرض ، بدأ بالمرض ، الا أن يكون العرض اقوى كالقولنج ، فيسكن الوجع أولا ، ثم يعالج الســـدة ، واذا أمكنه أن يعتاض عن المعالجة بالاستفراغ ، بالجوع أو الصـــوم أو النـــوم ، لم يستفرغه ، وكل صحة أراد حفظها ، حفظها بالمثل او الشبه وان أراد نقلها الى ما هو افضل منها ، نقلها بالضد .

المحتـــــويات

الموضــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

صواب السطر ١٥ صفحة ٩٦ هكذا :

الصبى ممكنة له مواتية ، لكن ما شاكل طبعـــه وناسبه ، وانه لو كانت

رقم الايداع بدار الكتب : ١٩٨٤/٤٨١٤
الترقيم الدولى : ٣ — ١٢١٠ — ١٠ — ٩٧٧